الإيضاح

في علوم البلاغة

للخطيب القزويني المتوفى عام ٧٣٩ هـ

شرح وتعليق وتنقيح

الدكتور

محمد عبد المنعم خفاجي

الجزء الأول

الطبعة الثالثة

١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م

الناشر

المكتبة الأزهرية للتراث

٩ درب الأتراك خلف الجامع الأزهر الشريف

ت ٥١٢٠٨٤٧٠

بسم الله الرحمن الرحيم

الكلمة الأولى

أحمده وأسأله التوفيق والسداد ، وبعد :

فهذا شرح جديد مفصل ، لكتاب الايضاح ، تأليف العالم الامام الخطيب القزويني ، امام البلاغة وشيخ البيان ، المتوفى عام ٧٣٩ هـ .

توخيت فيه عمق البحث ، ودقة التحليل ، والعناية ببسط المسائل ، وحل المشكلات ، وأومأت فيه الى شتى المراجع والمصادر . ليكون جامعا لمسائل البلاغة ومصدرا للدراسات العالية فيها ، ومرجعا للطلاب والدارسين والباحثين . والله يعلم مقدار ما أخذ مني من جهد وبحث ومراجعة ، ومع ذلك فقد ثابرت على كتابته واخراجه ، ليسد النقص الذي نلمسه في دراسات البلاغة .

وقد ظهرت الطبعة الأولى لهذا الكتاب ١٩٤٩ والطبعة الثانية عام ١٩٨٤ ، وها هي ذي الطبعة الثالثة منقحة مهذبة ، والله أسأل أن يجعله خالصا لوجهه ، وأن ينفع به العلم والثقافة ولغة الكتاب العزيز . فهو وليي ، نعم المولى ونعم النصير .

وما توفيقي الا بالله عليه توكلت واليه أنيب .

محمد عبد المنعم خفاجي

مقـــــدمات

● نشأة البلاغــة العربية ومراحل التأليف فيها :

١ ـ كان القرن الثانى الهجرى أول عصر شهد نشأة آراء كثيرة أصيلة ومترجمة حول البلاغة[١] وعناصرها ، بعد فساد الملكات ، وقد أخذ العلماء فى بحث أصول بلاغات العرب ، وفى تدوين آرائهم فى معنى كلمةالبلاغة والفصاحة. وأهم ما يؤثر من ذلك : وصية بشر بن المعتمر ـ من زعماء المعتزلة وتوفى نحو عام ٢١٠ هـ ـ فى البلاغة[٢] ، وتفسير ابن المقفع للبلاغة[٣] ، وتعريف العتابى لها[٤] ، ووصية [٥] أبى تمــام للبحترى تدخل فى هذا الباب ، ويقول البحترى : خير الكلام ما قل ودل ولم يمل[٦] .. وفى البيان للجاحظ تحديد للبلاغة كما يراها حكيم الهند[٧] ، ويقسمها الكندى فيلسوف العرب المتوفى عام ٢٦٠ هـ الى ثلاثة أنواع : فنوع لا تعرفه العامة ولا تتكلم به ، ونوع بالعكس ،

---

(١) لا تجد فى العصر الجاهلى كلمات عن البلاغة الا ما روى عن عامر ابن الظرب حين سئل من أبلغ الناس ؟ فقال : من حلى المعنى المزين باللفظ الوجيز وطبق المفصــل قبل التحزيز (٢٠٦ جـ ١ العمــدة ، ٢٨٠ جـ ٢ الامالى) .. وفى العصر الاموى نجد لمعاوية كلمات فى البلاغة ولسواه ، روى أن معاوية سأل صحارا عنها فأجابه (راجع ٨١ جـ ١ البيان ، ١٨ جـ ٢ الكامل) .

(٢) ١٠٤ وما بعدها جـ ١ البيان .

(٣) ٩١ جـ ١ البيان ، ٢١٤ جـ ١ العمدة ، ٧٥ جـ ١ البيان ، ٤٤ ـ ٤٦ الرسالة العذراء ، ٢ و ٣ و ٢٢ و ٢٣ جـ ٣ العقد ، ١٤٠ ـ ١٥٠ جـ ١ زهــر الآداب .

(٤) ٩٠ و ١٥٧ جـ ١ البيان .

(٥) ١٥١ جـ ١ زهر الآداب .

(٦) ٣٦ جـ ١ المستطرف وتروى عن الثعالبى برواية أخرى : « ما قل ودل » (٢١٨ جـ ١ العمدة) .

(٧) ٧٨ و ٧٩ جـ ١ البيان ، ٢٠ ـ ٣٨ الصــناعتين ، ١٤٤ جـ ١ زهر ، ٤٤ الرســالة العذراء .

ونوع تعرفه ولا تتكلم به وهو أحمدها[1] ، وذكر بزر جمهر حكيم الفرس فضائل الكلام ورذائله فى كلمة مترجمة رواها صاحب الموازنة[2] . الى آخر هذه الكلمات والآراء .

٢ — ثم ألفت بعد ذلك كتب تجمع كثيرا من الآراء والدراسات الموجزة حول البلاغة وبحوثها . ومن هذه الكتب : مجاز القرآن لأبى عبيدة م ٢٠٧ هـ والفصاحة للدينورى م ٢٨٠ هـ[3] والتشبيه والتمثيل للفضل بن نوبخت[4] وصناعة الكلام للجاحظ[5] ، ونظم القرآن[6] والتمثيل[7] له أيضا ، والبلاغة وقواعد الشعر للمبرد[8] ... وفى الكامل اشارات لمسائل كثيرة فى البلاغة ، وكذلك الرسالة العذراء لابن المدبر ، والبلاغة للحرانى[9] ، وقواعد الشعر لثعلب ، وقد نشرته عام ١٩٤٨ بشروح كثيرة ، والبلاغة والخطابة للمروزى[10] والمطابق والمجانس لابن الحرون[11] وتهذيب الفصاحة لأبى سعيد الأصفهانى[12] واعجاز القرآن فى نظمه وتأليفه للواسطى المعتزلى م ٢٠٦ هـ ، وصنعة البلاغة للباحث ، وللسيرافى م ٣٦٨ هـ . ونظم القرآن لابن الأخشيد[13] ، وكذلك لابن أبى داود م ٣١٦ هـ[14] وكتاب الرد على من نفى المجاز فى القرآن للحسن بن جعفر[15] ... ومن هذه الكتب أيضا المفصل فى البيان ، والفصاحة للمرزبانى م ٣٧٨ هـ .

على أن أهم الكتب التى تناولت بعض مسائل البلاغة بالبحث ،

---

(١) ٢١٩ جـ ١ العمدة .
(٢) ١٨٣ الموازنة .
(٣) ١١٦ الفهرست لابن النديم .
(٤) ٣٨٣ المرجع .
(٥) ٣٨ الجاحظ لمردم .
(٦) ٤٠ المرجع .
(٧) ٧٦ جـ ٦ معجم الأدباء .
(٨) ٨٨ فهرست ، ١٤٤ جـ ٧ معجم الأدباء .
(٩) ١٧٨ فهرست .
(١٠) ٢١٥ فهرست .
(١١) ٢١٢ فهرست .
(١٢) ١٩٧ فهرست .
(١٣) ٥٧ و ٥٨ فهرست .
(١٤) ٣٢٤ فهرست .
(١٥) ٥٢٠ فهرست .

أو التي ألفت فيها خاصة هي : كتاب جمهرة أشعار العرب لأبي زيد القرشي ، ففي مقدمته بحوث موجزة طريفة تتصل بالبلاغة • وكتاب البيان والتبيين للجاحظ ، وهو أهم ما ألف في هذا الطور من كتب تتصل ببلاغات العرب نثرا وشعرا ، وتتعرض لتحديد البلاغة وما حولها من آراء كانت ذائعة في عصر الجاحظ ، وفيه كثير من بحوث البلاغة ، فهو يعرف الاستعارة[١] ويتكلم على السجع[٢] ويشير الى التفصيل والتقسيم[٣] والاستطراد والكناية[٤] والأمثال [٥] والاحتراس[٦] والقلب[٧] والأسلوب الحكيم[٨] ، والجاحظ أول من تكلم على المذهب الكلامي[٩] ويرى البلاغة في النظم لا في المعاني[١٠] وهو ما ذهب اليه ابن خلدون[١١] • والجاحظ يشيد بالايجاز[١٢] ، كما يدعو في البيان كثيرا الى ترك الوحشي والسوقي ، ويحث على الافهام والوضوح ، وعلى ترك التعمق والتهذيب في صناعة الكلام ، الى غير ذلك من شتى ما دونه في البيان •• ولا يضير الجاحظ أن كانت دراساته موجزة مفرقة كما يقول أبو هلال [١٣] ، فهي على كل حال ذات أثر كبير في نشأة البيان ، وهي التي أوحت الى كثير أن يعدوا الجاحظ الواضع الأول لعلم البيان • ومن الخطأ التهوين بأثر الجاحظ في البيان كما ذهب اليه بعض الباحثين المحدثين •

---

(١) ١١٦ ج ١ البيان .   (٢) ١٩٤ ج ١ البيان .
(٣) ١٧٠ ج ١ و ٩١ ج ٢ البيان .
(٤) ١٨٠ ج ١ و ٨ و ٢٩ و ٣١ و ٨٠ ج ٣ البيان .
(٥) ٨٦ و ٨٨ و ١١٤ و ١٨٣ ج ١ و ٢٢٤ ج ٢ البيان .
(٦) ١٦١ ج ١ البيان .   (٧) ١٨٠ ج ١ البيان .
(٨) ٢٠١ و ٢٠٢ ج ٢ البيان .
(٩) ١٠١ البديع لابن المعتز نشر محمد خفاجي ، ٧٦ ج ٢ العمدة .
(١٠) ٤٠ ج ٣ الحيوان .
(١١) ٥٧٧ مقدمة ابن خلدون . ويقول شيلر : في الفن الشكل هو كل شيء والمعنى ليس شيئا مذكورا .
(١٢) ٨٣ و ٨٦ ج ١ ومواضيع اخرى .
(١٣) ص ٦ و ٧ الصناعتين .

٣ ــ وقد بدأ التدوين فى البــلاغة على يد ابن المعتز الذى ألف كتابه القيم « البديع »(١) وثعلب الذى ألف كتابه « قواعد الشعر » ، وبعد قليل ظهر نقد النثر كما ظهر نقد الشعر لقدامة بن جعفر المتوفى عام ٣٣٧ هـ • ثم كتاب الصناعتين لأبى هلال المتوفى عام ٣٩٥ هـ ، ثم كتاب الموازنة للآمــدى ، والوســاطة للجرجانى ، واعجــاز القــرآن للباقلانى ، وسر الفصاحة لابن سنان الخفاجى ، والعمدة لابن رشــيق وهما أكثر الكتب اتصالا بالبلاغة •

٤ ــ ثم جــاء بعد ذلك أبو بكر عبد القاهر الجرجانى شيخ البلاغة العربية والمتوفى عام ٤٧١ هـ • فألف فى البلاغة كتابين جليلين هما :

١ ــ أسرار البلاغة ، وفيه دراســات واســعة تتناول بحوث علم البيان من تشبيه ومجاز واستعارة وفيــه شرح للسرقات وبعض ألوان البــديع •

٢ ــ دلائل الاعجاز ، وفيه بحوث كثيرة هى أصول علم المعانى • كما أنه تحدث فيه عن الكناية وعن التمثيل والمجاز والاستعارة والسرقات أيضــا •

٥ ــ وبعــد عصر الجرجــانى بحث الزمخشرى فى تفســيره ، والرازى فى كتابه « نهــاية الايجاز » ، وابن الأثير صاحب المثــل(٢) الســائر ، وبدر الدين بن مالك صاحب المصــباح ، والتنوخى صاحب « الأقصى القريب » ، وكثير من العلماء ، فى البلاغة والفصاحة •

ومن أهم هؤلاء العلماء فى هذا الطور أبو يعقوب السكاكى المتوفى عام ٦٢٦ هـ تلميذ الحاتمى (٣) ، الذى ألف كتابه « المفتــاح » ، وجعله

---

(١) على نهجه الف ابن منقذ المتوفى عام ٨٤ هـ كتابه « البديع » •
(٢) شرحه عز الدين بن أبى الحديد م ٦٦٥ هـ فى كتابه « الفلك الدائر على المثل الســائر » •
(٣) ٧٣ المفتــاح •

أقساما ، وخص البلاغة بالقسم الثالث منه ، وقسمها الى ثلاثة أقسام المعانى ـ البيان ـ البديع . وبذلك تميزت علوم البلاغة ومباحث كل علم منهـا بالتفصيل .

والفلسفة والمنطق تغلب على السكاكى الى حد كبير ، من حيث كان يغلب الذوق والطبع على عبد القاهر .

وبذلك تنتهى مراحل التأليف والابتكار فى بحوث البلاغة وتدوينها تدوينـا كاملا .

٦ ـ وجاء الخطيب القزوينى المتوفى عام ٧٣٩ فألف فى البلاغة كتابيه : تلخيص[١] المفتاح والايضـاح . وقد ألف الايضـاح ليكون كالشرح لتلخيص المفتاح وجمع فيه كثيرا من آراء عبد القاهر والسكاكى فى شىء من التنظيم والشرح .

وعلى متن التلخيص كثرت الشروح والحواشى والتقـارير وفى مقدمتها الأطـوال للعصام ، والمطـول[٢] للسـعد وشروح التلخيص وسواها ... وهذه أهم كتب البلاغة وشروحها فى هذا العهد : قوانين البلاغة لعبد اللطيف البغـدادى م ٦٢٩ هـ ، والتبيـان لابن الزملكانى م ٦٥١ هـ ، والمعيار للزنجانى م ٦٥٤ هـ ، وبديع القرآن لابن أبى الاصبع م ٦٥٤ هـ ، والفوائد الغيـاثية للعضـد م ٧٥٦ هـ وشرحهـا الكرمانى م ٧٨٦ هـ ، والتبيان لشرف الـدين الطيبى م ٧٤٣ هـ ، والطراز ليحيى ابن حمزة العـلوى م ٧٤٩ هـ ، وعروس الأفراح للسـبكى م ٧٧٣ هـ ، والسمرقندية للسـمرقندى وهى رسـالة فى الاسـتعارات ، وتوفى السمرقندى عام ٨٨٠ هـ .

---

(١) لزكريا الانصـارى م ٩٢٦ هـ « مختصر تلخيص المفتـاح » : وللعباسى م ٩٦٣ هـ شرح لشواهد التلخيص سماه معاهد التنصيص .

(٢) عليه كتاب فى شرح شواهده اسمه عقود الدرر فى حل أبيـات المطول والمختصر ، وهو مطبوع طبعة حجر عام ١٣٠٧ هـ فى ١٦٦ صفحة .

٧ ـ شروح المفتاح للسكاكى .

(أ) شرحه بتمامه المولى حسام .

(ب) وشرح القسم الثالث منه : الشيرازى م ٧١٠ ﻫ فى « مفتاح الفتاح » . والترمذى وهو معاصر للشيرازى ، والخلخالى م ٧٤٥ ﻫ ، والسعد (٧١٢ ـ ٧٩١ ﻫ) ، والسيد م ٨١٦ ﻫ فى « المصباح » الذى ألفه عام ٨٠٣[1] ﻫ ، وعماد الدين الكاشى . وله رسالة فى حل المتشابهات التى أوردها الخطيب على المفتاح ، والابهرى سلطان شاه ، وطاشكبرى زاده م ٩٦٢ ﻫ ، وشيخ زاده م ٩٥١ ﻫ ، والشربينى م ٧٦٩ ﻫ ، والخوارزمى ، وقد فرغ منه عام ٦٤٢ ﻫ ، والفنارى م ٨٣٤ ﻫ ، وله على شرحى السعد والسيد تعليقات ، وابن كمال باشا م ٩٤٠ ﻫ ، وسواهم .

(ج) واختصر القسم الثالث منه :

المعانيجى م ٩٩٠ ﻫ ، والقزوينى ٦٦٦ ـ ٧٣٩ ﻫ ، والايجى م ٧٥٦ ﻫ فى الفوائد الغياثية ، وبدر الدين ابن مالك م ٦٨٦ ﻫ فى « المصباح فى اختصار المفتاح » ونظم « المصباح » المراكشى ، ثم شرحه وسماه « ضوء المصباح على تراجيز المصباح » ، واختصر هذا المختصر ابن النحوية م ٧١٨ ﻫ ، وسماه « ضوء الصباح » ، ثم شرحه فى مجلدين فى كتاب اسفار المصباح عن ضوء المصباح ، ولمحمد بن خضر « مصباح الزمان فى شرح المصباح » ..

هذا وقد ألف السعد « المطول على تلخيص المفتاح للخطيب القزوينى » وانتهى من تأليفه عام ٧٤٨ ﻫ ، كما انتهى من تأليف مختصر المطول عام ٧٥٦ ﻫ .. وفرغ ابن يعقوب من تأليف شرحه على مختصر

---

(١) على شرح السيد حواش : البسطامى م ٨٧١ ﻫ ، وللمولى اللطفى م ٩٠٠ ﻫ ، ولحميد الدين م ٩٠٨ ﻫ ، ولأسعد الناجى م ٩٢٢ ﻫ ، ولمحيى الدين الفنرى م ٩٥٤ ، وللشهاب الخفاجى م ١٠٦٩ ﻫ .

السعد فى مكناسة فى المحرم ١١٠٨ هـ .. وانتهى ابن السبكى من تأليف شرحه « عروس الأفراح » على مختصر السعد فى جمادى الأولى عام ٧٥٨ هـ .. وانتهى الدسوقى من كتابة شرحه على مختصر السعد فى شوال عام ١٢١٠ هـ .

٨ ـ يمتاز الايضاح للخطيب القزوينى بعدة ميزات ظاهرة : فهو أوفى كتاب فى بحوث البلاغة ، وهو أوضح الكتب المؤلفة فيها نظاما وأسلوبا ، وهو كثير البحث والتعمق والاستنباط لأسرار البلاغة العربية ، فوق أنه كتاب تطبيقى جميل فى البلاغة ، وينقد القزوينى فيه كثيرا من آراء السكاكى ، وان كان يعتمد الخطيب فيه على عبد القاهر والسكاكى كثيرا . ومع ذلك فالخطيب يجمع فى كتابه خلاصات لبحوث علماء البلاغة فى شتى العصور حتى عصره ، والكتاب بعد ذلك غزير المادة ، كبير الفائدة فى الأدب والنقد والبلاغة والبيان[1] .

وهناك مؤلفات جديدة ظهرت فى البلاغة فى عصر الحواشى ، ومن بينها عقود الجمان للسيوطى . كما ظهرت فى العصر الحديث عدة مؤلفات فى البلاغة فيها لون من التهذيب والتنسيق وحسن الأخذ والاختيار .

وبذلك تنتهى مراحل التأليف فى البلاغة منذ نشأتها حتى الآن .

* * *

(١) شرحه الأقصرائى م ٨٠٠ هـ وحيدرة م ٨٢٠ هـ ، والأستاذ الصعيدى والأستاذ التنوخى .

● الخطيب وأثره فى البلاغة العربية :

والخطيب القزوينى[1] هو « جمال الدين أبو المعالى محمد بن عبد الرحمن ، ابن خطيب دمشق » كما يقول جورجى زيدان ، وبتفصيل أوسع هو « الشيخ الامام العالم العلامة خطيب الخطباء ، مفتى المسلمين ، جلال الدين ، أبو عبد الله ، محمد ، ابن حفص عمر ، القزوينى الشافعى » كما يقول تلاميذه أو هو نفسه فى مقدمة كتابه الايضاح .

فهو من أسرة علمية ودينية كبيرة ، كان لها ولا شك أثرها فى حياته وتفكيره وروحه .

ولد عام ٦٦٦ هـ ، وتعلم الفقه ، وتولى القضاء ، وانتقل الى دمشق ، وتولى الخطابة فى مسجدها ، ثم تولى القضاء بمصر ، وتمكن نفوذه فيها أيام الملك الناصر ، اكتسب مالا طائلا ، ثم جاء الى دمشق وتوفى فيها . وأشهر مؤلفاته تلخيص المفتاح ، والايضاح فى المعانى والبيان[2] ، وكانت وفاته عام ٧٣٩ هـ ، كما يقول صاحب الدرر الكامنة .

وتدل مؤلفات الخطيب فى البلاغة على ثقافة بلاغية وأدبية واسعة وقراءة مستفيضة لأهم المؤلفات فى البلاغة وفى مقدمتها : « أسرار البلاغة » و « دلائل الاعجاز » لعبد القاهر ، والمفتاح للسكاكى .

ألف الخطيب مختصرا صغيرا للمفتاح فى البلاغة ، أو للقسم

---

(١) شذرات الذهب ، الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة ، وسواها .

(٢) وقد حرف جورجى زيدان اسمه فذكره « الافصاح » بدل الايضاح (٤٤ جـ ٣ تاريخ آدب اللغة العربية) .

الثالث بعبارة أوضح ، وسماه « تلخيص المفتاح »[١] . لخص فيه ذلك السفر القيم وقدم فيه وأخر ، وحذف واختصر ، وفيه بعض آراء له لم يرتضها جهابذة هذه الفنون ، » ومن العجيب أن يسمى كتابه بهذا الاسم ، وهو فى رأى أحد الباحثين ليس بالتلخيص له وحده ، بل أشبه بأن يكون تلخيصا لكتابى أسرار البلاغة ودلائل الاعجاز لعبد القاهر ولسر الفصاحة لابن سنان الخفاجى .. وروح التلخيص من الكتاب الأخير واضح كل الوضوح فى مقدمته »[٢] . وقد يكون فى هذا الرأى لون من المبالغة ، فمتن التلخيص ليس تلخيصا للأسرار والدلائل وسر الفصاحة فى قليل ولا كثير ، انما هو تلخيص للقسم الثالث من المفتاح وحده ، وما فيه من روح التأثر بعبد القاهر فمرجعه الى المفتاح نفسه ، الذى اعتمد فيه السكاكى على عبد القاهر الى حد بعيد . وقد يستساغ ذلك فى الايضاح لا فى « تلخيص المفتاح » .

ثم ألف الخطيب كتابه الايضاح فى البلاغة على ترتيب التلخيص ، وبسط القول فيه ليكون كالشرح له ، فأوضح مواضعه المشكلة ، وفصل معانيه المجملة ، واعتمد على المفتاح والأسرار والدلائل وغير هذه المؤلفات فى بحوثه ودراساته فيه ، كما يشير اليه الخطيب نفسه فى مقدمة الايضاح . والكتاب « فيه أمهات مسائل هذه الفنون بعبارة واضحة فيها روح من أسلوب عبد القاهر الجامع بين التحقيق العلمى والرصانة الأدبية[٣] .

---

(١) شرحه الخلخالى م ٧٤٥ هـ ، وناظر الجيش م ٧٧٨ هـ والبابرتى م ٨٧٦ هـ ، وشمس الدين القونوى م ٧٨٨ هـ ، والتبريزى م ٧٩٣ هـ ، والسيد عبد الله م ٨٠٠ هـ ، وعصام الدين م ٩٥١ هـ ، والسعد م ٧٩٥ هـ ... وعلى شرح السعد شروح : ليسن الحمصى م ٩٦١ هـ ، ولابن يعقوب م ١١٠٨ هـ وللدسوقى م ١٢٣٠ هـ .

(٢) ٦٢ ، ١٣٧ بحوث وآراء فى علوم البلاغة للأستاذ المرحوم احمد المراغى .

(٣) ٦٣ المرجع .. وفى المكتبة الأزهرية حاشية مخطوطة على أبيات

=

وعلى « تلخيص المفتــاح للخطيب » كثير من الشروح والحواشي والتقارير مما يدل على مدى شهرته العلمية عند الباحثــين . ولا يزال منهج الخطيب فى البلاغة وفى تلخيصه بالذات هو المنهج العلمى فى علوم البلاغة الى عصرنا الراهن .

وكتاب الايضاح عمل جليل فى البلاغة ســواء فى ترتيبه وتقسيمه وتنظيم بحوثه ، أم فى اســتيعابه واســتقصائه وتحليله ، أم فى جمعه واستمداده من شتى المصادر والمراجع ، أم فى أســلوبه الأدبى وروحه وكثرة تطبيقاته الأدبية ، وهو أهم كتاب دراسى فى البلاغة فى العصر الحــاضر .

* * *

وهذا شرح جديد للايضــاح ، يتناول بالبحث والتحليل والدراسة والتعليق والشرح جميع مســائله وشــواهده ، ويشير الى مصــادره ومراجعه التى ألف منهــا الخطيب هــذا الكتاب . وهو عمل سيكون له أثره فى البلاغة العربية ، وفى خدمة الايضاح وتذليل صعوبات البحث فيــه بتوفيق الله .

ويمتاز هذا الشرح بدقة البحث . وطول المراجعة ، وكثرة الشرح والتفصيل ، والالمــام بكل رأى ، وتحليل كل مذهب ما عليه وما له ، وبعرض آراء جديدة فى شتى بحــوث البلاغة وعلومها .. كما يمتاز بمقدمته التى هى تأريخ للبلاغة ونشأتها وأطوار التأليف فيها ، وغــير ذلك مما يحتوى عليه من مميزات ، وقد وضعنا للكتاب بعض العناوين المساعدة على فهمه وايضاحه .

* * *

=

الايضاح ، وهى نسخة فى مجلد بقلم فارسى فى ١٢٦ ورقة بنمرة (٤٣) ١٠٩٥ . وفيها نسخة فى مجلد بقلم معتــاد بخط محمــد حسن ســنة ١٣٦٥ فى ١٥٠ ورقة بنمــرة (٢١١٠) ٥٢٨٦ .. شرح مخطــوط على الايضــاح ، بدار الكتب المصرية .

ترجمـة الخطيـب

عن الدرر الكامنة لابن حجر (١) ، والعقد المذهب لابن الملقن ، وشـذرات الذهب (٢)

هو قاضي القضـاة أبو المعالى جـلال الدين محمـد بن القاضى سـعد الدين أبى القاسـم عبد الرحمن بن امام الدين عمر القزوينى الشـافعى .

ولد بالموصل سـنة ٦٦٦ وسكن بلاد الروم ، مع والده وأخيـه واشتغل بالعلم وتفقه على والده وولى قضـاء تيكسار من بـلاد الروم ثم قدم دمشق وسمع من العز الفاروثى وطائفة وحدث وتفقه واشتغل فى الفنون وأتقن الأصـول والعربية والمعانى والبيان ، وكان فهما ذكيا مفوها ذا ذوق سـليم حسن الايراد والمحاضرة حلو العبـارة فصيحا جميل الهيئة كبير الذقن جوادا أديبا حسن الخط ، وناب عن أخيه الأكبر امام الدين قاضى قضاة الشـام الى أن مات أخوه سنة ٦٩٩ ثـم ولى خطابة جامع دمشـق فأقام بهـا مدة طويلة ثم طلبه الملك النـاصر الى القاهرة فى سنة ٧٢٤ وكان قدومه على البريد يوم الجمعة فاتفق أنـه اجتمع بالناصر ساعة وصـوله فأمر به أن يخطب بجامع القلعة فخطب مرتجلا مع ما هو عليـه من التعب وأثر السـفر فأعجب به السـلطان وشكره وسأله عن حاله وكم عليه من الدين فذكر أن عليـه ثلاثين ألفـا فأمـر بوفائها عنه فشافهه بقضاء دمشق فباشرها والخطـابة جميعا الى أن ولاه قضاء الديار المصرية فى سنة ٧٢٧ فعم أمره جـدا وصرف مال الأوقاف على الفقـراء والمحتاجين وحج مع السـلطان فأعانه بمـال وأحسن الى المصريين والشـاميين وكان لهم ذخرا وملجأ ولم يزل على

---

(١) ص ٦ ج ٤ طبع الهند عام ١٣٥٠ هـ — لابن حجر م ٨٥٢ هـ .
(٢) ١٢٣ / ٦ شـذرات الذهب .

حاله الى أن أعيد الى قضاء الشام بسبب أحوال أولاده وفرح به أهــل الشام فأقام قليلا وتعلل وأصابه فالج فمات منه فى سـنة ٧٣٩ هـ عن ٧٣ سنة فأسفوا عليه كثيرا وشيعه عالم عظيم ، وللشـعراء فيــه مدائح كثيرة ومراث عديدة وكان يرغب الناس فى الاشـتغال بأصول الفقــه وفى المعانى والبيان • وتصنيفه المسمى تلخيص المفتاح مشهور ونظمــه السيوطى وسماه عقود الجمان •• وله ايضاح التلخيص أيضا •• وكان يعظم الارجانى الشاعر ويقول انه لم يكن للعجم نظيره واختصر ديوانه فسماه (السور المرجانى من شعر الارجانى) • وقال الذهبى : عظـم شـأنه لمـا ولى قضـاء الديار المصرية وبلغ من العز ما لا يوصف بحيث لا ترد له شفاعة وربما رمى على يد السلطان نفســه وكان فصيحا حلو العبارة ، مليح الصورة ، سمحا حليما كثيرة التحمل وسـيرته تحتمـل كراريس ، وذكر اليوسفى فى سيرة الملك الناصر محمد أن القاضى كان محسنا الى الناس كثير التصدق والمكارم والبر لأرباب البيوت ، قال : انه لم يوجـد لأحد من القضـاة منزلة عند سـلطان تركى نظير نزلـة جلال الدين ، وكان الناصر يحتمل ما ينقل اليه من سيرة ولده حتى كان يقول لوالى البلد : اكبس فلانا ثم يرسل اليه يقول : لا تفعل ، نبقى فى حياء من والده ••• فرحمة الله تعالى عليهم وغفرانه •

وترجم له السيوطى فى بغية الوعاء (ص ٦٦) ، فنسبه الى أبى دلف العجلى ، وذكر ما لا يخرج عما سبق ، ثم قال : ولا أعلمه نظـم شـيئا مع قوة باعــه فى الأدب ، ومات فى منتصــف جمــادى الأولى عــام ٧٣٩ هـ •

ويقول صاحب الدرر الكامنة : ان له ابنا اسمه محمد بن محمد بن عبد الرحمن بن عمر القزوينى ، وهو ابن القاضى جـلال الدين خطيب جامع دمشق •• وقد ترجم له[1] •

* * *

(١) ١٨٥ جـ ٤ .. ويقول فيه : انه ولد عام ٧٠١ هـ وتفقه ومهر فى الخطابة ومات فى جمادى الآخـر عام ٧٤٢ هـ •

اول كتاب الايضاح للخطيب القزويني

● تمهيـــد :

قال الشيخ الامام ، العـالم العـلامة ، خطيب الخطباء ، مفتى المسلمين ، جلال الدين : أبو عبد اللـه محمد ، ابن قاضى القضـاة سعد الدين أبى محمد عبد الرحمن ، ابن امام الدين أبى حفص عمر ، القزوينى الشافعى . متع الله المسـلمين بمحياه ، وأحسن عقباه :

الحمد لله رب العالمين ، وصلاته على محمد وعلى آل محمد أجمعين .

أما بعـد : فهذا كتاب فى علم البلاغة وتوابعها[١] ، ترجمتـه[٢] بـ « الايضـاح » وجعلته على ترتيب مختصرى الذى سميته تلخيص المفتاح . وبسطت فيه القول ليكون كالشرح له ، فأوضحت مواضعه المشكلة ، وفصلت معانيـه المجملة وعمدت الى ما خلا عنه المختصر ، مما تضمنه « مفتاح العلوم[٣] » ، والى ما خـلا عنه المفتاح من كلام الشيخ الامام عبد القاهر الجرجانى[٤] رحمه الله ـ فى كتابيه : دلائل الاعجاز ، وأسرار البلاغة ، والى ما تيسر النظر فيه من كلام غيرهما[٥] ، فاستخرجت زبدة[٦] ذلك كله ، وهذبتها ورتبتها ، حتى استقر كل شىء منها فى محله ، وأضفت الى ذلك ما أدى اليه فكرى ، ولم أجده لغيرى .

فجاء بحمد الله جامعا لأشتات هـذا العلم . واليه أرغب فى أن يجعله نافعا لمن نظر فيه من أولى الفهم .

وهو حسبى ونعم الوكيل .

* * *

---

(١) علم البلاغة يشتمل على المعانى والبيان وتوابعها هو علم البديع والكلام فى السرقات الشعرية .

(٢) المـراد : سميته . (٣) تأليف السكاكى م ٦٢٦ هـ .

(٤) هو شيخ البلاغة العربيـة وفيلسـوفها . توفى عـام ٤٧١ هـ . واسـمه أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجانى : وله ترجمة فى فوات الوفيات وفى بغية الوعاة للسـيوطى وعرض له ولكتابيه : الأسرار والدلائل صاحب كتاب بحوث وآراء فى علوم البلاغة (ص ٥٨ ، ١٢٩ ـ ١٣٢) .. وقد ألفت فيه كتابا عنوانه « عبد القاهر والبلاغة العربية » .

(٥) أى غـير السكاكى والجرجانى .

(٦) زبدة الشىء : جوهره وخلاصته .

مقـــــدمة (١)

فى الكشف عن معنى الفصاحة والبلاغة
وانحصار علم البلاغة فى علمى (٢) المعانى والبيان

للناس فى تفســير الفصاحة والبلاغة أقوال مختلفة ، لم أجـد فيما بلغنى منهـا • ما يصلح لتعريفها به ، ولا ما يشير الى الفرق بين كون الموصوف بهما الكلام وكون الموصوف بهما المتكلم[٣] ، فالأولى أن نقتصر على تلخيص القول فيهما بالاعتبارين ، فنقول :

---

(١) الايضاح مقسم الى : مقدمة وثلاثة فنون وخاتمـة . فالمقـدمة ليست من قبيل مقاصـد علم البلاغـة وتوابعهـا ، بل هى تمهيد لذلك . والفنون الثلاثة هى من مقاصد البلاغة الا أن موضوع كل فن منها يختلف عن موضوع الآخر ، فموضوع الفن الأول ــ وهو علم المعانى ــ الاحتراز عن الخطأ فى تأدية المعنى المراد ، وموضوع الفن الثانى ــ علم البيان ــ الاحتراز عن التعقيد المعنوى . وموضوع الفن الثالث ــ البديع ــ ليس الاحتراز عن شىء أصلا . بل مجرد تحســين اللفظ وتزيينه . والخاتمة تشمل السرقات والكلام على حسن الابتداء والتخلص وحسن الخاتمة ؛ فهى من الفن الثالث أو متصلة به بصلة كبيرة .

والمقدمة هنا لبيان معنى شيئين : الأول معنى الفصاحة والبلاغة ، والثانى انحصار علم البلاغة فى علمى المعانى والبيان . وكل ذلك مما يرتبط بالمقصود من الكتاب .. فالمقدمة هنا هى مقدمة كتاب .

وذكر معنى الفصاحة والبلاغة قبل الشروع فى مسائل المعانى والبيان والبـديع ضرورى ، لتوقف معرفة معانيهـا على معرفة معنى البـلاغة والفصـاحة .

(٢) فى الأصل « فى علم » .

(٣) فى هذا الكلام شىء من المجازفة : فقد سبق أبو هلال ببيان الفرق بين الفصاحة والبلاغة فى الصناعتين ، فذكر أن البلاغة هى كل ما تبلغ به المعنى قلب السامع فتمكنه فى نفسه لتمكنه فى نفسك مع صورة مقبولة

=

= ومعرض حسن ، ثم قال : وأما الفصاحة فقد اختلفوا فيهـا ، فقال قوم : انها مأخوذة من قولهم : أفصح فلان عما فى نفسه اذا أظهره وعلى هذا ترجع الفصاحة والبلاغة الى معنى واحد وان اختلف أصلهما فى اللغة ، وقال بعضهم : الفصاحة تمام آلة البيـان ، وعلى هذا تكون الفصـاحة والبلاغة مختلفين ، وذلك أن الفصـاحة تمام آلة البيـان فهى مقصـورة على اللفظ والبـلاغة انمـا هى انهـاء المعنى الى القلب فكأنها مقصـورة على المعنى الخ (٣٩ وما بعدها صناعتين) .

وذكر ابن سنان الخفاجى فى سر الفصاحة أن الفصاحة مقصـورة على وصف الألفاظ والبلاغة لا تكون الا وصـفا للألفاظ مع المعانى ، فـلا يقال فى كلمة واحدة انها بليغة وان قيل انها فصيحة اذا فضلت عن مثلها ، وكل كلام بليغ فصيح وليس كل فصـيح بليغا كالذى يقع فيه الاسـهاب فى غير موضعه ، ثم قال : والفصاحة على ذلك شطر البلاغة واحد جزءيها ، ولهـا شروط اذا تكاملت فى الألفـاظ فـلا مزيد على فصاحتها ، وتلك الشروط : منها ما يتعلق باللفظة الواحدة ، ومنها ما يوجـد فى الألفاظ المنظومة بعضها مع بعض .. وهذا كله هو خلاصة رأى القزوينى اقتبسـه من ابن سنان (راجع ص ٥٥ وما بعدها من سر الفصاحة طبعة الرحمانية) وذكر ابن رشيق فى العمدة : أن البلاغة والفصاحة راجعـان الى اللفظ والمعنى جميعا الخ (ص ٨٠ طبعة هندية) .

وذكر عبد القاهر : أن البلاغة والفصاحة وما يجـرى مجراها مما يفرد فيه اللفظ بالنعت والصفة وينسب فيه الفضل والمزية اليه دون المعنى معناها حسن الدلالة وتمامها فيما له كانت دلالة ثم تبرجها فى صورة هى أبهى ، ولا جهة لذلك غير أن يؤتى المعنى من الجهة التى هى أصح لتأديته ويختار له اللفظ الذى هو أخص به وأكشف عنه وأحرى بأن يظهر مزية (ص ٣٥ من دلائل الاعجـاز) ، وقال فى أسرار البـلاغة : أما رجـوع الاستحسـان (أى الوصف بالبلاغة والفصاحة) الى اللفظ من غير شرك من المعنى فيه فلا يعدو نمطا واحدا ، هو أن تكون اللفظة مما يتعارفه الناس فى اسـتعمالهم ويتداولونه فى زمانهم ، ولا يكون وحشـيا غريبـا أو عاميا سخيفا (ص ٣ أسرار البـلاغة) ، فالبلاغة والفصـاحة عنـده مترادفان ، وان اختلف فهم كلامه فيهما وفى هل يرجعان عنده الى اللفظ أو الى المعنى . ويرى عبد القاهر أن الفصاحة تقال لكون اللفظ جـاريا على القوانين المستنبطة من استقراء كلامهم كثير الاستعمال على السنة =

كل واحدة منهما[1] تقع صفة لمعنيين : أحدهما الكلام كما في قولك قصيدة فصيحة أو بليغة : ورسالة فصيحة أو بليغة ، والثاني المتكلم كما في قولك شاعر فصيح أو بليغ . وكاتب فصيح أو بليغ . والفصاحة خاصة تقع صفة للمفرد فيقال : كلمة فصيحة ، ولا يقال كلمة[2]

= العرب الموثوق بعربيتهم / ص ٣٥٢ دلائل الاعجاز) وهو كلام السكاكي أيضا (ص ١٧٦ من المفتاح) .

ويرى السكاكي أن البلاغة بلوغ المتكلم في تأدية المعاني حدا له اختصاص بتوفية خواص التراكيب حقها وايراد أنواع التشبيه والمجاز والكناية على وجهها ؛ وأما الفصاحة فهي عنده قسمان : قسم يرجع الى المعنى وهو خلوص الكلام من التعقيد المعنوي . وقسم يرجع الى اللفظ وهو أن تكون الكلمة عربية أصلية جارية على ألسنة الفصحاء من العرب الموثوق بعربيتهم . لا مما أحدثه المولدون . ولا مما أخطأت فيه العامة (وأن تكون) سليمة من التنافر (راجع ص ١٧٦ من المفتاح) .

ويرى ابن الأثير أنه يحتاج في تأليف الكلمات الى ثلاثة أشياء : اختيار الألفاظ المفردة . ونظم كل كلمة مع أختها بحيث لا يكون هناك قلق ولا منافرة ، والغرض المقصود من ذلك الكلام على اختلاف أنواعه ... والأول والثاني عنده هما المراد بالفصاحة ، والثلاثة بجملتها هي المراد بالبلاغة . وتكلم في كتابه المثل السائر على الصناعة اللفظية (وهي عنده قسمان : قسم اللفظة المفردة ، وقسم الألفاظ المركبة) ؛ وعلى الصناعة المعنوية .

(١) أي من البلاغة والفصاحة .

(٢) هذا هو الفرق بين الفصاحة والبلاغة عند الخطيب ، فالفصاحة عنده صفة للمفرد والكلام والمتكلم ، والبلاغة صفة للكلام والمتكلم فقط ؛ ولا شك أن من يرى أن البلاغة والفصاحة مترادفان يجيز أن يقال كلمة بليغة كما يقال كلمة فصيحة ، وان كان عبد القاهر — الذي يرى أن الفصاحة والبلاغة مترادفان — يجعلها وصفا للكلام لا للفظ المفرد فلا تقول عنده كلمة فصيحة ولا كلمة بليغة .

هذا والمراد بالكلام ما يقابل الكلمة فيشمل المركب الاسنادي والمركب الناقص جميعا ، فانه قد يكون بيت من القصيدة غير مشتمل على اسناد يصح السكوت عليه مع أنه متصف بالفصاحة مثل :

=

بليغـــة(١) .

* * *

اذا ما الفانيـــات بـــرزن يـوما وزججـن الحـــواجب والعيـونا

فيكون المراد بالكلام تاما أو ناقصا . وورد على هذا الرأى اعتراضات منها : أن المركب الناقص انمـا يصـح ادخاله فى مدلول الكلام لو كانوا يطلقون على مثل هذا المركب أنه كلام فصيح ولم ينقل عنهم ذلك بل المنقول وصفهم له بأنه فصيح دون كونه كلاما ، على أنه يجوز أن يكون وصـفه بالفصاحة باعتبار فصاحة مفرداته .

وقيـل أن المركب الناقص خـارج عن المفـرد وعن المركب التـام فلا يتصف بالفصاحة والبلاغـة بالنظـر لذاته بل قد يوصف بها بالنظـر لمفـرداته .

والصحيح أن المراد بالكلام ما يقابل المفرد ، حقيقة (وهو اللفظة الواحـدة المفردة) أو حكما (وهو المركب الناقص) ، فالمركب الناقص على هذا داخل فى المفرد ، لأن المفرد يطلق على ما يقـابل المركب ، وعلى ما يقابل المثنى والمجموع وعلى ما يقابل الكلام ، ومقابلة المفرد ههنا بالكلام قرينة دالة على أنه أريد بـه ما ليس بكلام تام الافادة ، فيكون المركب الناقص داخـلا فيه ــ أى فى المفـرد .

(١) اذا لم يسمع ذلك عن العرب ، وهـذا هو التعليل الصحيح . وبعضهم يعلل لهذا بأن البلاغة انما هى باعتبار المطابقة لمقتضى الحـال وهى لا تتحقق فى المفرد ، وورد على هذا التعليل بأن عدم تحقق المطابقة لمقتضى الحـال فى المفرد آنما هو فى بلاغـة الكلام والمتكلم ، فلم لا يجـوز أن تكون هناك بلاغة أخرى غير المطابقة يصح وجودها فى الكلمة ؟

الفصـــــاحة (١)

أما فصاحة المفرد[٢] فهي خلوصه[٣] من تنافر الحـروف والغرابة ومخالفة القياس اللغـوى :

---

(١) هى فى اللغة تنبىء التزاما عن الظهور والابانة (راجع ص ٣٥٣ من الدلائل (يقال : فصح الأعجمى وافصح : اذا انطلق لسانه وخلصت لغته من اللكنة وجادت فلم يلحن ، وأفصح به أى صرح ، وفصـح اللبن اذا أخذت رغوته وذهب لباؤه ، قال أبو محجن الثقفى أو نضلة السلمى :

رواه ، فازدروه ، وهـو خـرق ويـنفـع أهله الرجـل القبيـح

فلم يخشـوا مصـالته عليهـم وتحت الرغـوة اللبن الفصـيح

(٢) بدأ بذكر أقسام الفصاحة وتعريف كل قسم منهـا على حـدة دون أن يعرفها فى نفسها على الاطلاق لتعـذر جمع المعانى المختلفـة غـير المشتركة فى أمر يعمها فى تعريف واحـد .. وقدم الكلام على الفصـاحة قبل البلاغة ، لأن معرفة البلاغة سـواء كانت بلاغة كلام أم متكلم موقوفة على معرفة الفصاحة فى الجملة (اذ لا دخل لفصاحة المتكلم فى بلاغة الكلام أو المتكلم) ، لكون الفصاحة مأخوذة فى تعريف البلاغة ، ولهذا أيضا قدم فصـاحة المفرد على فصـاحة الكلام والمتكلم ، أما توقف فصـاحة الكلام على فصاحة المفرد فظاهر ، وأما توقف فصـاحة المتكلم عليه فبواسـطة أخذ فصاحة الكلام المتوقف عليها فى فصاحة المفرد .. هذا وعيب المفرد اما فى مادته أى حروفه وهو التنافر أو فى صـورته وهو المخالفة للقياس اللغوى المستنبط من استقراء اللغة (فالقياس اللغوى هو الضابط المتقرر من استعمالات العرب وهو القياس الصرفى) ؛ واما من دلالته على معناه وهـو الغـرابة .

(٣) تفسير الفصاحة بالخلوص من هذه العيوب لا يخلو عن تسامح ، لأن الفصاحة تحصـل عند الخلوص ، لأنها هى كون الكلمة جـارية على القوانين الصرفية متناسـبة الحروف كثيرة الاستعمال ، ويلزم من ذلك الخلوص ، وبتفصـيل أدق أقول : الفصـاحة هى كون اللفظ جاريا على القوانين المستنبطة من استقراء كلام العرب كثير الاستعمال على ألسـنة العرب الموثوق بعربيتهم .

● **فالتنـــافر (١) :**

منه ما تكون الكلمة بسببه متناهية فى الثقل على اللســان وعسر النطق بها ، كما روى أن أعرابيــا ســئل عن ناقته فقال : تركتها ترعى الهعخــع(٢) .

---

(١) هــو وصف فى الكلمة يوجب ثقلها على اللســان وعسر النطق بها ، والحكم فى التنافر هو الذوق ؛ وهو قــوة يدرك بهــا لطائف الكلام ووجوه تحسينه ، فكل ما يعده الذوق الصحيح ثقيلا متعسر النطق به فهو متنافر سواء كان من قرب المخارج أو بعدها أو غــير ذلك ؛ وقد صرح بذلك ابن الأثير فى « المثل الســائر » . وقال الزوزنى : أن قرب المخارج سبب للثقل المخل بالفصــاحة ، وان فى قوله تعالى « ألــم أعهــد إليكم يا بنى آدم » ثقلا قريبا من التناهى فيخل بفصاحة الكلمة ، ولكن الكلام الطويل المشتمل على كلمة غير فصيحة لا يخرج عن الفصاحة ، كما لا يخرج الكلام الطويل المشــتمل على كلمة غير عربية عن أن يكون عربيا . ورد رأى الزوزنى بمــا يأتى :

١ ــ أن فصاحة الكلمات مأخــوذة فى تعريف فصاحة الكلام من غير تفرقة بين طويل وقصير .

٢ ــ وأن الزوزنى يرى أن الكلام ما لبس بكلمة ، وحينئذ فالقول بوجود كلمة غير فصيحة فى كلام فصيح أكثر فسادا من ذلك القول على تفسير غيره ، فالفســاد لازم لكلام الزوزنى فى المركب التــام وفى المركب الناقص اذا اشتمل كل منهما على كلمة غير فصيحة ، أما على قول غــير الزوزنى وهو الشارح (السعد) فالفساد فى المركب التام فقط لأنه يجعل المركب الناقص داخــلا فى الكلمة .

٣ ــ على ان القيــاس على الكلام العربى ظاهــر الفســـاد ، لأن القرآن عربى باعتبــار كله أو جله ، وأيضــا فلم يشــترط فى عربية الكلام عربيــة الكلمــات .

٤ ــ ولو سلم عدم خــروج السورة عن الفصــاحة مع اشــتمالها على كلمة غير فصيحة ، فان مجرد اشتمال القرآن على كلام غــير فصيح بل على كلمة فصيحة مما يقود الى نسبة الجهل أو العجز لله .

(٢) هى اسم شجرة من شجر الصحراء ، وتنطق الكلمة بصــور كثيرة ، وقيل انهــا كلمة معاياة لا أصل لها فى اللغــة .

ومنه ما هو دون ذلك كلفظ مستشزر في قول امـرىء القيس:

غدائره مستشزرات الى العـــلا   تضل العقاص فى مثنى ومرسل[1]

● **والغــرابة :**

أن تكون الكلمة وحشـية لا يظهر معناها ، فيحتاج فى معرفتـه

---

(1) من معلقة امرىء القيس امام الشـعراء الجاهلين التى مطلعها :

قفـا نبـك من ذكرى حبيب ومنزل   بسـقط اللوى بين الدخول فحومل

وقبل هذا البيت :

وفـرع يزين المتـن اسـود فاحم   أثيـث كقنـو النخـلة المتعشـكل

الفرع : الشعر التام . المتن : ظهر المراة . اثيث : كثير . قنو النخلة : عنقودها . المتعثكل : المتراكم . الغدائر : الذوائب ، جمع غديرة . والضمير فيها عائد الى الفرع فى البيت الاول . مستشزرات أى مرتفعات ان كان بكسر الزاى على لفظ اسـم الفاعل ، او مرفـوعات ان روى بالفتح على لفظ اسم المفعول ، استشزره أى رفعه متعديا ، واستشزر أى ارتفـع لازما . تضل : تغيب وتختفى . العقاص : جمع عقيصة وهى الخصـلة المجموعة من الشعر . المثنى : المفتول . المرسل : خلاف المثنى .

والمعنى : أن ذوائبه مشدودة على الرأس وأن شـعره مقسـم الى عقاص ومثنى ومرسل والاول يغيب فى الأخيرين . والمراد وصف الشـعر بالكثافة والكثرة والطول .. والشـاهد هنا قوله مستشزرات فهو لفظ متنافر ثقيل على اللسـان ، ولكنه أقل ثقـلا من « الهعخع » .. وقال الخلخالى : ان سبب الثقل فى مستشزرات راجع الى توسط الشين التى هى من الحروف المهموسة (وهى عشرة يجمعها قولهم : سكت فحثـه شخص . وما عداها فحروف مجهورة) الرخوة (وهى ما عـدا الحروف الشـديدة التى يجمعهـا قولهم : أجـد قط بكـت ، وماعدا الحـروف المتوسطة التى يجمعها قولهم : لن عمر) ، بين التاء التى هى من المهموسة الشـديدة وبين الزاى التى من المجهورة الرخوة ، ولو قال : مستشرف لزال الثقل . ورد راى الخلخانى بأن الراء المهمـلة ايضـا هى من الحـروف المجهورة ... ومن الالفاظ المتنافرة : اطلخم بمعنى اشـتد ، ومثعنجر : للسائل من المـاء أو الدمع .

الى أن ينقر[١] عنها فى كتب اللغــة المبســوطة ، كما روى عن عيسى ابن عمر[٢] النحوى أنه سقط عن حماره ، فاجتمع عليه الناس ، فقال : ما لكم تكأكأتم على تكأكؤكم على ذى جنة افرنقعوا عنى ، أى اجتمعتم تنحـــوا .

أو يخرج لها وجه بعيد[٣] كما فى قول العجاج[٤] :

ومقــلة وحاجبــا مزججا وفاحما ومرســـنا مسرجا

---

(١) ينقر : أى ينقش . والكلمة الوحشــية هى التى لا تكون مأنوسة الاستعمال عند العرب الخلص من سكان البادية ، لا بالنسبة للمولدين .

(٢) عالم جليل من ثقيف ومن ائمة النحــو واللغــة ومن المتقعرين فى كلامهم توفى عام ١٥٠ هـ ، وتروى هذه القصــة عن أبى علقمــة النحــوى حين هاجت به مرة ببعض طرق البصرة فوثب غليه قوم يعضون ابهــامه ويؤذنون فى أذنه ، وكان أبو علقمة نحويا مغربا فى ألفاظه .
وقوله : ذى جنــة ، أى صاحب جنون .

(٣) سبب هذا التخــريج هــو عدم ظهــور معنى الكلمة ، وسبب التفتيش والتنقير عن الكلمة فى المعاجم هو وحشيتها .

وما يحتاج الى تخريج يعده بعض البلاغين من التعقيد ، والبعض يجعله خطأ ، وكلا الوجهين غير صحيح ، لأن الوارد من هذا الباب انمــا ورد من عربى موثوق بعربيته فلا يعد خطأ . كما أن هنا فرقا بين هذا الباب وبــين التعقيد ، لأن التعقيــد فيــه خطــأ ناشىء عن ظهـــور الــدلالة على المراد ، وهنا لا خطأ ولا خفــاء فى الدلالة فلا تعقيد .

(٤) شـــاعر راجز مشهور أدرك الدولة الأموية . والبيت من أرجوزة العجاج « ما هاج أحزانا وشجوا قد شجا » . وفى أسرار البلاغة ص ٤٨ ذكره عبد القاهر مع الاســـتعارات القبيحة (فى قوله : ومرســـنا) ... المقلة : العين . مزججا : مدققا مطولا . فاحما : أى شعرا أسود كالفحم . المرسن : الأنف ... والشـــاهد فى البيت فى قوله مسرجا فانه غير ظاهر المعنى ، اذ أن العلماء قد اختلفوا فى معناه . والحاصل أن مسرجا اســـم مفعول مشتق فلابد له من أصل يرجع اليه فقيل هو :
=

فانه لم يعرف ما أراد بقوله « مسرجا » ، حتى اختلف فى تخريجه: فقيل هو من قولهم للسيوف : سريجية ، أى منسوبة الى قين[1] يقال له « سريج » ؛ يريد أنه فى الاستواء والدقة كالسيف السريجى ، وقيل : من السراج ، يريد أنه فى البريق كالسراج[2] . وهذا يقرب من قولهم : سرج وجهه أى حسن ، وسرج الله وجهه أى بهجه وحسنه[3] .

=

= ١ ـ فعل (بالتشديد) للنسبة مثل كرمته اى نسبته الكرم . ولما لم يوجد التسريج الذى حق النسبة أن تكون اليه جعلنا مسرجا منسوبا للسراج أو للسريجى نسبة تشبيهية أى هو منسوب لهما من حيث أنه شبيه بهما . ووجه بعد هذا التخريج أن مجرد النسبة لا يدل على التشبيه .

٢ ـ وقيل انه من فعل بشديد العين بمعنى صيرورة فاعله كأصله مثل قوس الرجل أى صار كالقوس ، فمسرج اى صائر كالسراج أو كالسريجى ... وهذا مردود بأن سرج على هذا لازم فلا يصاغ منه اسم مفعول .

٣ ـ وقيل انه من فعل بمعنى صيرورة فاعله أصله أو صيرورته ذا أصله مثل عجزت المرأة أى صارت عجوزا وورق الشجر صار ذا ورق ، فمسرج أى صار سراجا أو سريجا اى مثل احدهما أو صار ذا سراج وهذا مردود بما يرد به الوجه السابق .

٤ ـ وقيل هو اسم مفعول من سرج الله وجهه أى نوره وبهجه ، فمعنى مسرج : منور ، فليس فيه نسبة تشبيهية ، وهذا وان لم يكن غريبا من حيث عدم احتياجه لتخريج بعيد ، لكنه بعيد من حيث انه يحتاج الى تفتيش عليه فى كتب اللغة المبسوطة .

(١) القين : الحداد .

(٢) هذان التخريجان هما حاصل الوجه الأول الذى سبق ذكره والذى سبق بيان ما عليه من رد .

(٣) اى أن الوجه المذكور قريب من هذا الوجه الثانى فى أن كلا منهما غريب والكلمة عليهما غير ظاهرة المعنى ، وهذا التخريج الثانى هو الوجه الرابع الذى سبق ذكره ، ورد بأنه يحتاج الى تفتيش على معناه فهو غريب . وقال الامام المرزوقى : ان مسرجا لفظ مستحدث من السراج أى

=

● **ومخالفة القياس (١) :**

كما في قول الشاعر[٢] :

الحمد لله العلى الأجلل (أنت مليك الناس ربا فاقبل)

فان القياس الأجل بالادغام .

وقيل هي :[٣] خلوصه مما ذكر[٤] ، ومن الكراهة في السمع[٥]

=

أنه لفظ أحدثه المولدون وأخذوه من السراج واستعملوه بمعنى حسن ولم يكن ذلك اللفظ واقعا في لغة العرب أصلا ، ويرد عليه أن العجاج قبل عصر التوليد والاستحداث .

ووجه القرب بين الوجهين المذكورين أن مسرجا عليهما مشتق من سرج ، لكن على الوجه الأول مشتق منه للنسبة التشبيهية ، وعلى الوجه الثاني مشتق منه اشتقاقا لغويا لا على افادة النسبة التشبيهية .

(١) هو أن تكون الكلمة على خلاف قانون مفردات الألفاظ الموضوعة ، اعنى على خلاف ما ثبت عن الواضع ، فالموافقة للقياس أن تكون الكلمة على وفق ما ثبت عن الواضع سواء وافقت القانون التصريفي أم خالفته ولكن ثبتت عن الواضع كذلك ، والمخالفة أن تكون الكلمة على خلاف ما ثبت عن الواضع سواء خالفت القانون الصرفي أيضا أم لا ؛ فنحو آل وماء وأبى يأبى وعور يعور فصيح . لأنه ثبت عن الواضع كذلك .

(٢) هو أبو النجم الراجز المشهور . وهذا الشاهد في الكتاب لسيبويه صحيفة ٣٠٢ من الجزء الثاني وروايته فيه هكذا : الحمد لله الوهوب المجزل .

ومثل البيت قول الشاعر :

مهلا أعاذل قد جربت من خلقى أنى أجود لأقوام وان ضننوا

(٣) أي فصاحة المفرد .

(٤) أي من التنافر والغرابة ومخالفة القياس .

(٥) وهذا القول لابن الأثير في « المثل السائر » . قال : الألفاظ داخلة في حيز الأصوات ، فما استلذه السمع منها فهو الحسن ، وما

=

بأن تمج الكلمة ويتبرأ من سماعها كما يتبرأ من سماع الأصوات المنكرة، فان اللفظ من قبيل الأصوات ، والأصوات منها ما تستلذ النفس سماعه ومنها ما تكره سماعه ، كلفظ الجرشى فى قول أبى الطيب :

(مبارك الاســـم أغــر اللقب) كريم الجرشى شريف النسب [1]

أى كريم النفس ، وفيه[2] نظر .

ثم علامة كون الكلمة فصيحة ، أن يكون استعمال العرب الموثوق بعربيتهم لهـا كثيرا ، أو أكثر من استعمالهم ما بمعناها[3] .

=

استكرهه فهو القبيح (راجع ص ٥٨ المثل السائر) . وهو رأى أشار اليـه ابن سنان الخفاجى فى سر الفصاحة ص ٦١ .

(١) من قصيدة يمدح بهـا المتنبى سيف الدولة .. الأغر من الخيل : الأبيض الجبهـة ، ثم استعير لكل واضـح . الجرشى : النفس . والمعنى ان اسم سـيف الدولة على وهـو اسم جميل ميمون ولقبـه لقب واضح مشهور . وهو كريم النفس عظيم الحسب . شريف النسب ... والشاهد الجرشى فانها لفظ غير فصيح ، لكراهته فى السمع كما يقول هذا القائل ، أو لغرابته على رأى من عـداه من البلاغيين والبيت فى ص ٦٢ من سر الفصـاحة .

(٢) أى فى هذا القول وهو أن تكون كراهة الكلمة فى السمع سـببا لعدم فصاحتها ... ووجه النظر كما قالوا هو ما يأتى :

١ ــ ان الكراهـة فى السـمع انمـا هى من جهـة الغرابة المفسرة بالوحشية مثل تكأكأتم ، وافرنقعوا ، ونحو ذلك .

٢ ــ وأن الكراهة فى السمع وعدمها يرجعان الى عـدم طيب النغـم أو الى طيبه لا الى نفس اللفظ . ويمكن رد هـذا الوجـه الثانى بالقطـع باستكراه الجرشى دون « النفس » مع قطع النظر عن النغم .

(٣) هذا منقول عن السكاكى (ص ١٧٦ من المفتاح) . وخلاصته : أن فصاحة الكلمة تعرف بأحـد أمرين :

١ ــ أن تكون هذه الكلمة كثـيرة الاستعمال عنـد العرب الموثوق بعربيتهم : اذا لم يكن لها مرادف .

=

● **وأما فصاحة الكلام :**

فهي خلوصه من ضعف التأليف وتنافر الكلمات والتعقيد ، مع فصاحتها .

● **فالضعف (١) :**

كما في قولنا ضرب غلامه زيدا ، فان رجوع الضمير الى المفعول المتأخر لفظا ممتنع عند الجمهور ، لئلا يلزم رجوعه الى ما هو متأخر لفظا ورتبة .

=

٢ ـ أو أن تكون هذه الكلمة أكثر استعمالا عندهم من الكلمات الأخرى المرادفة لها المشتركة معها في المعنى وهذا فيما اذا كان للكلمة مرادف .

فعلامة فصاحة الكلمة التي ليس لها مرادف كثرة استعمالها ، والتي لها مرادف أن تكون استعمالا من مرادفها .

(١) هو أن يكون تأليف الكلام على خلاف القانون النحوي المشهور بين الجمهور كالاضمار قبل الذكر لفظا ومعنى وحكما ، نحو ضرب غلامه زيدا ، فلو تقدم المرجع على الضمير لفظا (بأن يتقدم عليه لفظا ورتبة مثل ضرب زيد غلامه أو لفظا فقط مثل ضرب زيدا غلامه) ، أو تقدم معنى بأن يتقدم المرجع على الضمير لفظا لكن هناك ما يدل على تقدمه معنى ، كالفعل المتقدم الدال على المرجع ضمنا نحو اعدلوا هو أقرب للتقوى ، وكسياق الكلام المستلزم له استلزاما قريبا نحو ولأبويه أي المورث أو بعيدا نحو توارت بالحجاب أي الشمس ، وكون المرجع فاعلا المقتضى لتقدمه على المفعول نحو خاف ربه عمر ، أو مبتدأ المقتضى لتقدمه على الخبر مثل في داره زيد ، أو مفعولا أول في باب أعطى مثل أعط درهمه زيدا ، أو تقدم حكما بأن يتأخر المرجع عن الضمير لفظا وليس هناك ما يقتضى ذكره قبله الا حكم الواضع بأن المرجع يجب تقدمه ، لكن خولف حكم الواضع لأغراض تأتي في بحث وضع المضمر موضع المظهر . فالمرجع المتأخر لغرض متقدم حكما مثل : ربه رجلا ، ونعم رجلا زيد ، وقل هو الله أحد . وفي باب التنازع مثل ضربني وضربته محمد وباب البدل والمبتدأ المفسر بالخبر . نعم لو تقدم المرجع في كل ذلك جاز ولا يكون هناك ضعف ولا يضر ذلك بفصاحة الكلام .. وقد أشار السكاكي الى ضعف التأليف في المفتاح ص ٩٤ .

وقيل يجوز[1] ، كقــول الشاعر[2] :

جــزى ربــه عنــه عــدى بن حــاتم
جزاء الكلاب العاويات ، وقد فعــل[3]

وأجيب عنه بأن الضمير لمصدر جزى ، أى (جزى) رب الجزاء[4]
كما فى قوله تعالى : اعدلوا هو أقرب للتقوى ، أى العدل .

---

(١) أى يجوز رجــوع الضمير الى المفعول المتاخر لفظا .

(٢) هو النابغة الذبيانى الشــاعر الجــاهلى المشــهور ، كمــا فى الخصائص لابن جنى .

(٣) يدعو الشاعر على عدى بأن يجزيه شرا كجزاء الكلاب العاويات التى تضرب وترمى بالحجارة ، ثم يقول الشاعر . بل قد حصل هذا الجزاء فعلا وأصبح حقيقة لا دعــاء . والشاهد فى البيت قوله : « جزى ربه عنى عدى بن حاتم » ، فقد رجع الضمير الى المفعول المتأخر فى اللفظ كما هو متأخــر فى الرتبــة .

ومثل هذا البيت قول سليط بن سعد :

جــزى بنــوه أبا الغيــلان عن كبر   وحســن فعــل كما يجزى ســنمار

ومثله :

الا ليت شــعرى هــل يلومن قومه   زهيرا على ما جــرى من كل جانب

وفى معنى البيت قول النابغة :

جــزى الله عبســا عبس آل بغيض   جزاء الكلاب العاويات وقــد فعــل

ومن ضعف التأليف :

فلو ان مجدا أخلد الدهــر واحــدا   من الناس أبقى مجده الدهر (مطعما)

(٤) فى هذا تكلف وحمل للاسلوب على مالا يفيده وان كان أخف من حمل البيت على ضعف التأليف .

● **والتنـــافر (١) :**

منه ما تكون الكلمات بسببه متناهية في الثقل على لســان وعسر النطق بها متتابعة ، كما في البيت الذى أنشده الجاحظ(٢) :

وقبر حـرب بمكان قفـر وليس قـرب قبر حـرب قبر(٣)

ومنه ما هو دون ذلك كما في قول أبى تمام :

كـريم متى أمدحـه أمدحه والورى معى

(واذا ما لمتـه لمتـه وحـدى(٤))

---

(١) هو أن تكون الكلمات ثقيلة على اللسان وان كان كل منها فصيحة.

(٢) البيت في دلائل الاعجاز ص ٤٦ مع تعليق لعبد القاهر عليه .. وهو لا يعرف قائله .

(٣) حرب : اسم رجل . القفر : الخالى من المـاء والكلأ .. ويقول القزوينى الرحالة في « عجائب المخلوقات : ان هاتفا من الجن صاح بحرب ابن أمية فمات فرثاه ذلك الجنى بهذا البيت .. قوله « قفر » بالرفـع نعت مقطوع . والبيت خبر مراد منه التأسف والتحزن .

(٤) الواو في « والورى » للحال ، وهو مبتدأ ، وخبره « معى » .. يقول أبو تمام في ممدوحه : هو كريم في خلقه ومعروفه ، اذا ما مدحته كان الورى كلهم معى يمدحون ويشيدون أو يسمعون ويؤيدون ، واذا ما أردت لومـه على تأخـير معروف أو على شـبه ذلك وقفت وحـدى لا يشاركنى في ذلك أحـد ولا يؤيدنى فيه انسان .. والبيت في ص ٤٦ من دلائل الاعجاز ، وذكر الصاحب اسماعيل بن عباد الكاتب أنه أنشـد القصيدة التى منها هذا البيت بحضرة الاستاذ ابن العميد الوزير ، فلما بلغ هذا البيت قال له الاستاذ : هل تعرف فيه شيئا من الهجنة ؟ قال : نعم مقابلة المدح باللوم وانما يقابل بالذم أو الهجاء ، فقال الاسـتاذ : هذا التكرير في أمدحه أمدحه مع الجمـع بين الحـاء والهاء وهمـا من حـروف الحلق خـارج عن حـد الاعتدال نافر كل النفـار ، فأشـاد الصاحب بذوقـه ونقـده .

فإن في قوله « أمدحه (أمدحه) » ثقلا لما بين الحاء والهاء من التنافر[1] .

● **والتعقيد (٢) :**

أن لا يكون الكلام ظاهر الدلالة على المراد به وله[3] سببان : أحدهما ما يرجع الى اللفظ وهو أن يختل نظم[4] الكلام . ولا يدرى

---

(١) وهناك فرق آخر بين البيت والبيت الذى قبله ، وهو أن منشأ الثقل في الأول نفس اجتماع الكلمات وفي البيت الثانى اجتماع حروف منها . ومجموع الحروف التى في الكلمتين والتى حصل الثقل باجتماعها أربعة وهى : الحاءان والهاءان ، فما ذكر من مجموع الحروف التى حصل الثقل باجتماعها حاصل مع تكرير أمدحه ، ولو قال وفي الثانى تكرير حروف منها لكان أوضح وأحضر . أما نقل مجرد الجمع بين الحاء والهاء فلا يخل بالفصاحة لوقوعه في التنزيل كما في قوله « فسبحه » .

(٢) أى كون الكلام معقدا فهو مصدر المبنى للمفعول لا للفاعل ، والمراد بأنه مصدر المبنى الحاصل بالمصدر أى الهيئة المترتبة عليه . وتجد الكلام في التعقيد في (أسرار البلاغة ص ١١٨ ، وفي دلائل الاعجاز ص ٦٥ ، وفي المفتاح ص ١٧٦) .

(٣) أى عدم ظهور المعنى المراد منه للمتكلم ، أما الغرابة فهى كون اللفظ غير ظاهر الدلالة على المعنى الموضوع له ، وأما اللغز والمعنى : فقيل هما غير فصيحين مطلقا ولا يعدان من البديع لعدم ظهور الدلالة ، وقيل ان الدلالة فيهما أن كانت ظاهرة للفطن فهما فصيحان ويعدان من البديع والا فلا . واللغز والمعنى بمعنى وهو قول يدل ظاهره على خلاف المراد .

(٤) النظم هو تأليف الكلمات مترتبة المعانى متناسقة الدلالات على حسب ما يقتضيه العقل لا تواليها في النطاق وضم بعضها الى بعض كيفما اتفق ، بخلاف نظم الحروف فانه تواليها في النطق من غير اعتبار معنى يقتضيه (راجع دلائل الاعجاز ص ٤٠ و ٤٥) .

السامع كيف يتوصل الى معناه[1] ، كقول الفرزدق[2] :

وما مثله في النـــاس الا مملكا   أبو أمـــه حي أبـــوه يقـــاربه

الا مملك أبو أمه أبوه ، فانه مدح ابراهيم بن هشام بن اسماعيل المخزومي[3] خال هشام بن عبد الملك بن مروان ، فقال وما مثله ــ يعني ابراهيم الممدوح ــ في الناس ، حي يقـــاربه ــ أي أحـــد يشـــبهه في الفضائل ــ الا مملكا يعني هشاما ، أبو أمه ــ أي أبو أم هشام ــ أبوه ــ أي أبو الممدوح ــ فالضمير في أمه للمملك ، وفي أبوه للممدوح ، ففصـــل بين أبو أمه ــ وهو مبتدأ ــ وأبوه ــ وهو خبره ــ بحي ــ وهو أجنبي ــ ، وكذا فصل بين حي ويقاربه وهو نعت حي ــ بأبوه ــ وهو أجنبي ، وقدم المستثنى على المستثنى منه[4] . فهو كما تراه في غـــاية التعقيد .

---

(١) بأن لا يكون ترتيب الألفاظ على وفق ترتيب المعاني ، بسبب تقديم أو تأخير أو حذف أو اضمار أو غير ذلك ، مما يوجب صعوبة فهم المراد ، وان كان ذلك في الكلام جاريا على قواعد النحو . . فان سبب التعقيد يجوز أن يكون اجتماع أمور كل منها شائع الاستعمال في كلام العرب ، ويجوز أن يكون التعقيد حاصلا ببعض منها لكنه مع اعتبار الجميع يكون أشد وأقوى ، فذكر ضعف التأليف لا يغني عن ذكر التعقيد اللفظي كما توهمه البعض .

(٢) هو الشاعر الأموي المشهور قرين جـــرير والأخطـــل توفي عـــام ١١٠ هـ . والبيت في ١٥ و ٥٦ أسرار البلاغة ، ٧٦ مفتـــاح ، ٦٥ دلائل الاعجاز ، ١٥٤ و ١٩٧ الصناعتين ، قال ابن عبد ربه في العقد : معنـــاه وما مثل هذا الممدوح في الناس الا الخليفة الذي هو خاله ، فقال أبو أمـــه حي أبوه يقاربه ، فبعد المعنى القريب ووعر الطريق السهل ، وليس المعنى بتوعر اللفظ وقبح البنية حتى ما يكاد ينفهم (٤/١٣ العقد) .

(٣) من الأمراء الأشراف السادة الفرسان توفي عام ١٢٥ هـ وهشـــام احـــد الخلفاء الأمويين المشهورين .

(٤) ما نافية ، « مثله » اسمها ، « في الناس » خبرها . مملكا : مستثنى مقدم منصوب على الاستثناء . أبو أمه : مبتدأ ومضاف اليه ، وحي بدل من مثله ، ففيه أيضا فصل بين البدل والمبدل منه ، أبوه خبر

فالكلام الخالى من التعقيد اللفظى ما سلم نظمه من الخلل ، فلم يكن فيه ما يخالف الأصل من تقديم أو تأخير أو اضمار أو غير ذلك ، الا وقد قامت عليه قرينة ظاهرة ، لفظية أو معنوية ، كما سيأتى تفصيل ذلك كله وأمثلته اللائقة به[1] .

والثانى ما يرجع الى المعنى ، وهو ألا يكون انتقال الذهن من المعنى الأول الى المعنى الثانى — الذى هو لازمه والمراد به — ظاهرا[2] كقول العباس بن الأحنف :

المبتدأ ، يقاربه صفة لحى . ويصح أن يكون « مملكا » مستثنى من الضمير المستثنى فى الجار والمجرور الواقع خبر ما ، وأبو أمه مبتدأ خبره ، وأبوه خبر ، والجملة صفة لمملكا ، وكذلك جملة يقاربه وعلى هذا الوجه فلا تعقيد فى البيت ، ولكن فى حمله عليه تكليف شديد .

(١) قال الخلخالى: ذكر ضعف التأليف يغنى عن ذكر التعقيداللفظى. وأجيب بأنه يجوز أن يحصل التعقيد باجتماع عدة أمور موجبة لصعوبة فهم المراد وان كان كل واحد منها جاريا على القانون النحوى مثل الا عمرا الناس ضارب زيد . وينفرد ضعف التأليف فى مثل جاءنى أحمد ، ويجتمع الضعف والتعقيد فى بيت الفرزدق ، فبينما عموم وخصوص من وجه ... هذا ومن التعقيد اللفظى قول أبى تمام :

ثانيه فى كبد السماء ، ولم يكن ... كاثنين ثان اذ هما فى الغار

وقول المتنبى :

انى يكون أبا البرايا آدم ... وأبوك والثقلان أنت محمد

وتركيب البيت الصحيح : أنى يكون آدم أبا البرايا وأبوك محمد وأنت الثقلان ، وكذلك قول الفرزدق :

الى ملك ما أمه من (محارب) ... أبوه ولا كانت (كليب) تصاهره

أى الى ملك أبوه ما أمه من محارب ولا كانت تصاهره كليب .

(٢)أى الى أن لا يكون الكلام ظاهر الدلالة على المراد لخلل واقع فى انتقال الذهن — أى بسبب بطء نفس السامع فى انتقالها — من المعنى الأول الذى هو المعنى الأصلى الحقيقى للكلام الى المعنى الثانى الملابس له وهو المعنى الكنائى أو المجازى . والحاصل أن من شروط فصاحة الكلام أن يسلم من التعقيد المعنوى بأن لا يكون ما فيه من كناية أو مجاز بعيدا عن

سـأطلب بعـد الـدار عنكم لتقـربوا
وتسـكب عيناى الدمـوع لتجمدا[1]

كنى بسكب الدموع عما يوجبه الفراق من الحزن ، وأصاب ، لأن من شـأن البكاء أن يكون كناية عنه ، كقـولهم : أبكانى وأضحكنى أى ساءنى وسرنى ، وكما قال الحماسى[2] :

= الفهم والوضوح : فان من شروط فصاحة الكناية والمجاز قرب فهم المعنى الثانى من أصله الحقيقى ، والا كانا غير فصيحين بحيث يفتقر فى فهمـه الى وسائط مع خفاء القرينة . فالمدار فى صعوبة الفهم على خفاء القرينة كثرت الوسائط أو لا ، وخفاء القرائن أو عدم خفائها بحسب جريان الكلام على أسلوب البلغاء أو عدم جريانه . وسبب الخفاء ايراد اللوازم البعيدة المفتقرة الى الوسائط الكثيرة مع خفاء القرائن الدالة على المقصود بسبب عدم جريان الكلام على أسلوب البلغاء ، فلو كانت القرينة ظاهرة فلا خلل تعددت الوسائط أم لا . هـذا وتجـد الكلام على التعقيد المعنـوى فى دلائل الاعجـاز صحيفة ٢٠٧ .

(١) العباس شاعر عباسى ، غزل مجيـد . والبيت فى ٢٠٨ دلائل الاعجاز ، وتعليق الخطيب على البيت مأخـوذ من عبد القاهر فى دلائـل الاعجـاز . وتسكب فى البيت بالرفع وهو الصحيح ، ونصبه على العطف على « بعـد » أو على « لتقربوا » وهم . ومعنى البيت : انى اليوم أطيب نفسا بالفراق والبعد ، وأوطنها على مقاساة الأحزان والأشواق ، واتجرع غصصها وأتحمل لأجلهـا حزنا يفيض الدمـوع من عينى ، لأتسبب بذلك الى وصل يدوم فان الصبر مفتاح الفرج ولكل بداية نهاية ومع كل عسر يسرا ، كما يشير اليه عبد القاهر فى دلائل الاعجاز ... وعلى هذا فالسين فى « سأطلب » لمجرد التأكيد على ما ذكره صاحب الكشاف فى قـوله تعالى « سنكتب ما قالوا » .

(٢) هو حطان بن المعلى ، شـاعر اسلامى مشـهور . والبيت من السريع ، وهو فى الحماسة ، وتجده أيضا فى دلائل الاعجـاز (ص ٢٠٨) ومثل البيت قول مسلم :

أبكانى الدهـر ممـا كان أضحكنى والدهـر يخـلط احـلاء بامـرار

وقول الخنسـاء :

الا يا صـخر ان أبكيـت عينى لقـد أضـحكتنى زمنـا طـويلا

أبكانى الدهـــر ويا ربمـــا أضحكنى الدهـــر بمـــا يرضى

ثم طرد ذلك فى نقيضه ، فأراد أن يكنى عما يوجبه دوام التلاقى من السرور بالجمود ، لظنه أن الجمود خلو العين من البكاء مطلقا من غير اعتبار شىء آخـــر ، وأخطأ[1] :

لأن الجمود خـــلو العين من البكاء فى حال ارادة البكاء منهـــا ؛ فلا يكون كنـــاية عن المسرة ، وانما يكون كنـــاية عن البخل كما قال الشـــاعر[2] :

ألا ان عينا لم تجد يوم (واسط) عليك بجـــارى دمعهـــا لجمـــود

ولو كان الجمود يصلح أن يراد به عدم البكاء فى حال المسرة لجاز أن يدعى به للرجل ، فيقال : لا زالت عينك جامدة ، كما يقال : لا أبكى الله عينك . وذلك مما لا يشك فى بطلانه .

وعلى ذلك قول أهل اللغة : سنة « جماد » لا مطر فيها ، وناقـــة جماد : لا لبن لها ، فكما لا تجعل السنة والناقة جمادا الا على معنى أن السنة بخيلة بالقطر ، والناقة لا تسخو بالدر ، لا تجعل العين جمودا

---

(١) لعدم فهم ذلك اللازم بسرعة من جمود العين ففيه مخالفة لموارد استعمال البلغاء لأن تعارف البلغاء على خلافه ، فهو مخطىء فى نظر البلغاء وان صح أن يكون لكلامه وجـــه من التأويل بحمل كلامه على ما يصـــححه بأن نقـــول : استعمل جمود العين الذى هـــو يبسها فى حـــال خلوها من الدموع مطلقا مجازا مرسلا من باب استعمال المقيد فى المطلق ، ثم كنى بـــه عن دوام السرور لكونه لازما لذلك عادة ، وهـــذا وان كان معنى صحيحا الا أن فيه بعدا وتعقيدا .

(٢) هو أبو عطاء يرثى ابن هبيرة وقد قتل فى معركة يوم « واسط » والبيت فى ص ٢٠٨ من دلائل الاعجاز وهو من أبيات عزاها المرتضى لمعن ابن زائـــدة .

الا وهناك ما يقتضى ارادة البكاء منها ، وما يجعلها اذا بكت محسنة موصوفة بأنها قد جادت ، واذا لم تبك مسيئة موصوفة بأنها قد ضنت .

فالكلام الخالى عن التعقيد المعنوى ما كان الانتقال من معناه الأول الى معناه الثانى — الذى هو المراد به — ظاهرا ، حتى يخيل الى السامع أنه فهمه من حلق اللفظ ، كما سيأتى من الأمثلة المختارة للاستعارة والكناية

وقيل فصاحة الكلام هى خلوصه مما ذكر [١] ومن كثرة التكرار [٢] وتتابع الاضافات . كما فى قول أبى الطيب (المتنبى) :

(وتسعدنى فى غمرة بعد غمرة)
سبوح لها منها عليها شواهد [٣]

وكما فى قول ابن بابك [٤] :

---

(١) أى من الضعف والتنافر والتعقيد .
(٢) أى للفظ الواحد اسما كان أو فعلا أو حرفا .

(٣) سبوح : أى فرس حسن الجرى لا تتعب راكبها كأنها تجرى فى الماء « لها » صفة لسبوح ، و « منها » حال من شواهد ، و « عليها » متعلق بشواهد ، و « شواهد » فاعل الظرف — أعنى « لها » — ، يعنى أن لها من نفسها علامات دالة على نجابتها وأصالتها . والغمرة : هى الشدة . قيل التكرار الشىء مرة بعد أخرى ولا يخفى انه لا تحصل كثرته بذكره ثالثا بل لا تحصل الكثرة الا بذكره ست مرات فالتكرار ذكر الشىء مرتين وتعدده بالتربيع وكثرته بالتسديس ، واجيب بأن المراد بالكثرة ما يقابل الوحدة ولا يخفى حصولها بذكره ثالثا . والشاهد فى البيت كثرة التكرار فيه .

(٤) من شعراء العصر العباسى . وله ترجمة فى اليتيمة . مدح عضد الدولة والصاحب ، وتوفى عام ٤١٠ هـ .

حمامة جرعا حومة الجندل اسجعى
(فأنت بمرأى من سعاد ومسمع)[1]

وفيه نظر[2] ، لأن ذلك[3] أن أفضى باللفظ الى الثقل على اللسان فقد حصل الاحتراز عنه بما تقدم[4] ، والا فلا يخل بالفصاحة ، وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم : « الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم . يوسف بن يعقوب بن اسحاق بن ابراهيم »[5] .

---

(١) الشاهد فى البيت كثرة الاضافات المتتابعة ، ففيه اضافة حمامة الى جرعى وجرعى الى حومة ، وحومة الى الجندل .

والجرعى : تأنيث الأجرع قصرها للضرورة ، وهى أرض ذات رمل لا تنبت شيئا . والحومة : معظم الشىء . الجندل : أرض ذات حجارة . فى هذا المكان غنى واصدحى فأنت بحيث تراك سعاد المحبوبة وتسمع السجع : هدير الحمام ونحوه . والمعنى أيتها الحمامة التى تعيش او تحلق صوتك ، يقال : فلان بمرأى منى ومسمع ، أى بحيث أراه وأسمع قوله كما فى الصحاح ، ومن الخطأ أن يقال فأنت بموضع ترين منه سعاد وتسمعين كلامها .

ومثل البيت فى تتابع الاضافات قول أبى العتاهية :

سبحان ذى الملكوت أية ليلة مخضت بوجه صباح يوم الموقف

وقول مسلم :

ثاروا الى صفق الشمول فأشعلوا نيران حرب كؤوسها اشعالا

(٢) أى فى القول السابق الذى يجعل خلو الكلام من كثرة التكرار وتتابع الاضافات شرطا لفصاحته .

(٣) أى كثرة التكرار وتتابع الاضافات .

(٤) أى بما سبق ذكره من التنافر .

(٥) يسمى هذا اللون فى البديع « الاطراد » . ووردت ايضا مثل التكرار وتتابع الاضافات غير معيبة ، قال تعالى : ونفس وما سواها فالهمها فجورها وتقواها . وقال : مثل دأب قوم نوح . وقال : ذكر رحمة ربك عبده زكريا .

قال الشيخ عبد القاهر[1] : قال الصاحب[2] . اياك واضافات المتداخلة ، فانها لا تحسن ، وذكر أنها تستعمل فى الهجاء ، كقول القائل :

يا على بن حمزة بن عماره   أنت والله ثلجة فى خياره

ثم قال الشيخ[3] : ولا شك فى ثقل ذلك فى الأكثر ، لكنه اذا سلم من الاستكراه ملح ولطف . ومما حسن فيه قول ابن المعتز[4] أيضا :

وظلت تدير الراح أيدى جآذر   عتاق دنانير الوجوه ، ملامح[5]

ومما جاء فيه حسنا جميلا قول الخالدى[6] يصف غلاما له :

ويعرف الشعر مثل معرفتى   وهو على أن يزيد مجتهد
وصيرفى القريض وزان دينار   المعانى الدقاق ، منتقد[7]

---

(١) راجع هذا القول فى ص ٨٢ من دلائل الاعجاز .

(٢) هو الصاحب بن عباد الوزير م ٣٨٥ هـ ، والبيت الآتى يتهكم فيه بعلى بن حمزة البصرى اللغوى المتوفى عام ٣٩٠ هـ .

(٣) أى عبد القاهر أيضا .

(٤) هو الخليفة العباسى الشاعر الأديب العالم الناقد ، توفى عام ٢٩٦ هـ .

(٥) الراح : الخمر . جآذر : جمع جؤذر وهو ولد البقرة الوحشية . عتاق جمع عتيق أى كريم .

(٦) سعيد بن هشام ، من شعراء اليتيمة ، رقيق الشعر مطبوع توفى عام ٣٧٠ هـ .

(٧) الصيرفى : المحتال فى الأمور . المنتقد : الخبير بالدراهم الجيدة والزيوف ثم أطلق فصار بمعنى الخبير بالشىء مطلقا . والمعنى هو مثلى فى معرفة الشعر والبصر به ونظمه بل هو لديه القدرة على ان يكون أبرع مما هو فيه وهو دقيق البصر بالشعر ناقد له يزن المعانى الدقيقة بموازين النقد التى لا تسرف فى الحكم والتقدير .

* * * * * * * * * * * *

=

والشاهد في البيت كثرة الاضافات مع حسنها ، وهو الشاهد في البيت السابق .

● شواهد للاخلال بالفصاحة :

قال تأبط شرا :

يظل بموماة ويمسى بغيرها جحيشا ويعرورى ظهور المسالك

وقال حسان يرثى :

ولو أن مجدا أخلد الدهر واحدا من الناس أبقى مجده الدهر مطعما

وقال المتنبى :

كيف ترثى التى ترى كل جفن رآءها غير جفنها غير راق

وقال الفرزدق :

واذا الرجال رأوا يزيد رايتهم خضع الرقاب نواكس الأبصار

وقال أبو تمام :

قد قلت لما اطلخم الأمر وانبعث عشواء تالية غبسا دهاريسا
لى حرمة بك أضحى حق نازلها وقفاعليك، فدتك النفس ،محبوسا

وللمتنبى :

جفخت وهم لا يجفخون بها بهم شيم على الحسب الأغر دلائل

وقال :

اقل، انل، اقطع، احمل سل، أعد زد ،هش،بش،تفضل،سرادن، صل

وقال الشاعر :

كأن قفرا رسومها قلما

وللمتنبى :

ومن جاهل بى وهو يجهل جهله ويجهل علمى انه بى جاهل
فقلقلت بالهم الذى قلقل الحشا فلاقل عيس كلهن قلاقل =

● **وأما فصاحة المتكلم :**

فهى ملكة[1] يقتدر بها على التعبير عن المقصود بلفظ فصيح • فالملكة قسم من مقولة الكيف التى هى هيئة قارة لا تقتضى قسمة ولا نسبة ، وهو مختص بذوات الأنفس راسخ فى موضوعه •

وقيل : ملكة • ولم يقل صفة ، ليشعر بأن الفصاحة من الهيئات الراسخة ، حتى لا يكون المعبر عن مقصوده بلفظ فصيح فصيحا الا اذا كانت الصفة التى اقتدر بها على التعبير عن المقصود بلفظ فصيح راسخة فيه •

وقيل يقتدر بها ، ولم يقل يعبر بها ، ليشمل حالتى النطق وعدمه : وقيل : بلفظ فصيح ، ليعم المفرد والمركب[2] •

* * *

وقال الحريرى :

فـازور من كان لـه زائـر   وعـاف عـافى العـرف عرفانه

ولبشر بن عوانة أو للبديع فى وصف الأسد :

فخـر مضرجـا بـدم كأنى   هدمت بـه بنـاء مشمخرا

المتنبى :

فلا يبرم الأمر الذى هو حالل   ولا يحلل الامر الذى هو مبرم

المتنبى :

أنى يكون أبا البرايا آدم   وأبوك والثقلان أنت محمد

امرؤ القيس فى وصف الفرس :

وأركب فى الروع خيفانة   كسا وجهها سعف منتشر

أبو تمام :

جذبت نداء غدوة السبت جذبة   فخر صريعا بين أيدى القصائد

(١) الملكة : كيفية راسخة فى النفس •

(٢) أما المركب فظاهر ، وأما المفرد فكما تقول عند التعداد : دار ، غلام ، جارية ، ثوب ، الى غير ذلك •

● **وأما بلاغــة الكلام :**

فهى مطابقته لمقتضى الحال[1] مع فصاحته .

---

(۱) أى لجميع ما يقتضيه الحال على قدر الطاقة ، فالمراد المطابقة الكاملة وقوله لمقتضى الحال أى لمناسب الحال لا موجبه ، والمراد بمناسب الحال الخصوصيات التى يبحث عنها فى علم المعانى دون كيفيات دلالة اللفظ التى يتكفل بها علم البيان اذ قـد تتحقق البـلاغة فى الكلام بدون رعايتها بأن يؤدى الكلام المطـابق بدلالات وضعية . نعـم اذا أدى المعنى بدلالات عقلية مختلفة فى الوضوح والخفاء فلابد فى بلاغة من رعاية كيفيــة الدلالة أيضــا .

والحال هو الداعى للمتكلم الى ايراد الكلام على وجــه مخصوص ، أى الى أن يعتبر مع الكلام الذى يؤدى به أصــل المعنى خصوصية ما ، وهى مقتضى الحال . مثلا انكار المخاطب للحكم حــال يقتضى تأكيــده ، والتأكيد مقتضى الحال . ومعنى مطابقته له أن الحال أن اقتضى التأكيد كان الكلام مؤكدا وان اقتضى الاطلاق كان الكلام عاريا عن التأكيد ، وهكذا أن اقتضى حذف المسـند اليه حذفه وان اقتضى ذكره ذكره ، الى غير ذلك من التفاصيل المشتمل عليها علم المعانى . فالانكار حال ، والتأكيــد مقتضى ، وقولك « ان زيدا فى الدار » مؤكدا بان كلام مطابق لمقتضى الحال ، يعنى أنه مشتمل عليه ، اذ هذا المثال مشتمل على التأكيد . وليس المراد بكونه مطابقا له أنه جزئى من جزئياته اذ لا يصــدق عليه أى لا يحمل عليـــه ، ضرورة أن مقتضى الحال هو التأكيد وهو لا يحمل على قولك ان زيدا فى الدار اذ لا يقال « ان زيدا فى الدار » تأكيد ، فالمراد بالمطابقة هنا الاشتمال لا مصطلح المناطقة الذى هو الصدق .

والتحقيق أن مقتضى الحال هو الكلام الكلى المشتمل على الخصوصية، ومطابقة الكلام لذلك المقتضى كون الكلام الجزئى الصادر من المتكلم الملقى للمخاطب المشــتمل على الخصوصية من أفراد ذلك الكلى الذى يقتضيه الحال ، فان ذلك المقتضى صــادق عليه ، فقولنــا « ان زيدا فى الدار » مؤكدا جزئى من جزئيات ذلك الكلام الكلى الذى يقتضيه الحال ، الذى هو

ومقتضى الحـــال مختلف • فان مقامات الكلام متفاوتة[1] فمقام التنكير يباين مقام التعريف[2] ومقـــام الاطـــلاق يباين مقـــام التقييد[3] ومقام التقديم يباين مقام التأخير[4] ، ومقام الذكر يباين مقام الحذف ، ومقام القصر يباين مقام خلافه ، ومقام الفصل يباين مقـــام الوصـــل ،

=
الانكار المقتضى لكلام مؤكد بمطلق تأكيد لا بتأكيد مخصوص ، فقولنا « ان زيدا فى الدار » مطابق له بمعنى أنه صـــادق ومحمـــول على هـــذا الجزئى المؤكد الذى هـــو مقتضى الحـــال صادق ومحمـــول على هـــذا الجـــزئى لكونه جزئيا من جزئياته . فالبلاغة على هذا التحقيق مطابقة هذا الجزئى لذلك الكلى بمعنى كونه جزئيا من جزئياته بحيث يصح حمل مقتضى الحال عليـــه ، فالكلام الجزئى مطـــابق (بكسر البـــاء) والكلام الكلى مطـــابق (بفتحها) . هذا هو تحقيق السعد فى مختصره ، وان كان قد حقق فى كبيرة أن التحقيق هو مذهب الجمهور الأول : من أن المقتضى هى الخصـــوصية والمطابقة هى الاشتمال . هذا والحـــال على المذهبين واحد ، وهو الأمـــر الداعى للمتكلم الى أن يعتبر مع الكلام الذى يؤدى به أصل المراد خصوصية ما ، سواء كان ذلك الأمر داعيا له فى نفس الأمر أو غير داع فى نفس الأمـــر بل بتنزيل ، فالحال هو الأمر الداعى مطلقا . أما ظاهر الحال فهو الأمر الداعى فى نفس الأمر لاعتبار المتكلم خصوصية ما ، فهو أخص من الحال .

(١) لأن الاعتبار اللائق بهذا المقام يغاير الاعتبار اللائق بذلك ، وهذا عين تفاوت مقتضـــيات الأحوال ، لأن التغاير بين الحال والمقام انما هـــو بحسب الاعتبار ، وهو أنه يتوهم فى الحال كونه زمانا لورود الكلام فيه ، وفى المقـــام كونه محـــلا له .

(٢) فالمقام الذى يناسبه تنكير المســـند اليه أو المســـند يباين المقام الذى يناسبه التعريف .

(٣) أى مقام اطلاق الحكم أو التطبيق او المســـند اليه او المســـند أو متعلقه يباين مقـــام تقييـــده بمؤكـــد أو أداة او تابع او شرط أو مفعول أو ما يشـــبه ذلك .

(٤) أى مقام تقديم المســـند اليه أو متعلقاته يباين مقام تأخيره .

ومقام الايجاز يباين مقام الاطناب والمساواة ، وكذا خطاب الذكى يباين خطاب الغبى[1] .

وكذا لكل كلمة مع صاحبتها مقام[2] .. الى غير ذلك كما سيأتى تفصيل الجميع .

وارتفاع[3] شأن الكلام فى الحسن والقبول بمطابقته للاعتبار المناسب[4] ، وانحطاطه بعدم مطابقته له .

فمقتضى الحال هو الاعتبار المناسب[5] .

---

(١) فان مقام الأول يباين مقام الثانى ، لأن الذكى يناسبه من الاعتبارات اللطيفة والمعانى الدقيقة الخفية ما لا يناسب الغبى .

(٢) راجع ص ١٣ من المفتاح . وقوله ولكل كلمة أى كالفعل ، مع صاحبتها أى كأداة الشرط مثل آن الشرطية ، اذ لهـا معها مقام ليس لذلك الكلمة مع ما يشارك تلك الصاحبة فى أصل المعنى كاذا الشرطية ، فالفعل الذى قصد اقترانه بأداة الشرط له مع أن مقام ليس لـه مع اذا وكذلك من أدوات الشرط مع الماضى مقام ليس له مع المضارع ، على أن المراد بالكلمة أداة الشرط وبصاحبتها الماضى وبمشارك الصاحبة الفعل المضارع . وهكذا ما يشبه ذلك فللفعل مع هل الاستفهامية مقام ليس له مع الهمزة ، والمسند اليه مع المسند الفعلى له مقام معه ليس له مع المسند الاسمى الخ .

(٣) راجع ص ٧٣ من المفتاح تجد ما هنا مأخوذا منه بالنص والمقصود من هذا بيان تعدد مراتب البلاغة ، والحسن المراد منه الحسن الذاتى الداخل فى البلاغة لا العرضى الخارج لحصوله بالمحسنات البديعية ، والمراد بالقبول عند السامع . والمراد بالكلام الكلام الفصيح .

(٤) أى باشتماله على الأمر المعتبر المناسب لحال المخاطب ، فكلما كان الاشتمال أتم كان الكلام أرفع وأعلى . فالمراد بالاعتبار المناسب الأمر الذى اعتبره المتكلم مناسبا بحسب السليقة للعرب الخاص أو بحسب تتبع خواص تراكيب البلغاء لغيرهم .

(٥) يعنى اذا علم أن ليس ارتفاع شأن الكلام الفصيح فى الحسن الذاتى الا بمطابقته للاعتبار المناسب على ما يفيده اضافة المصدر ـ لأنه

وهـــذا ـــ أعنى تطبيق الكلام على مقتضى الحـــال ـــ هو الذى يسميه الشيخ عبد القاهر بالنظـم ، حيث يقـول : النظـم تآخى معانى النحو فيما بين الكلم ، على حسب الأغراض التى يصاغ لهـا الكلام .

فالبلاغة صفة راجعة الى اللفظ باعتبـار افـادته المعنى[1] عنـد التركيب[2] .

وكثيرا ما يسـمى ذلك[3] فصاحة أيضـا[4] . وهو مراد الشيخ

=

مفرد مضاف لمعرفة فيعم والعموم فى هذا المقام يستلزم الحصر .. فالمعنى كل ارتفاع فهو بالمطابقة ، فالباء فى قولنا : بمطابقته للسـببية القريبة حتى يفيد العموم ـ ومعلوم أنه آنما يرتفع بالبلاغة التى هى عبارة عن مطـابقة الكلام الفصيح لمقتضى الحال ، فقـد علم أن المراد بالاعتبار المناسـب ومقتضى الحال واحد ، فهما متحذان أو متساويان ، فمقتضى الحـال هو مناسب الحـال لا موجبـه .

(١) صرح عبد القاهر بأن وصف اللفظ بالفصاحة انما هو من حيث انه دال على المعنى (٥٠ دلائل الاعجاز) . والحاصل أنه اذا كانت البلاغة هى المطابقة والمطابقة صفة المطابق فتكون المطابقة راجعة للكلام من رجـوع الصفة للموصوف ، لكن رجوعها له باعتبـار أفادته المعنى الحاصل بسبب التركيب ، وهو المعنى الثانى الذى يعتبره البلغاء ، وهو الخصوصيات التى يقتضيها الحال الزائد على أصل المراد . فالبلاغة اذا وصـف بهـا المعنى كان المراد المعنى الثانى باعتبار أن المقصـود من اللفظ افادته . واذا وصف بها اللفظ فهو باعتبار افادته ذلك المعنى المقصـود ونفيه عن اللفظ مراد به اللفظ المجرد عن المعنى والخصوصيات ، ونفيها عن المعنى مراد به المعنى الأول للفظ الذى هو مجرد ثبوت المحكوم للمحكوم عليه .

(٢) لأن البلاغة عبارة عن مطابقة الكلام الفصيح لمقتضى الحـال ، فظاهر أن اعتبار المطابقة وعدمها آنما تكون باعتبار المعانى والاغراض التى يصاغ لها الكلام لا باعتبار الألفاظ المفـردة والكلم المجردة .

(٣) أى الوصف المذكـور .

(٤) كما يسمى بلاغة ، فهما مترادفان ، عند عبد القاهر حقيقة ، وعلى شىء من التجـوز عند الخطيب .

ابن خلدون[1] ، ويقول شيلر : فى الفن الشكل هو كل شىء والمعنى ليس شيئا مذكورا .. وفى البيان نصوص كثيرة استغلها علماء البيان والبديع فى اختيار شواهد أساليب البلاغة منها ، مما لا داعى الى ذكره هنا خوفا من كثرة الاسهاب ، والجاحظ يشيد بالايجاز ويدعو اليه كثيرا فى بيانه[2] ، وفى الحديث عن رسول الله : اذا قلت فأوجز واذا بلغت حاجتك فلا تتكلف[3] ، ويحث على ترك الوحشى والسوقى وعلى الافهام والوضوح ، وعلى ترك التعمق والتهذيب فى صناعة الكلام ، وعلى أى حال فالبيان والتبيين أثر أدبى وعلمى نفيس ، والجاحظ يده على البيان العربى لا تجحد ، ويعده ابن خلدون من السابقين فى التأليف فيه[4] .

وبعد فالجاحظ أظهر من خص البيان بالتأليف وهو أعظم السابقين الى جمع وتدوين آراء رجال البيان والبلاغة ، وله مع ذلك آراء كثيرة وصل اليها بفكره وذوقه وملكته البيانية الدقيقة الاحساس بالأساليب البلاغية ودقائقها ، ولا يضير الجاحظ أن كانت دراساته فى كتاب البيان موجزة مفرقة كما يقول أبو هلال[5] ، فهى على كل حال ذات أثر كبير فى نشأة البيان .

(ج) وقد كتب بعد الجاحظ كثير من العلماء فى مسائل تتصل بالبلاغة والبيان : كالمبرد فى كامله ، وابراهيم بن المدبر فى الرسالة العذراء ، وثعلب فى قواعد الشعر ، وابن عبد ربه فى العقد ، وسوى هؤلاء مما يطول الحديث لو فصلنا القول فيه .

* * *

---

(١) ٥٧٧ مقدمة ابن خلدون .
(٢) ٨٠ و ٨٦ و ١١٤ و ١٥٢ و ١٨٧ و ٢/١٩٨ البيان .
(٣) ١/٥ الكامل للمبرد .
(٤) ٥٥٢ مقدمة ابن خلدون .
(٥) ٦ الصناعتين .

هذا لفظه ، وهو صريح في أن الكلام من حيث هو كلام لا يوصف بالفضيلة باعتبار شرف معناه ، ولا شك أن الفصاحة من صفاته الفاضلة ، فلا تكون راجعة الى المعنى ، وقد صرح فيما سبق بأنها راجعة الى المعنى دون اللفظ .

فالجمع بينهما بما قدمنا بحمل كلامه حيث نفى أنها من صفات اللفظ على نفى أنها من صفات المفردات[١] من غير اعتبار التركيب ، وحيث أثبت أنها من صفاته على أنها من صفاته باعتبار افادته المعنى عند التركيب .

● **والبلاغة طرفان :**

أعلى ، اليه تنتهى ، وهو حد الاعجاز[٢] ، وما يقرب منه[٣] .

---

(١) أى المفردة عن اعتبار افادة المعانى — وهى الخصوصيات — وليس المراد التى هى غير مركبة .

(٢) الاعجاز أن يرتقى الكلام في بلاغته الى أن يخرج عن طوق البشر ويعجزهم عن معارضته .

(٣) عطف على قوله (وهو) ، والضمير فى منه عائد الى أعلى ، يعنى أن الأعلى مع ما يقرب منه كلاهما حد الاعجاز ، وهذا هو الموافق لما فى المفتاح فالبلاغة أمر كلى لها ثلاث مراتب : مرتبة عليا ولها فردان ، وسفلى وهى فرد واحد ، ووسطى ولها أفراد . ويترتب على هذا أن بعض القرآن ابلغ من بعض وان كان الجميع معجزا .
ويجوز أن يكون « وما يقرب منه » معطوفا على « حد الاعجاز » والضمير فى منه عائد اليه ، يعنى ان الطرف الأعلى هو حد الاعجاز . وما يقرب من حد الاعجاز . فهذا عكس الأول ، اذ الأول يفيد أن الطرف الأعلى نوع تحته فردان : حد الاعجاز وما يقرب منه . والمراد بحد الاعجاز البلاغة في أقصر سورة ، وما يقرب منه البلاغة فى مقدار آية أو آيتين . وفى التقدير الثانى نظر لان القريب من حد الأعجاز لا يكون من الطرف الاعلى الذى هو حد الاعجاز .

وأسفل ، منه تبتدىء وهو ما[1] اذا غير الكلام عنه الى ما هو دونه التحق عند البلغاء بأصوات الحيوانات[2] وان كان صحيح الاعراب ... وبين الطرفين مراتب كثيرة متفاوته[3] :

واذ قد عرفت معنى البلاغة فى الكلام وأقسامها ومراتبها ، فاعلم

---

(١) أى هو طرف للبلاغة اذا غير الكلام عنه الى مرتبة هى أدنى منه وأنزل .

(٢) التى تصدر عن محالها بحسب ما يتفق من غير اعتبار اللطائف والخواص الزائدة على أصل المراد .

(٣) أى بعضها أعلى من بعض بحسب تفاوت المقامات ورعاية الاعتبارات والبعد من أسباب الاخلال بالفصاحة بناء على ان البلاغة هى المطابقة لمقتضى الحال فى الجملة ، لكن الحق كما فى عبد الحكيم أنها مطابقة الكلام لجميع ما يقتضيه الحال لكن بقدر الطاقة .
هذا وبلاغة الكلام تتفاوت باختلاف الخصوصيات كما أو كيفا والمقام واحد ، وباختلاف الخصوصيات تبعا لاختلاف المقامات ، وبترك خصوصية مراعاة لحال المخاطب .

وللبلاغة طرف أسفل وطرف أعلى وما بينهما : أما الأسفل فهو الكلام الفصيح الذى طابق أدنى مطابقة وليس تحته الا ما يلتحق بأصوات الحيوانات . وأما الأعلى فهو حد الاعجاز الالهى وما يقرب منه (وهو أبلغ كلام البشر) .. وبينهما مراتب لا تحصى .
ولنا أن نتساءل . هل فى طاقة البلغاء ـ بالطبع أو بالاكتساب ـ الوصول الى حد الاعجاز ، ولو بأن يأتوا بمثال أقصر سورة من القرآن ؟ وللجواب على ذلك .

اقول : لا شك أن علوم البلاغة ترسم اصول البيان العربى والسليقة العربية ومناهج الأداء والاسلوب ، وبالوقوف على ذلك يمكن مع سلامة الذوق محاكاة أهل هذه السليقة فى بلاغتهم ، فلنتكلم عن علوم البلاغة ـ لأنها قواعد السليقة العربية ، وهل توصل الى حد الاعجاز ، وهل هى صالحة كأداة للوصول الى مرتبة الاعجاز ؟ ولا شك ان علوم البلاغة لا تؤدى الى الوصول لحد البلاغة لأنها لا تعرفنا المقامات بل الخصوصيات

أنه يتبعها وجـوه كثيرة[1] غير راجعـة الى مطابقة مقتضى الحال ولا الى الفصاحة ، تورث الكلام حسنا وقبولا .

=
وحدها ، ولو فرضنا جدلا أنها تعرفنا مع الخصوصيات المقامات أيضا ، فلا تسلم الاحاطة بها لو فرضنا الاحاطة بها فانها لا تعطيك قدرة على انشاء كلام بليغ بدليل ان كثيرا من علماء البلاغة لم يستطيعوا الاتيان بكلام بليغ ، ولو فرضـنا أنهـا تعطى الملكة فلا شـك فى أن الملكة البشرية لا تقدر على مراعـاة الخصائص كلها فى الكلام البليغ .

هذا ويرى علماء البلاغة أن القرآن يتفاوت فى بلاغته لأنه :

أ ـ قد يقتضى المقام عشر خصوصيات فيأتى الله عز وجـل بخمس منهـا حسب قدرة البشر مراعاة للمقـام .

ب ـ وقد تختلف المقامات فيكون مقام مقتضـيا لعشر خصوصيات وآخـر مقتضيا لخمس ولا شـك أن الكلام الذى روعيت فيـه العشرة ابلغ من الآخـر .

وأرى ان القرآن لا تتفاوت بلاغته وان أسـلوبه وسـوره وآياته فى درجة واحدة من البلاغة . ويمكن الرد على راى علماء البلاغة بما ياتى :

أ ـ أن مراعاة مقام المخاطب والاتيان بكلام يوافق حاله هو البلاغة الكاملة التى ليس فيهـا تفاوت .

ب ـ لا نسلم أن الكلام الأول أبلغ من الثانى بل هما فى درجة واحدة من البلاغة ، لأن العبرة ليست بالكم بل بالكيف ، ولـو سلمنا لهم رأيهم لكانت سـورة البقـرة أبلغ من « قل هـو الله أحـد » أو لكانت أبلغ من نصفها ، أو لكان القرآن ابلغ من سورة منه .

(1) وهى المحسنات البديعية ، وتحسينها عرضى خارج عن حـد البلاغة ، وانما تعد محسنة بعد رعاية المطابقة والفصاحة . وجعلها تابعـة لبلاغة الكلام دون المتكلم لأنهـا ليست مما تجعل المتكلم متصفا بصفة .

والمحسنات البديعية ان اتى بهـا فى الأسلوب من حيث أنها محسنة بحث عنها فى علم البديع وكان تحسينها عرضيا ، أما اذا اعتبرت من حيث المطابقة فتحسينها ذاتى يبحث عنه فى علم المعانى .

هـذا والبلاغة هى المطـابقة والفصاحة واعتبـار الخصوصيات ،
=

وأما بلاغة المتكلم :

فهي ملكة يقتـــدر بها على تأليف كلام بليغ .

وقد علم بما ذكرنا[1] أمران :

أحدهما أن كل بليغ ــ كلاما كان أو متكلما فصيح[2] ، وليس كله فصيح بليغـــا[3] .

الثاني أن البلاغة في الكلام : مرجعهـــا الى الاحتراز عن الخطـــأ في تأدية المعنى المراد[4] ، والى تمييز الكلام الفصيح من غيره[5] .

=

فالمطابقة والفصاحة أعم من البلاغة من حيث التحقق ، لأنهما يوجـــدان بدون البلاغة فيما اذا لم تراع الخصوصية ، وحينئذ فلا يعلم من كون تلك الوجوه تابعة للبلاغة كونها غيرهما لأنهما تابعان لها أيضا باعتبار أنهما من جملتها ، فاحتاج الى افادة أنها غيرهما ، فقـــال الخطيب في التلخيص : ويتبعها وجوه أخر ، فقوله « أخر » يفيـــد أن تلك الوجوه ليست لازمة للبلاغة لكونها سوى الأمرين اللذين تحصل بهما البلاغة وتلك الوجـــوه في الكلام انما تكون بعد البلاغة . ويقول السكاكي : البلاغة بمرجعها : علم المعاني وعلم البيان ، والفصاحة بنوعيها : اللفظية والمعنوية ، مما يكســـو الكلام حلة التزيين ، وههنا وجـــوه مخصوصة كثيرا ما يضار اليها لقصد تحسين الكلام وهي قسمان : قسم يرجـــع الى المعنى وقسم يرجـــع الى اللفظ ص ١٧٦ مفتاح .

(١) أي من تعريف البلاغة والفصاحة .

(٢) لأن الفصاحة مأخوذة في تعريف البلاغة مطلقا ، أي بلاغـــة كلام او متكلم ، لكن أخذها في بلاغة الكلام صراحة وفي بلاغة المتكلم بواسطة .

(٣) لجواز أن يكون كلام فصـــيح غير مطابق لمقتضى الحال . وكـــذا يجوز أن يكون لأحد ملكة يقتدر بها على التعبير عن المقصود بلفظ فصيح من غير مطابقة لمقتضى الحال .

(٤) والا ربما أدى المعنى المراد بلفظ فصيح غير مطابق لمقتضى الحال فلا يكون بليغا .

(٥) الأولى أن يقال : والى الاحتراز عن أسباب الاخلال بالفصاحة . وذلك لئلا يؤدى الكلام المطابق لمقتضى الحال بلفظ غير فصيح ، فلا يكون أيضا بليغا لوجوب وجود الفصـــاحة في البلاغة . ويدخل في تمييز الكلام الفصيح من غيره تمييز الكلمات الفصيحة من غيرها لتوقفه عليها .

والثانى ـــ أعنى التمييز[١] ـــ منه ما يتبين فى علم متن[٢] اللغة ، أو التصريف[٣] ، أو النحو[٤] ، أو يدرك بالحس[٥] ، وهو[٦] ما عدا التعقيد المعنوى[٧] .

وما يحترز به عن الأول ـــ أعنى الخطأ[٨] ـــ هو علم المعانى . وما يحترز به عن الثانى ـــ أعنى التعقيد المعنوى ـــ هو علم البيان[٩] .

وما يعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية تطبيقه على مقتضى الحال وفصاحته ، هو علم البديع .

---

(١) أى تمييز الفصيح من غيره .

(٢) وذلك كالغرابة ، يعنى يعرف بعلم متن اللغة تمييز السالم من الغرابة عن غيره بمعنى أن من تتبع الكتب المتداولة واحاط بمعانى المفردات المأنوسة علم أن ما عداها مما يفتقر الى تنفير أو تخريج فهو غير سالم من الغرابة .

(٣) وذلك كمخالفة القياس .

(٤) كضعف التأليف والتعقيد اللفظى .

(٥) أى بالذوق وذلك كالتنافر فى مستشزر مثلا أو فى « وقبر حرب : البيت » .

(٦) وهو أى ما يبين فى العلوم المذكورة أو ما يدرك بالحس .

(٧) اذ لا يعرف بتلك العلوم تمييز السالم من التعقيد المعنوى من غيره .

(٨) أى فى تأدية المعنى المراد .

(٩) يسمون هذين العلمين علم البلاغة لمكان مزيد اختصاص لهما بالبلاغة وان كانت البلاغة تتوقف على غيرهما من العلوم كاللغة والنحو والصرف .

وكثير من الناس يسمى الجميع علم البيان[1] .

وبعضهم يسمى الأول علم المعانى ، والثانى والثالث علم البيان ، والثلاثة علم البديع .

* * *

(١) والبيان في غير الاصطلاح هو المنطق الفصيح المعبر عما في الضمير .

ملاحظة :

والمعنى الأول هو أصل المراد ، وهو ثبوت المحكوم به للمحكوم عليه ، والمعنى الثانى هو الخصوصيات . كما يرى ابن قاسم وابن يعقوب والشيخ يسن وسواهم ، وقيل المعنى الأول هو ما يفهم من اللفظ بحسب التراكيب وهو أصل المعنى مع الخصوصيات من تعريف وتنكير الخ ، والمعنى الثانى هو الأعراض التى يقصدها المتكلم ويصوغ الكلام لأجل افادتها وهى أحوال المخاطب التى يورد المتكلم الخصوصيات من أجلها من أشارة لمعهود وتعظيم وتحقير وانكار وشك الخ ، وهذا بالنسبة لعلم المعانى ، وأما بالنسبة لعلم البيان ، فالمعانى الأول هى المدلولات المطابقية مع رعاية مقتضى الحال ، والمعانى الثوانى هن المعانى المجازية أو الكنائية . وهذا هو المأخوذ من الدلائل كما فى المطول ، وكلام السعد فى المختصر يصح حمله على الوجهين . فأصل المراد أذاً — الذى هو المعنى الأول — افادة ثبوت المسند للمسند اليه بأى طريق كان ، والخصوصية هى المزايا البلاغية التى يقصدها البليغ كما يرى السعد وهى المعنى الثانى .. لكن عبد الحكيم يرى أن أصل المراد هو أصل المعنى مع الخصوصيات ، والمعنى الثانى هو الأغراض ، راجع التجريد عند شرح قوله « ويؤتى باسم الاشارة لافادة القرب أو البعد أو المتوسط » مثلا . ومما فى التجريد نستنبط : أن مباحث علم البلاغة عند السعد تشمل المعانى الوضعية للألفاظ والتراكيب ، وهى عند السيد خاصة بمستتبعات التراكيب ، وعند عبد الحكيم أن مباحثها شاملة للمعانى الوضعية ولمستتبعات التراكيب .

هذا والنكتة البلاغية لا يشترط فيها الاختصاص بتلك الطريق بل يكفى كونها مناسبة للمقتضى موجبة كانت او مرجحة أو لم تكن كذلك ، والتراجيح من قصد المتكلم ، وهذه هى طريقة المفتاح ، ومذهب الشارح أن النكتة لابد أن تكون موجبة أو مرجحة .

الفن الأول

علم المعاني(١)

● **تعريف الخطيب :**

وهو علم[٢] يعرف به أحوال اللفظ التى بها يطابق مقتضى الحال[٣] .

---

(١) قدم المعانى على البيان لكونه منه بمنزلة المفرد من المركب ، فاتصال المعانى بالبيان كاتصال المفرد بالمركب ، ونسبته اليه من جهة التوقف ، وان كان توقف المركب على المفرد من جهة كونه جزءا له ، بخلاف توقف البيان على المعانى فعلم المعانى كالمفرد والبيان بمنزلة المركب ، وذلك لأن رعاية المطابقة لمقتضى الحال آلتى هى ثمرة علم المعانى معتبرة فى علم البيان (من حيث انها شرط فى الاعتداد بثمرته التى هى الايراد ، فليس المراد اعتبارها فى البيان على سبيل الجزئية له ، لأنه ليس مركبا من اعتبار المطابقة وايراد المعنى الواحد بطرق مختلفة ، فان الرعاية أمر خارج عن البيان ليست جزءا منه ولا فائدة له ، وانما هى شرط للاعتداد بفائدته ، فاعتبرت فيه من تلك الحيثية ، وأما الايراد فهو فائدة علم البيان ومقصود منه ، فاعتبر فيه من تلك الحيثية) مع زيادة شىء آخر هو ايراد المعنى الواحد بطرق مختلفة .. فثمرة علم المعانى تشبه الجزء من علم البيان لتوقفه عليها من حيث اعتبار ثمرته ، فالرعاية والايراد يشبهان أجزاء علم البيان لتوقفه عليهما ، فكان علم المعانى بمنزلة الجزء ، لكون ثمرته المقصودة منه كالجزء . وانما قلنا من حيث اعتبار ثمرته ، لأن تحققه لا يتوقف على رعاية المطابقة ، ومنه يمكن تحقق ملكة يقتدر بها على ايراد المعنى بطرق مختلفة وضوحا وخفاء من غير رعاية للمطابقة ، ولا شك أن هذه الملكة تسمى علم البيان .

(٢) أى ملكة يقتدر بها على ادراكات جزئية ، ويجوز أن يراد به الأصول والقواعد المعلومة .

(٣) أى يطابق بها اللفظ مقتضى الحال ، وذلك احتراز من الأحوال التى ليست بهذه الصفة ، مثل الاعلال والادغام والرفع والنصب وما أشبه ذلك مما لابد منه فى تأدية أصل المعنى ، وكذا المحسنات البديعية من =

قيل : « يعرف » دون « يعلم » ، رعاية لما اعتبره بعض الفضلاء من تخصيص العلم بالكليات والمعرفة بالجزئيات ، كما قال صاحب « القانون »[1] في تعريف الطب : الطب علم يعرف به أحوال بدن الانسان ، وكما قال الشيخ أبو عمرو رحمه الله[3] : التصريف علم بأصول يعرف بها أحوال أبنية الكلم .

● **تعريف السكاكي :**

وقال السكاكي : « علم المعاني : هو تتبع خواص تراكيب الكلام

= التجنيس والترصيع ونحوهما مما يكون بعد رعاية المطابقة ... والمراد أنه علم تعرف به هذه الأحوال من حيث انها يطابق بها اللفظ مقتضى الحال ، لظهور آن ليس علم المعاني عبارة عن قصور معاني التعريف والتنكير مثلا ، وبهذا يخرج عن التعريف علم البيان اذ ليس البحث فيه عن أحوال اللفظ من هذه الحيثية .... والمراد بأحوال اللفظ الأمور العارضة له من التقديم والتأخير والاثبات والحذف وغير ذلك .

ومقتضى الحال على التحقيق هو الكلام الكلي للتكييف بكيفية مخصوصة على ما أشير اليه في المفتاح وصرح به الشيرازي في شرحه ـ وذلك حيث يقول السكاكي في تعريف علم المعاني : هو تتبع خواص تراكيب البلغاء الخ ، فهو يشير الى ان المقتضى هو الكلام المتكيف بتلك الكيفيات ، لأن الذي يذكر انما هو الكلام لا الحذف والتقديم الخ ... وأورد أن الذي يذكر انما هو الكلام الجزئي لا الكلي فهو كالكيفيات لا يذكر ، الا أن قلنا أنه شاع وصف الكلي بوصف جزئيات ـ ، لا نفس الكيفيات من التقديم والتأخير والتعريف والتنكير على ما هو ظاهر عبارة المفتاح وغيره ، ولو أريد بمقتضى الحال الكيفيات لا الكلام ، لما صح القول بأنها أحوال بها يطابق اللفظ مقتضى الحال لأنها عين مقتضى الحال .. وأحوال الاسناد ايضا من أحوال اللفظ باعتبار أن التأكيد وتركه مثلا من الاعتبارات الراجعة الى نفس الجملة . وتخصيص اللفظ بالعربي مجرد اصطلاح لأن الصناعة انما وضعت لذلك .

(١) هو ابن سينا و « القانون » أحد مؤلفاته المشهورة في الطب .

(٢) هو ابن الحاجب عثمان بن عمر الامام العالم النحوي المشهور ، مؤلف الشافية وسواها من الكتب المشهورة .

فى الافادة وما يتصل بها من الاستحسان وغيره ، ليحترز بالوقوف عليها عن الخطأ فى تطبيق الكلام على ما تقتضى الحال ذكره[١] » .

● **نقد تعريف السكاكى :**

(قال الخطيب) : وفيه[٢] نظر :

١ ـ اذ التتبع ليس بعلم ولا صادق عليه ، فلا يصح تعريف شىء من العلوم[٣] بـه .

٢ ـ ثم قال[٤] : « وأعنى بالتراكيب تراكيب البلغاء » ، ولا شك أن معرفة البليغ من حيث هو بليغ متوقفـة على معرفة البلاغة ، وقـد عرفها فى كتابه بقوله : « البـلاغة : هى بلوغ المتكلم فى تأدية المعنى حدا له اختصـاص بتوفية خواص التراكيب حقهـا [٥] وايراد أنـواع التشبيه والمجاز والكناية على وجهها » .

فان أريد بالتراكيب فى حد البلاغة تراكيب البلغاء ، وهو الظاهر ، فقد جاء الدور[٦] ، وان أراد غيرها فلم يبينه .

---

(١) أى ايراده فى الكلام .

(٢) أى فى تعريف السكاكى لعلم المعانى .

(٣) أجيب عن هذا الاعتراض : بأن المراد من التتبع العـلم مجـازا مرسلا من اطلاق المسبب على السبب .

(٤) اى السكاكى كما فى المفتاح ص ٧٠

(٥) بأن يورد كل كلام موافقا لمقتضى الحال ، فالمراد بالتراكيب فى تعريف البلاغة تراكيب ذلك المتكلم .

(٦) لأن علم البلاغة يتوقف على تراكيب البلغـاء وتراكيب البلغـاء تتوقف على علم البلاغة ، ومتى عرفنا البلاغة فقد وصلنا الى حد نعرف به توفيـه خواص التراكيب حقها .

٣ ـ على أن قوله « وغيره » مبهم لم يبين مراده به[1] .

● **المقصود من علم المعانى :**

ثم المقصود من علم المعانى منحصر فى ثمانية أبواب :

أولهـا : أحوال الاسناد الخبرى .

وثانيها : أحوال المسند اليه .

وثالثها : أحوال المسند .

ورابعها : أحوال متعلقات الفعل .

وخامسها : القصر .

وسادسها : الانشـاء .

وسابعها : الفصل والوصل .

وثامنها : الايجاز والاطناب والمساواة .

ووجه الحصر أن الكلام اما خبر أو انشـاء ، لأنـه اما أن يكون

=

وقد أجيب عن اعتراض الدور هذا بأن بلاغة الكلام غير بلاغـة المتكلم ، فلا يتوقف العلم بالبليغ المتكلم على العـلم ببلاغة الكلام التى وقع فيهـا التحديد فلا يمتنع أخذ البليغ فى الحـد .

(١) وأجيب عن هذا الاعتراض بأن المـراد به الاستهجان بقرينـة الاستحسـان . هـذا وقد بسـط الحفيد فى « الدر النضيد » شرح تعريف السكاكى ونقـده : وقال : المشـهور أن المـراد بالاستحسان المحسنات البديعية ، فالبديع خارج عن المعانى والبلاغة ، والأوضـح فى تعريف علم الكلام العربى لمقتضى الحـال .

لنسـبته خارج تطـابقه ، أو لا تطابقه . أو لا يكون لهـا خارج[1] ،

---

(١) تفصيل ذلك أن الكلام لا محالة يشـتمل على نسـبة تامة بين الطرفين قائمة بنفس المتكلم ، وهى تعلق أحد الشيئين ــ أى الطرفين : المسند أو المسند اليه ــ بالآخرة ، بحيث يصح السكوت على التعلق ، سواء كان ذلك التعلق ايجابيا أو سلبيا (وهذا لا يكون الا فى الخبر ، بخلاف الانشاء فلا يتصف بايجاب ولا بسلب ، لانهما من أنواع الحكم ، والانشاء ليس بحكم ، بل هو ايجاد معنى بلفظ يقارنه فى الوجود) أو غيرهما كما فى الانشائيات .

والمراد بالتعلق ما يشـمل النسبة الحكمية ــ أعنى ثبوت المحمول للموضوع ــ وما يشمل النسـبة الانشائية . والمراد بالايجاب ادراك الثبوت، أى انه مطابق للواقع أو غير مطابق ، وبالسلب عكسه فهو ادراك الانتفاء أى انه مطابق للواقع أو غير مطابق .. وتفسير النسبة بايقاع المحكوم به على المحكوم عليه أو سلبه عنه خطأ فى هذا المقام ، لأنه لا يشمل النسبة فى الكلام الانشائى ، فلا يصح التقسيم .

والتحقق أن الانشاء له نسبة كلامية ونسبة خارجية تارة يتطابقان وتارة لا ، والفارق بين الخبر والانشاء هو قصد المطابقة أو قصد عدمها فى الخبر ، والانشاء ليس فيه قصد للمطابقة ولا لعدمها ، وعبد الحكيم وغيره يقولون : الانشاء لا خارج له اذ لو كان له خارج لكان خبرا يتصور فيـه الصـدق والكذب اللذان همـا من لوازم الخارجيـة ، واللازم باطـل فبطـل اللزوم .

هذا والخبر له ثلاث نسب : نسبة ذهنية ، ونسبة كلامية ، ونسبة خارجية فى أحد الازمنة الثلاثة . فبين طرفيه ــ اللذين هما النسبة الكلامية ــ فى الخارج والواقع نسبة ثبوتية أو سـلبية بحيث يقصد مطـابقة تلك النسـبة لذلك الخارج بأن تكونا ثبوتيتين أو سلبيتين لا يقصد مطابقتهما له، بأن تكون النسبة المفهومة من الكلام ثبوتية والتى بينهما فى الخارج والواقع سـلبية أو بالعكس ، وأما الانشـاء فله نسبة ذهنية ونسبة كلامية ، والخلاف هل له نسبة خارجية أو لا ؟

قيل ليس له نسـبة خارجية وهذا هو الفرق بينه وبين الخبر . . وقيل له نسبة خارجيـة ، والفرق بينهما أن الخبر يقصـد فيـه مطابقة النسبة للخارج أو عدم مطابقتها له ، والانشاء لا يقصد فيه ذلك .

=

الأول الخبر ، والثاني الانشاء . ثم الخبر لابد له من اسناد ومسند اليه ومسند[1] ، وأحوال هذه الثلاثة هى الأبواب الثلاثة الأولى . ثم المسند قد يكون له متعلقات اذا كان فعلا أو متصلا به أو فى معناه كاسم الفاعل ونحوه[2] ، وهذا هو الباب الرابع . ثم الاسناد والتعلق كل واحد منهما يكون اما بقصر أو بغير قصر ، وهذا هو الباب الخامس . والانشاء هو الباب السادس . ثم الجملة اذا قرنت بأخرى فتكون الثانية اما معطوفة على الأولى أو غير معطوفة ، وهذا هو الباب السابع . ولفظ الكلام البليغ اما زائد على أصل المراد لفائدة[3] أو غير زائد عليه ، وهذا هو الباب الثامن .

* * *

= والخلاصة أن الكلام اما أن تكون نسبته بحيث تحصل من اللفظ ويكون اللفظ موجدا لها من غير قصد الى كونه دالا على نسبة حاصلة فى الواقع بين الشيئين وهو الانشاء ، أو تكون له نسبة بحيث يقصد ان لها نسبة خارجية تطابقه أو لا تطابقه وهو الخبر ، لأن النسبة المفهومة من الكلام الحاصلة فى الذهن لابد أن تكون بين الشيئين ، ومع قطع النظر عن الذهن لابد أن يكون بين هذين الشيئين فى الواقع نسبة ثبوتية بأن يكون هذا ذاك ، أو سلبية بأن لا يكون هذا ذاك : الا ترى انك اذا قلت زيد قائم فان القيام حاصل لزيد قطعا ، وثبوت النسبة فى الواقع بين الشيئين المذكورين مع قطع النظر عن الذهن هو معنى وجود النسبة الخارجية فمعنى وجودها تحققها فى الواقع .

(١) والانشاء كذلك أيضا ، وانما اقتصر على الخبر لكونه أعظم شأنا من الانشاء ، وأكثر اشتمالا على اللطائف البلاغية المعتبرة .

(٢) كالمصدر واسم المفعول وما اشبه ذلك ولا داعى لتخصيص هذا الكلام بالخبر .

(٣) احترز بالفائدة عن التطويل فانه الزيادة على أصل المراد لا لفائدة ، على انه لا حاجة الى قيد الفائدة بعد تقييد الكلام بالبليغ .

هذا وقد أفردت هذه الأحوال المتعلقة بالجملة بأبواب مستقلة دون غيرها من الأحوال ــ كالتعريف والتنكير مثلا ــ لصعوبة أمرها وكثرة تشعبها بكثرة مباحثها .

. . . .

=

تطبيق :

١ ــ ميز الجمل الخبريه من الانشائية وعين المسند والمسند اليه فى كل جملة فيما يلى :

قال بعض البلغاء : لذت بعفوك ، واستنجرت بصفحك ، فأذقنى حلاوة الرضا ، وأنسنى مرارة السخط فيما مضى . وقال الشاعر :

ولا تصطنع آلا الكرام فانهم   يجازون بالنعماء من كان منعما
ومن يتخذ عند اللئام صنيعة   تجده على آثارها متندما

وقال ابن المعتز :

ليس الكريم الذى يعطى عطيته   عن الثناء وأن أغلى به الثمنا
بل الكريم الذى يعطى عطيته   لغير شىء سوى استحسانه الحسنا
لا يستثيب ببذل العرف محمده   ولا بمن اذا ما قلد المننا

وقال شوقى :

قف دون رأيك فى الحياة مجاهدا   ان الحياة عقيدة وجهاد

وقال المتنبى :

أنا الذى نظر الأعمى الى أدبى   وأسمعت كلماتى من به صمم

وقال زهير :

ومن يك ذا فضل فيبخل بفضله   على قومه يستغن عنه ويذمم

وقال عنترة :

وأنا المنية فى المواطن كلها   والطعن منى سابق الآجال

وقال الشاعر :

أيها الرائد فى صمت الرعاة   عد الى دنياك واهتف بالحياة

وقال حافظ :

ردوا على بيانى بعد محمود   انى عييت وأعيا الشعر مجهودى

وقال أبو العلاء :

تحطمنا الأيام حتى كأننا   زجاج ولكن لا يعاد له سبك

تنبيـــه(1)

اختلف الناس فى انحصـــار الخبر فى الصـــادق والكاذب ، فذهب الجمهور الى أنه منحصر فيهما ثم اختلفوا :

١ ـــ فقال الأكثر منهم : صدقه مطابقة حكمه للواقع(2) . هـــذا هو المشهور وعليه التعويل .

٢ ـــ وقال بعض الناس (3) : صدقه مطابقة حكمه لاعتقاد المخبر

---

(١) هـــذا بحث عقلى لا صـــلة له بمباحث البلاغة الا من ناحية انه كالتفسير والشرح لتعريف الخبر والانشاء ، وقد أشار عبد القاهر الى شىء من ذلك فى دلائله ـــ راجع ص ٤٠٧ الى ٤١٠ من دلائـــل الاعجـــاز ـــ ، كما ذكره الســـكاكى فى مفتاحه ص ٧٢ المفتاح ، وجارى الخطيب شيخه السكاكى بالسير على هذا المنوال .

(٢) أى الخارج الذى يكون لنسبة الكلام الخبرى ، فصدق الخبر على ذلك هو مطابقة نسبته الكلامية للنسبة الخارجية ، سواء طابقت الاعتقاد أو لا . وعلى هذا التعريف لا يخرج خبر الشـــاك عن الصـــادق والكاذب بخلافه على التفسير الثانى .. وتفصيل الأمر أن قولنا محمد قائم له ثلاث نسب : نســـبة كلاميـــة وهى ما يـدل عليه الكلام ، ونســـبة ذهنية وهى ما يحصل فى الذهن من النسبة الكلامية ، ونســـبة خارجية وهى النسبة التى بين الطرفين فى الواقع ، فمطابقة النسبة الكلامية للنسبة الخارجية بأن يكونا ثبوتيين أو سلبيين صـــدق ، وعـــدم مطابقتها لهـــا ـــ بأن تكون احداهما ثبوتية والأخرى سلبية ـــ كذب .

(٣) هو النظام الامام المعتزلى المتوفى عام ٢٣٥ هـ : وعلى رأى النظام يكون قول القـــائل « الســـماء تحتنا » صدقا اذا كان يعتقد ذلك ، ويكون قوله « السماء فوقنا » كذبا اذا لم يعتقـــد ذلك . والمراد بالاعتقاد الحكم الذهنى الجازم أو الراجح فيعم العلم والظن ، أما الشك فواسطة بين الكذب والصدق ، اذ لا اعتقاد للشك ، وعلى هذا لا يتحقق انحصـــار الخبر فى الصدق والكذب لوجود الواسطة وهى خبر الشاك ، اللهم الا ان يقال انه كاذب ، لأنه اذا انتفى الاعتقاد صدق عدم مطابقته للاعتقاد . هذا والكلام =

صوابا كان أو خطأ ، وكذبه عدم مطابقة حكمه له . واحتج له بوجهين :

أحدهما أن من اعتقد أمرا فأخبر به ثم ظهر خبره بخلاف الواقع يقال : ما كذب ولكنه أخطأ ، كما روى عن عائشة رضى الله عنها قالت فيمن شأنه كذلك : ما كذب ولكنه وهم .

ورد بأن المنفى تعمد الكذب لا الكذب ، بدليل تكذيب الكافر كاليهودى اذا قال : « الاسلام باطل » وتصديقه اذا قال : الاسلام حق . فقولها[1] : « ما كذب » متأول بما كذب عمدا .

الثانى قوله تعالى : « والله يشهد ان المنافقين لكاذبون » ، كذبهم فى قولهم « انك لرسول الله » وان كان مطابقا للواقع لأنهم لم يعتقدوه .. وأجيب عنه بوجوه .

أحدها أن المعنى نشهد شهادة وأطأت فيها قلوبنا ألسنتنا ، كما يترجم عنه ان والسلام وكون الجملة اسمية فى قولهم انك لرسول الله .. فالتكذيب فى قولهم « نشهد » وادعائهم فيها المواطأة ، لا فى قولهم « انك لرسول الله »[2] .

وثانيهما أن التكذيب فى تسميتهم اخبارهم شهادة ، لأن الاخبار

=

المشكوك فيه يرى البعض أنه ليس خبرا لأنه لا نسبة له فى الاعتقاد فهو خارج عن المقسم وهو الخبر .

(١) أى عائشة رضوان الله عليها .

(٢) وعلى هذا فالتكذيب فى الشهادة لا فى المشهور به ، بخلاف الوجه الثالث فالتكذيب فى المشهود به لكن فى الواقع بل فى زعمهم الفاسد لأنهم يعتقدون أنه غير مطابق للواقع ، فيكون كاذبا باعتقادهم وان كان صادقا فى نفس الأمر ، فكأنه قيل انهم يزعمون انهم كاذبون فى هذا الخبر الصادق ، وحينئذ لا يكون الكذب الا بمعنى عدم المطابقة للواقع .

اذا خلا عن المواطأة لم يكن شهادة فى الحقيقة .

وثالثها آن المعنى لكاذبون فى قولهم : « انك لرسول الله » عند أنفسهم ، لاعتقادهم آنه خبر على خلاف ما عليه حال المخبر عنه .

وأنكر الجاحظ انحصار الخبر فى القسمين[١] ، وزعم أنه ثلاثة أقسام : صادق ، وكاذب ، وغير صادق ولا كاذب . لأن الحكم اما مطابق للواقع مع اعتقاد المخبر له أو عدمه ، واما غير مطابق مع الاعتقاد أو عدمه :

فالأول ــ أى المطابق مع الاعتقاد ــ هو الصادق[٢] .

والثالث ــ أى غير المطابق مع الاعتقاد ــ هو الكاذب[٣] .

والثانى والرابع ــ أى المطابق مع عدم الاعتقاد[٤] ، وغير المطابق مع عدم الاعتقاد[٥] ــ كل منهما ليس بصادق ولا كاذب .

---

(١) أى الصادق والكاذب .

(٢) وصدق الخبر على هذا هو مطابقة الخبر للواقع مع اعتقاد المخبر أنه مطابق له .

(٣) فكذب الخبر هو عدم مطابقته للواقع مع اعتقاد أنه غير مطابق له .

(٤) أى مع عدم الاعتقاد أصلا أو مع الاعتقاد بأنه غير مطابق

(٥) اى اصلا أو مع اعتقاد المطابقة ، فالذى ليس بصادق ولا كاذب أربعة :

١ ــ المطابقة مع اعتقاد عدم المطابقة .
٢ ــ المطابقة بدون الاعتقاد اصلا .
٣ ــ عدم المطابقة مع اعتقاد المطابقة .
٤ ــ عدم المطابقة بدون الاعتقاد اصلا .

=

فالصدق عنده مطابقة الحكم للواقع مع اعتقاده ـ والكذب عـدم مطابقته مع اعتقاده .

وغيرهما ضربان : مطابقته مـع عدم اعتقـاده ، وعدم مطابقته مع عدم اعتقاده .

واحتج بقوله تعالى « افترى على الله كذبا أم به جنـة[1] ؟ » فانهم حصروا دعوى النبى صلى الله عليه وسـلم الرسـالة فى الافترا والاخبار والاخبار حال الجنون ، بمعنى امتناع الخلو ، وليس اخبـار حال الجنون كـذبا لجعلهم الافتراء فى مقابلته ، ولا صـدقا لأنهـم لم يعتقـدوا صدقه ، فثبت أن من الخبر ما ليس بصادق ولا كاذب[2] .. وأجيب عنـه بأن الافتراء هو الكذب عن عمـد ، فهو نوع من الكذب فلا يمتنع ان يكون الاخبار حال الجنون كذبا أيضا لجواز أن يكون نوعا آخر من الكذب وهو الكذب لا عن عمد ، فيكون التقسيم للخبر مطلقا ، والمعنى « افترى أم لم يفتر ؟ » ، وعبر عن الثانى بقوله « أم به جنة » ، لأن المجنون لا افتراء له .

* ** *

= فكل من الصـدق والكذب بتفسـير الجاحظ أخص منه بالتفسيرين السابقين ، لأنه إعتبر فى الصدق مطابقة الواقع والاعتقـاد جميعـا وفى الكذب عدم مطابقتهما جميعـا ، وقد اقتصر فى التفسيرين السابقين على احدهما ، فالجمهور اقتصروا فى تفسـيرهم على اعتبـار المطابقة للواقع والنظـام على اعتبـار المطابقة للاعتقاد .

(١) الافتراء : الكذب . الجنة : الجنون .

(٢) يلاحظ أن هذا الدليل وان اثبت الواسطة الا انه انما اثبت قسـما واحدا من أقسـام الواسطة الأربعة . الا أن مراد الجاحظ ابطال مذهب غيره واثبات مذهبه فى الجملة .

تنبيه آخر

وهو مما يجب أن يكون على ذكر الطالب لهذا العلم[1] .

قال السكاكى : ليس من الواجب فى صناعة وان كان المرجع فى أصولها وتفاريعها الى مجرد العقل أن يكون الدخيل فيها كالناشىء عليها ، فى استفادة الذوق منها ، فكيف اذا كانت الصناعة مستندة الى تحكمات وضعية واعتبارات الفية ؟ فلا على الدخيل فى صناعة علم المعانى أن يقلد صاحبه فى بعض فتاواه ان فاته الذوق هناك ، الى أن يتكامل له على مهل موجبات ذلك الذوق .

وكثيرا ما يشير الشيخ عبد القاهر فى دلائل الاعجاز الى هذا ، كما ذكر فى موضع ما تلخيصه هذا : اعلم أنه لا يصادف القول فى هذا الباب موقعا من السامع ، ولا يجد لديه قبولا ، حتى يكون من أهل الذوق والمعرفة ، ومن تحدثه نفسه بأن لما تومىء اليه من الحسن أصلا . فيختلف الحال عليه عند تأمل الكلام ، فيجد الأريحية تارة ، ويعرى منها أخرى ، واذا عجبته تعجب ، واذا نبهته لموضوع المزية انتبه ، فأما من كانت الحالات عنده على سواء ، وكان لا يتفقد من أمر النظم الا الصحة المطلقة ، والا اعرابا ظاهرا ، فليكن عندك بمنزلة من عدم الطبع الذى يدرك به وزن الشعر ، ويميز به مزاحفه من سالمه فى أنك لا تتصدى لتعريفه ، لعلمك أنه قد عدم الأداة التى بها يعرف ... واعلم أن هؤلاء وان كانوا هم الآفة العظمى فى هذا الباب ، فان من الآفة أيضا من زعم أنه لا سبيل الى معرفة العلة فى شىء مما تعرف المزية فيه ، ولا يعلم الا أن له موقعا من النفس وحظا من القبول ، فهذا بتوانيه فى حكم القائل الأول .. واعلم أنه ليس اذا لم يمكن معرفة

---

(١) اى علم البلاغة .

الكل وجب ترك النظر فى الكل ، ولأن تعرف العلة في بعض الصـور فتجعله[1] شـاهدا فى غيره أحرى من أن تسد باب المعرفة على نفسك وتعودها الكسل والهوينا ، قال الجاحظ : وكلام كثير جرى على ألسنة الناس ، وله مضرة شديدة وثمرة مرة . فمن أضر ذلك قولهم : لم يدع الأول للآخر شيئا[2] ، فلو أن علماء كل عصر مذجرت هذه الكلمة فى اسماعهم ، تركوا الاستنباط لما لم ينتـه اليهم عمن قبلهم ، لرأيت العلم مختلا[3] .

* * *

(١) اى فتجعل علمك أو عرفانك بذلك .

(٢) وفى البيـان والتبيين يقول الجاحظ : اذا سمعت الرجل يقول « ما ترك الأول للآخر شيئا فاعلم انه ما يريد أن يفلح » .

(٣) هذا هو نهاية تلخيص الخطيب لكلام عبد القاهر فى الدلائل .

القول فى أحوال الاسـناد الخبرى (١)

من المعلوم لكل عاقل أن قصد المخبر(٢) بخبره افادة المخاطب اما :

---

(١) البحث هنا عن الأمور العارضة للاسناد الخبرى : من التأكيد وعدمه وكونه حقيقة عقلية أو مجازا . الاسناد ضم كلمة او ما يجرى مجراها — كالجملة الحالة محل مفرد نحو زيد قائم أبوه . ومثل المركبات الاضافية والتقييدية — الى كلمة أخرى أو ما يجرى مجراها بحيث يفيد الحكم بأن مفهوم احداهما — وهى المحكوم به والمسند — ثابت لمفهوم الأخرى — وهى المسند اليه — .

(٢) أى من يكون بصـدد الاخبار والاعلام . والا فالجملة الخبرية كثيرا ما تأتى لأغراض أخرى غير افادة الحكم أو لازمه مثل :

التحسر والتحزن كما فى قوله تعالى حكاية عن امرأة عمران « رب انى وضعتها أنثى » ، وقول الشاعر :

قومى هـم قتلوا أميـم أخـى ... فـاذا رميت يصـيبنى سـهمى

وكاظهار الضعف كما فى قوله تعالى : « رب انى وهن العظم منى » .

وكبيان التفاوت الغريب فى المنزلة كما فى قوله تعالى « لا يستوى القاعدون من المؤمنين » الآية ، وقوله تعالى « هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون » .

وكالاستعطاف والاعتذار كقول النابغة :

نبئت أن قابـوس أوعـدنى ... ولا قـرار على زأر من الأسـد

وكالتوبيخ كقولك : أنت تسيء الى من احسن اليك ، وكاظهار الفرح كقولك : انتصرنا على العـدو اللدود . الى غير ذلك من الوجـوه التى يفيدها الأسلوب . واستفادة التحسر وغيره من هـذه الأساليب بطريق التلويح والاشارة فتكون هذه المعانى من مستتبعات التراكيب ، وقيل أن استعمال الكلام فى التحسر مثلا مجاز مركب ، لأن الهيئة فى مثله موضوعة للأخبار ، فاذا استعمل ذلك المركب فى غير ما وضع له لعلاقة المشـابهة فاستعارة وان كان لعلاقة غير المشابهة فمجاز مرسل .

نفس الحكم[1] كقولك زيد قائم لمن لا يعلم أنه قائم ، ويسمى هـذا فائدة الخبر . اما كون المخبر عالما[2] بالحكم ، كقولك لمن زيد عنده ولا يعلم أنك تعلم ذلك : زيد عندك ، ويسمى هذا لازم فائدة الخبر[3].

٤ ــ قال السكاكى :

---

(١) يطلق الحكم على النسبة الكلامية وهو المتعارف بين أرباب العربية ، ويطلق على المحكوم به ، وعلى اذعان النسبة أى ادراك أنها واقعة أو ليست بواقعة أى تحققها فى الخارج أو عدم تحققها وهذا هو المراد هنا .. والحكم أعم من أن يكون مدلولا حقيقيا للخبر أو مجازيا أو كنائيا .

(٢) المراد بالعلم هنا التصديق بالنسبة جزما أو ظنا ، لا مجرد التصور .

(٣) لأن كل خبر أفاد المخاطب الحكم أفاد أن المخبر عالم بذلك الحكم ، وليس كل ما أفاد أنه عالم بالحكم أفاد نفس الحكم ، لجواز أن يكون الحكم معلوما قبل الاخبار ، فيكون الخبر حينئذ قد أفاد لازم الفائدة ولم يفد الفائدة كما فى قولنا لمن قرأ كتاب الايضاح : أنت قد قرأت كتاب الايضاح .. ــ وتسمية مثل هذا الحكم فائدة الخبر بناء على أنه من شأنه أن يقصد بالخبر ويستفاد منه فان قيل ان المخاطب قد يلقى الخبر لافادة الحكم ويغفل عن كون المتكلم عالما به ، أو يجيز بالحكم وهو شاك أو جاهل فلم تكن افادة أنه عالم بالحكم لازمة لافادة نفس الحكم . والجواب أن المراد باللزوم اللزوم فى الجملة أى أن ذلك اللزوم بالنظر للغالب .

والمراد بالعلم هنا المعنى المصطلح عليه عند المناطقة ، وهو الصورة الحاصلة فى الذهن وافقت الواقع أولا ، وسواء كانت معتقدة للمتكلم اعتقادا جازما أو غير جازم ، لا الاعتقاد الجازم المطابق للواقع كما عليه المتكلمون .

(٤) هذا تفسير الفائدة بالحكم الذى يقصد بالخبر افادته ولازم الفائدة يكون المخبر عالما بالحكم وراى الجمهور ومنهم السكاكى كما ترى فى المفتاح ... وزعم العلامة الشيرازى أن فائدة الخبر هى استفادة السامع من الخبر أن المخبر عالم بالحكم ، وهو خلاف التحقيق .

« والأولى بدون هـذه تمتنع ، وهـذه بدون الأولى لا تمتنع ، كما هو حكم اللازم المجهول المساواة[1] » .

أى يمتنع أن لا يحصل العلم الثانى من آخبر نفسه عند حصول الأول منه[2] ، لامتناع حصول الثانى قبل حصول الأول ، مع أن سماع الخبر من المخبر كاف فى حصول الثانى منه .

ولا يمتنع أن لا يحصل الأول[3] من الخبر نفسه عند سماع الثانى منـه ، لجواز حصـول الأول قبل حصـول الثانى وامتناع حصـول الحاصـل .

---

(١) وهو اللازم الأعم مثل لزوم الحيوانية للانسانية فلا يلزم من العلم بالحيوانية العلم بالانسـانية .

(٢) للزوم حصول لازم فائدة الخبر كلما حصلت الفائدة ؛ فالعلم الثانى وهو علم المخاطب بأن المخبر عالم بهذا الحكم من الخبر نفسه يوجد عند حصول العلم الأول وهو علمه بذلك الحكم من الخبر نفسه ، اذ لو لم يحصل العلم الثانى عند حصول الأول فاما لأنه قد حصل قبل وأما لأنه لم يحصل بعد : أما الأول ـ حصول العلم الثانى قبل الأول ـ فباطل لان العلم يكون المخبر عالمـا بالحكم لابد فيه من أن يكون هذا الحكم حاصلا فى ذهنـه ضرورة ، والثانى باطـل لأن علة حصـوله سماع الخبر من المخبر ، اذ التقدير ان حصوله انما هو نفس الخبر ، فنبه الخطيب على الأول بقوله : « لامتناع حصول الثانى قبل حصول الأول » ، ونبه على الثانى ، لجواز حصول الأول قبل حصول الثانى فلا يمكن حصوله لامتناع فان قيل لا نسلم انه كلما افاد الخبر افاد انه عالم به ، لجواز أن يكون خبره مظنونا أو مشكوكا أو موهوما أو كذبا محضـا ؛ فالجواب انه ليس المراد بالعلم هنا الاعتقاد الجازم المطابق بل حصول صورة هـذا الحكم فى ذهنه وهذا ضرورى فى كل عاقل تصدى للاخبار .

(٣) أى يمتنع حصول العلم الأول من الخبر نفسه عند حصول العلم الثانى ، لجواز حصول الأول قبل الثانى فلا يمكن حصـوله لامتنـاع حصول الحاصل ، كالعلم بكونه حافظـا للقرآن فى قولك : أنت حفظت القرآن ، وحينئذ تسـمية هذا الحكم فائدة الخبر على أن من شـأنه أن يستفاد من الخبر .

وقد ينزل العـالم[١] بفائدة الخبر ولازم فائدته منزلة الجـاهل لعدم جريه على موجب العلم ، فيلقى اليه الخبر كما يلقى الى الجاهل بأحدهما .. قال السكاكى :

وان شئت فعليك بكلام رب العزة : « ولقد علموا لمن اشتراه ماله فى الآخرة من خلاق ، ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون[٢] » ، كيف تجد صدره يصف أهل الكتاب بالعلم على سبيل التوكيد القسمى ، وآخره ينفيه عنهم حيث لم يعملوا بعلمهم . ونظيره فى النفى والاثبات « وما رميت اذ رميت »[٣] ، وقوله تعالى : « وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم ، وطعنوا فى دينكم ، فقاتلوا أئمة الكفر انهم لا أيمان لهم لعلهم ينتهون » .

هذا لفظه[٤] .. وفيه ايهام أن الآية الأولى من أمثلة تنزيل العالم بفائدة الخبر ولازم فائدته منزلة الجاهل بهما ، وليست منها ، بل هى من أمثلة تنزيل العالم بالشىء منزلة الجاهل به لعدم جريه على موجب العلم ، والفرق بينهما ظاهر .

---

(١) أى المخاطب العالم بالفائدة ولازمها معا ، وكذلك العالم بأحدهما (الفائدة أو اللازم) فقط . وذلك لعدم جريه على مقتضى علمه ، فان من لا يجرى على مقتضى العلم هو والجاهل سواء ، كما يقال للعالم التارك الصلاة الصلاة واجبة ، وقولك لمن يسألك : ماذا أمامك ؟ وهو يعلم أنـه كتاب : أمامى كتاب .

(٢) اللام فى لقد موطئة للقسم ، أى واقعة فى جواب قسم محذوف ، واللام فى « لمن » ابتدائية ، وجملة « لمن اشتراه الخ » سـدت مسد مفعولى علموا لتعليقه بلام الابتداء ، ومحل الشاهد قوله « لو كانـوا يعلمون » ، وقد اثبت ذلك العلم لهم فى صدر الآية .. هذا وتنزيل العالم بالشىء منزلة الجاهل به لاعتبارات بلاغية كثيرة فى الكلام .

(٣) الآية من تنزيل وجود الشىء منزلة عدمه — وقوله فى « النفى والاثبات » أى فى نفى شىء واثباته .

(٤) أى نص كلام السكاكى .

واذا كان غرض المخبر بخبره افادة المخاطب أحد الأمرين ، فينبغى أن يقتصر من التركيب على قدر الحاجة :

١ ــ فان كان المخاطب خالى الذهن من الحكم[١] ــ بأحد طرفى الخبر على الآخر ــ والتردد فيه استغنى عن مؤكدات الحكم كقولك : جاء زيد ، وعمرو ذاهب ، فيتمكن فى ذهنه ، لمصادفته اياه خاليا .

٢ ــ وان كان متصورا لطرفيه[٢] ، مترددا فى اسناد أحدهما الى الآخر ، طالبا له ، حسن تقويته بمؤكد[٣] ، كقولك لزيد عارف أو أن زيدا عارف .

---

(١) المراد بالحكم كما سبق الاعتقاد ولو غير جازم : وخلو الذهن من لازم الحكم مثل خلوه من الحكم فى ترك التأكيد . والضمير فى قوله : « والتردد فيه » للحكم بمعنى وقوع النسبة أو لا وقوعها ؛ ففى الكلام استخدام ، لأن ، التردد ليس فى الحكم بمعنى التصديق .. والمراد أن المخاطب ليس عالما بوقوع النسبة أو لا وقوعها وليس مترددا فى أن النسبة هل هى واقعة أو لا .

(٢) أى طرفى الحكم وهما المسند والمسند اليه .

(٣) أى باداة تأكيد واحدة ، ليزيل ذلك المؤكد تردده ويتمكن الحكم فى نفسه .

هذا والمراد بالخالى من يخلو ذهنه عن التصديق بالنسبة الحكمية فيما بين طرفى الجملة الخبرية وعن تصور تلك النسبة .. والمراد بالمتردد من تصور تلك النسبة الحكمية ولم يصدق بشىء من وقوعها وعدم وقوعها .. وبالمنكر من صدق بما ينافى مضمون الجملة الملقاة اليه .

واعتبار هذه الاحوال فى المخاطب وايراد الكلام على الوجوه المذكورة بالقياس الى فائدة الخبر أعنى الحكم ظاهر ، وأما بالقياس الى لازمها فيمكن اعتبار الخلو وتجرد الجملة عن المؤكد ، وأما اعتبار التردد والانكار على الوجه المذكور فلا يجرى فى اللازم .

٣ ــ وان كان حاكما بخلافه وجب توكيده[١] بحسب الانكار[٢] ، فتقول : « انى صــادق » لمن ينكر صـــدقك ولا يبــالغ فى انكاره ، و « انى لصادق » لمن يبالغ فى انكاره . وعليه قوله تعالى « ضرب لهم مثــلا أصـــحاب القرية اذ جاءها المرسـلون ، اذ أرسـلنا اليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث فقـالوا انا اليكم مرسـلون ، قالوا ما أنتم الا بشر مثلنـا ، وما أنزل الرحمن من شىء ، ان أنتم الا تكذبون ، قالوا ربنا يعلم انا اليكم لمرسـلون » .

=

ومؤكدات الحكم هى : ان والقســم ونونا التوكيــد ولام الابتــداء واسمية الجمــلة وتكريرها ولو حكمـا واما الشرطية وحــروف التنبيه وحروف الزيادة وضمير الفصل وتقديم الفاعل المعنوى لتقوية الحكم ، ومنها السين اذا دخلت على فعــل محبوب أو مكروه لأنها تفيــد الوعــد أو الوعيد وهذا مقتضى لتوكيد الحكم ، وقد التى للتحقيق ، وكان ولكن وانما وليت ولعل وتكرير النفى ، وبعضهم عد أن المفتوحة ، وقيل : ليست منها لأن ما بعدها فى حكم المفرد .

والفرق بين التاكيد الواجب والمستحسن مع ان المستحسن عنــد البلغاء واجب هو أن ترك المستحسن يلام عليه لوما أخف من اللوم على ترك الواجب .

وقال عبد القاهر فى دلائل الاعجاز ص ٢٤٩ : « أكثر مواقع ان بحكم الاستقراء هو الجواب » ، لكن « يشترط فيه أن يكون للسائل ظن على خلاف ما انت تجيبه به ، فاما أن يجعل مجرد الجــواب أصلا فيها فلا ، لأنه يؤدى الى أن لا يستقيم لنا أن نقول : « صـــالح » فى جواب كيف زيد ؟ و « فى الدار » فى جواب : « أين زيد ؟ » حتى نقول : انه صالح ، وانه فى الدار ، وهذا مما لا قائل به » ، فهو يرى أنه انما يحسن التأكيد اذا كان للمخاطب ظن على خلاف حكمك أى تأكيد الحكم بمؤكد فاكثر وقيل بأكثر من مؤكد فرقا بينه وبين التوكيد المستحسن .

(٢) أى بقــدره قــوة وضعفا ، يعنى يجب زيــادة التأكيد بحسب ازدياد الانكار .

حيث قال فى المرة الأولى : انا اليكم مرسلون ، وفى الثانية : انا اليكم لمرسلون[1] .

* * *

ويؤيد ما ذكرناه جواب أبى العباس[2] للكندى عن قوله : انى أجد فى كلام العرب حشوا ، يقولون : عبد الله قائم ، وان عبد الله قائم ، وان عبد الله لقائم ، والمعنى واحد .. بأن قال ، بل المعانى مختلفة ، « فعبد الله قائم » اخبار عن قيامه ، و « ان عبد الله قائم » جواب عن سؤال سائل ، وان عبد الله لقائم جواب عن انكار منكر .

* * *

ويسمى النوع الأول من الخبر ابتدائيا[3] ، والثانى طلبيا ، والثالث انكاريا ، واخراج الكلام على هذه الوجوه[4] اخراجا على مقتضى الظاهر[5] .

---

(١) فأكد فى الأول بان واسمية الجملة ، وفى الثانية بالقسم وان واللام واسمية الجملة لمبالغة المخاطبين فى الانكار حيث قالوا : « ما أنتم الا بشر مثلنا وما أنزل الرحمن من شىء ان أنتم الا تكذبون » .

(٢) أبو العباس هو محمد بن المبرد يزيد المبرد الامام فى اللغة والنحو وصاحب الكامل توفى عام ٢٨٥ هـ . والكندى أبو يوسف يعقوب بن اسحاق فيلسوف العرب المشهور المتوفى نحو سنة ٢٥٣ هـ . وتجد الرواية كاملة فى دلائل الاعجاز ص ٢٤٢ وفى المفتاح أيضا ص ٧٤ .

(٣) أى غير مسبوق بطلب ولا بانكار .

(٤) وهى الخلو عن التأكيد فى الأول والتقوية بمؤكد استحسانا فى الثانى ووجوب التأكيد بحسب الانكار فى الثالث .

(٥) أى مقتضى ظاهر الحال وهو أخص مطلقا من مقتضى الحال ، فكل مقتضى الظاهر مقتضى الحال ، ولا عكس ، كما فى صور اخراج الكلام =

وكثيرا ما يخرج على خلافه[1] :

١ ـ فينزل غير السائل منزلة السائل ، اذ قدم اليه ما يلوح له بحكم الخبر ، فيستشرق له استشراق المتردد الطالب[2] كقوله تعالى :

على خلاف مقتضى الظاهر . فانه يكون على مقتضى الحال ولا يكون على مقتضى الظاهر ... هذا والحال هو الأمر الداعي الى ايراد الكلام مكيفا بكيفية مخصوصة سواء كان ذلك الأمر الداعي ثابتا في الواقع أو كان ثبوته بالنظر لما عند المتكلم كصور التنزيل ، أما ظاهر الحال فهو الأمر الداعي الى ايراد الكلام مكيفا بكيفية مخصوصة بشرط أن يكون ذلك الأمر الداعي ثابتا في الواقع فلذا كان أخص من الحال مطلقا . ثم ان تلك الكيفية هي مقتضى الحال أو لظاهره . كل كيفية اقتضاها ظاهر الحال اقتضاها الحال دون عكس ، فعموم المقتضى يقتضي عمر المقتضى .

(١) أي على خلاف مقتضى الظاهر . هذا وذكر بعضهم أن صور التخريج من باب الكناية ، لأنه ذكر اللازم ـ وهو مدلول الكلام المشتمل على الخصوصية وهو المقام الذي لا يناسبه بحسب الظاهر مع قرينة غير مانعة من ارادته ـ واستعمل اللفظ فيه وقصد منه ملزومه الذي هو تنزيل المقام الغير المناسب منزلة المناسب . وقيل انه من قبيل الاستعارة المكنية ... والحق أنه لا يقال فيه شيء من ذلك ، لأن الكلام هنا لم يوضع لهذه المعاني لأنها معان عرضية .

هذا والصور هي :

١ ـ الخالي :ـ السائل ـ المنكر : بالنسبة لحال كل منهم .
٢ ـ العالم ينزل منزلة الخالي أو السائل أو المنكر .
٣ ـ الخالي ينزل منزلة السائل أو المنكر .
٤ ـ السائل ينزل منزلة الخالي أو المنكر .
٥ ـ المنكر ينزل منزلة الخالي أو السائل .

فحال المخاطب بالخبر منحصر في العلم بالحكم والخلو منه والسؤال له والانكار له . والعالم لا يخرج معه الكلام على مقتضى الظاهر .

(٢) يلوح : يتسير . استشرف فلان الى الشيء اذا رفع راسه لينظر اليه وبسط كفه فوق الحاجب كالمستظل من الشمس .. هذا والنكتة في التنزيل الذي ذكرها الخطيب هي أنه قد قدم للمخاطب غير

« ولا تخاطبني في الذين ظلموا انهم مغرقون »[1] ، وقوله : « وما أبرىء نفسي ان النفس لأمارة بالسوء » ، وقول بعض العرب :

فغنهـا وهى لك الفـداء ان غنـاء الابل الحداء[2]

وسلوك هذه الطريقة شـعبة من البلاغة فيها دقة وغموض .

روى عن الأصمعى[3] أنه قال :

كان أبو عمرو بن العلاء[4] وخلف الأحمر[5] يأتيـان بشارا[6] ، فيسلمان عليه بغاية الاعظـام ، ثم يقـولان : يا أبا معـاذ ما أحدثت ؟ فيخبرهما وينشدهما ويكتبان عنه متواضعين له حتى يأتى وقت الزوال ثم ينصرفان ، فأتياه يوما فقالا : ما هذه القصـيدة التى أحدثتها فى

=
السائل ما يلوح له بالخبر فيتطلع له تطلع السائل المتردد . وقد يكون تنزيل غير السائل لأغراض أخرى ، كالاهتمام بشأن الخبر لكونه مستبعدا والتنبيه على غفلة السامع الى غير ذلك .

(١) أى لا تدعنى يا نوح فى شـأن قومك واسـتدفاع العذاب عنهم بشفاعتك فهـذا كلام يلوح بالخبر تلويحا ما ، ويشـعر بأنه قد حق عليهم العذاب ، فصار المقام مقام أن يتردد المخاطب فى أنهم هل صـاروا محكوما عليهم بالاغراق أم لا . فقيل « أنهم مغرقون » مؤكدا ، أى محكوما عليهم بالاغراق .

(٢) الضمير فى « فتغنها » للابل والحداء من حدا الابل أو بها : ساقها وغنى لها .

(٣) عبد الملك بن قريب الامام فى اللغة والادب ، توفى عام ٢١٤ هـ ، ونجد الرواية فى الأغانى ص ٤٣ جـ ٣ ، وفى الدلائل ص ٢١٠ وفى المفتـاح ص ٧٥ .

(٤) وفى الأغانى : خلف بن أبى عمرو بن العلاء . وابو عمرو من أئمة اللغة توفى عام ١٥٤ هـ وخلف ابنه توفى فى أواخر القرن الثانى الهجرى .

(٥) من أئمة اللغـة والشعر والأدب توفى عام ١٨٠ هـ .

(٦) أبو معاذ امام الشعراء المحدثين توفى عام ١٦٧ هـ .

ابن قتيبة (١) ؟ قال : هى التى بلغتكما ، قالا : بلغنا أنك أكثرت فيها من الغريب قال ، : نعم ان ابن قتيبة يتباصر بالغريب فأجبت أن أورد عليه ما لا يعرف ، قالا : فأنشدناها يا أبا معاذ فأنشدهما :

بكرا صاحبى قبل الهجير ان ذاك النجاح فى التبكير

حتى فرغ منها ، فقال له خلف : لو قلت يا أبا معاذ مكان « ان ذاك النجاح » : بكرا فالنجاح ، كان أحسن ، فقال بشار : انما بنيتها أعرابية وحشية فقلت « ان ذاك النجاح » كما يقول الأعراب البدويون ، ولو قلت (بكرا فالنجاح) كان هذا من كلام المولدين ، ولا يشبه ذلك الكلام ولا يدخل فى معنى القصيدة ، قال : فقام خلف فقبل بين عينيه .

فهل كان ما جرى بين خلف وبشار بمحضر من أبى عمرو بن العلاء — وهم من فحولة هذا الفن — الا للطف المعنى فى ذلك وخفائه ؟

٢ — وكذلك ينزل غير المنكر منزلة المنكر اذا ظهر عليه شىء من أمارات الانكار (٢) . كقوله (٣) :

---

(١) قائد من كبار القواد المشهورين فى بدء عهد الدولة العباسية .

(٢) وغير المنكر يشمل الخالى والسائل والعالم وان كان المثال من تنزيل العالم منزلة المنكر .

(٣) البيت لحجل بن نضلة . شقيق : اسم رجل . عارضا رمحه أى واضعا له على العرض بأن جعله وهو راكب على فخذيه ... فهو لا ينكر أن فى بنى عمه رماحا لكن مجيئه هكذا واضعا الرمح على العرض من غير التفات وتهيؤ أمارة على أنه يعتقد أنه لا رماح فيهم بل كلهم عزل لا سلاح معهم فنزله منزلة المنكر فأكد له الكلام فقال : « ان بنى عمك فيهم رماح » . وفى البيت تهكم واستهزاء كأنه يرميه بالضعف والجبن وبأنه لو علم أن فيهم رماحا لما حملت يده السلاح ولفر من خوف الكفاح . فهو على طريقة قوله :

فقلت لمحرز لما التقينا تنكب لا يقطرك الزحام

جــاء شقيق عارضا رمحه   ان بنى عمــك فيهم رماح

فان مجيئه هكذا مدلا بشجاعته قد وضع رمحه عرضا لدليل على اعجاب شديد منه ، واعتقاد أنه لا يقوم اليه من بنى عمه أحد . كأنهم كلهم عزل ليس مع أحد منهم رمح .

٣ ــ وكذلك ينزل المنكر[١] منزلة غير المنكر اذا كان معه ما ان تأمله ارتدع عن الانكار ، كما يقال لمنكر الاسلام : الاسلام حق[٢] . وعليه قوله تعالى فى حق القرآن « لا ريب فيه[٣] » .

=

والتقطير : الالقاء على الأرض على البطن أو على أحــد الجانبين .. برميه بأنه لم يباشر الشدائد ولم يدفع الى مضايق الحروب ، كأنه يخاف عليه ان يداس بالقوائم كما يخاف على الصبيان والنساء لقلة غنائه .

(١) ومثله المتردد . وغير المنكر هنا وان صدق بخالى الذهن والعالم بالحكم والمتردد فيه الا أن المراد منه خصوص الأول . وقوله ما ان تأمله أى شىء من الدلائل والشواهد بحيث لو تأمل المنكر ذلك الشىء ارتدع عن انكاره ، ومعنى كونه معه . ان يكون معلوما له ومشــاهدا عنده كالاسلام حق لمنكر ذلك ، لأن مع ذلك المنكر دلائل دالة على حقيقة الاسلام .

(٢) اسمية الجملة هنا ليست مؤكدا لأنهــا انما تكون مؤكدا اذا اعتبر تحويلها عن الفعلية أو اذا انضمت لغيرها من المؤكــدات أو أن اسمية الجملة ليست مؤكدة الا اذا ناسب ذلك المقام .

(٣) ظاهر هذا الكلام انه مثال لجعل المنكر كغيره وترك التأكيد لذلك، وبيانه أن معنى «لا ريب فيه» ليس القرآن بمظنة للريب ولا ينبغى أن يرتاب فيه ، وهذا الحكم مما ينكره كثير من المخاطبين ، لكن نزل انكارهم منزلة عدمه أو على الأصح نزل المنكر منزلة غير المنكر ، لمــا معه من الدلائل الدالة على أنه ليس مما ينبغى أن يرتاب فيه ، من ظهور اعجازه وكون من اتى به صادقا مصدوقا بالمعجزات . والأحسن أن يقال أنه تنظير لتنزيل وجود الشىء منزلة عدمه ــ لا مثال للجعــل ــ وذلك بناء على وجــود ما يزيله ، فانه نزل ريب المرتابين منزلة عدمه تعويلا على وجود ما يزيله، حتى صح نفى الريب على سبيل الاستغراق المفهوم من وقوع النكرة فى سـياق النفى المفيد للعموم الشمولى ، فالمنفى هنا هو نفس الريب على =

ومما يتفرع على هذين الاعتبارين قوله تعالى : « ثم انكم بعد ذلك لميتون ثم انكم يوم القيامة تبعثون » . أكد اثبات الموت تأكيدين وان كان مما لا ينكر لتنزيل الخاطبين منزلة من يبالغ فى انكار الموت لتماديهم فى الغفلة والاعراض عن العمل لما بعده ، ولهذا قيل « ميتون » دون « تموتون » كما سيأتى الفرق بينهما[1] . وأكد اثبات البعث تأكيدا واحدا وان كان مما ينكر الأنه لما كانت أدلته ظاهرة كان جديرا بأن لا ينكر ، بل اما أن يعترف به أو يتردد فيه ، فينزل المخاطبون منزلة المترددين ، تنبيها لهم على ظهور أدلته ، وحثا لهم على النظر فيها ، ولهذا جاء تبعثون على الأصل .

* * *

هذا كله اعتبارات الاثبات وقس عليه اعتبارات النفى[2] ، كقولك : ليس زيد أو ما زيد منطلقا أو بمنطلق ، ووالله ليس زيد

=

سبيل الاستغراق . وفى الأول ليس المنفى الريب بل كون القرآن مظنة له خطابا لمنكرى ذلك . وهذا الوجه احسن لأنه لا يحتاج الى التأويل الذى فى الوجه الأول وما لا يحتاج الى التأويل أولى مما يحتاج لتأويل .

(١) من أن الجملة الاسمية لافادة الثبوت والدوام ، والفعلية لافادة التجدد والحدوث .

(٢) اى امثلة الاعتبارات الواقعة فى الاسناد فى الكلام المنفى من التجريد عن المؤكدات فى الابتدائى وتقويته بمؤكد استحسانا فى الطلبى ووجود التأكيد بحسب الانكار فى الانكارى . وقد ينزل غير المنكر منزلة المنكر فيؤكد معه النفى ، وينزل المنكر كغيره فيلقى اليه الكلام خلوا من التأكيد الخ .

خاتمة فى أغراض الخبر :

١ ــ افادة المخاطب الحكم (فائدة الخبر) .

٢ ــ افادة المخاطب أن المخبر عالم بالحكم (لازم الفائدة) =

أو ما زيد منطلقا أو بمنطلق . وما ينطلق أو ما ان ينطلق زيد ، وما كان زيد ينطلق ، وما كان زيد لينطلق ، ولا ينطلق زيد ، ولن ينطلق زيد ، ووالله ما ينطلق أو ما ان ينطلق زيد .

* * *

= ٣ ـ الفخر والتمدح كقول المتنبى :

أنا الذى نظر الأعمى الى أدبى وأسمعت كلماتى من به صمم

٤ ـ اظهار الفرح كقول الشاعر :

بشرى فقد أنجز الاقبال ما وعدا

٥ ـ التنبيه والحث كقول الشاعر :

من راقب الناس مات غما وفاز باللذة الجسور

٦ ـ الارشاد والوعظ كقول لبيد :

ألا كل شيء ما خلا الله باطل وكل نعيم لا محالة زائل

٧ ـ اظهار الضعف : « انى وهن العظم منى » .

٨ ـ التحسر على الفائت كقول الشاعر :

ذهب الصبا وتولت الأيام

٩ ـ التحذير كقولك : « مصير البخيل الهم والاملاق » .

١٠ ـ التذكير بالتفاوت :

وما يستوى من عاش المجد سعيه ومن عاش فى دنياه عيش البهائم

١١ ـ الاستعطاف :

فان اك مظلما معد ظلمته وان تك ذا عتبى فمثلك يعتب

١٢ ـ التوبيخ :

ذل من يغبط الذليل بعيش رب عيش اخف منه الحمام

شواهد لمعرفة أغراض الخبر فيها ومقاصده :

قال ابراهيم بن المهدى :

اتيت جرما شنيعا وانت للعفو أهل

=

* * * * * * * * * * * *

= وقال أبو فراس :

ومكارمى عـدد النجـوم ومنزلى مأوى الكرام وموئل الأضـياف

ولمروان بن أبى حفصـة يرثى معن بن زائدة :

مضى لسـبيله معـن وأبقى مكارم لن تبيـد ولن تنـالا

وقال أبو نواس :

ذهبت جـدتى بطـاعة نفسى وتذكرت طـاعة الله نضـوا

المتنبى :

انى أصـاحب حلمى وهو بن كرم ولا أصـاحب حلمى وهو بى جبن

وقـال :

اقمت بأرض مصر فلا ورائى تخب بى الركاب ولا أمامى

وقال الشاعر :

قومى هم قتلوا ــ أميم ــ اخى فاذا رميت يصـيبنى سـهمى

وقال الشاعر :

ذهب الشباب فما له من عودة وأتى المشيب فأين عنـه المهرب ؟

وقـال :

ظمئت وفى فمى الأدب المصفى وضعت وفى يدى الكنز الثمين

وقال المتنبى :

ذل من يغبط الذليـل بعيش رب عيش أخف منه الحمـام

شواهد على أضرب الخبر وأدوات التأكيد :

قال أبو الطيب :

على قدر أهل العزم تأتى العزائم وتأتى على قـدر الكرام المكارم

وقال النـابغة :

ولسـت بمسـتبق أخـا لا تلمـه على شعث،اى الرجال المهذب؟! =

. . . .

= وقال أبو العتاهية :

انى رأيت عـواقب الدنيـــا فتركت ما أهـوى لمـا اخشى

أبو نواس :

ولقـد نهزت مـع الغـواة بدلوهم واسمت سرح اللحظ حيث اساموا
وبلغت ما بلغ آمرؤ بشـبابه فاذا عصـارة كل ذاك اثام

المعـــرى :

ان الذى آلوحشـــة فى داره تؤنســـه الرحمـة فى لحـده

شــــاعر :

وليس اخى من ودنى رأى عينـــه ولكن أخى من ودنى وهــو غائب

شواهد لخروج الخبر عن مقتضى الظاهر :

قال تعالى : وصل عليهم أن صلاتك سكن لهم . وقال : قلْ هو الله أحد ، آلله الصمد .. وقال أبو العتاهيـــة :

ان الشـــباب والفراغ والجدة مفســــدة للمرء اى مفســـدة

وقال أبو الطيب :

ترفــــق أيهــا المولى عليهــمْ فان الرفــق بالجـــانى عتاب

وتقول لمن ينكر فائدة التعليم : التعليم ينهض بالأمة ويرقى بالشعب .
=

● **الحقيقة العقلية والمجاز العقلى :**

فصـــــل

● **قال الخطيب :**

الاسناد : منه حقيقة عقلية ، ومنه مجاز عقلى •

أما الحقيقة فهى اسناد[1] الفعل أو معنـاه الى ما هـو له عنـد المتكلم فى الظاهر •

---

(١) معناه أى معنى الفعل يشمل المصـدر واسمى الفاعل والمفعول والصفة المشبهة واسم التفضيل والظرف . وأمثلة المبالغة تدخل فى اسم الفاعل ، والجار والمجرور يدخل فى الظرف . ويدخل اسم الفعل والمنسوب اليه نحو أتميمى أبوك ؟ .

وقولنا « الى ما هو له » أى الى لفظ يكون الفعل أو ما فى معناه له . اى لمعنى ذلك اللفظ : أى مدلول الفعل ومدلول اللفظ الدال عليه معنى الفعل ثابت لمدلول ذلك اللفظ .

معنى ذلك أن الحقيقة هى اسناد لفظ أى لفظ دل على معنى الفعل الى لفظ له ، فاذا قلنـا « ضرب زيد » فقد أسندنا الى الفاعل لفظ الفعل وهو ضرب الدال على المعنى الذى هو وصف الفاعل فيكون حقيقة ، وكذا اذا قلنـا « ضرب عمرو » فقد أسندنا الى المفعول وهو « عمرو » لفظ الفعل الذى هو « ضرب » الدال على وصف المفعول فيكون حقيقة . فالشىء المسند اليه الذى ثبت له الفعل أو معنـاه منحصر فى الفاعل فيما بنى للفاعل ، والمفعول به فى فعل بنى للمفعول ، فان الضاربية لزيد ثابتة له والمضروبية ثابتة لعمرو ، بخلاف « نهاره صائم » فان الصوم ليس ثابتـا للنهار بل للشخص ، فلذا كان الاسناد فيه مجازا بكونه لغير من هو له .

ولا يدخل هنا المبتدأ عند المصنف ، نحو انما هى اقبال ، لأن الاسناد اليه عنده واسطة بين الحقيقة والمجاز ، اما عند عبد القاهر والسكاكى =

والمراد بمعنى الفعل نحو المصدر واسم الفاعل • وقولنا « فى الظاهر » ليشمل ما لا يطابق اعتقاده مما يطابق الواقع وما لا يطابقه •

فهى أربعة أضرب :

أحدهما ما يطابق الواقع واعتقاده ، كقول المؤمن : « أنبت الله البقل » و « شفى الله المريض » •

والثانى ما يطابق الواقع دون اعتقاده ، كقول المعتزلى لمن لا يعرف حاله وهو يخفيها منه : « خالق الأفعال كلها هو الله تعالى » •

= فالمبتدأ كالفاعل والمفعول فيما أسند اليه ، فالاسناد فى « زيد قائم » ليس حقيقة ولا مجازا عند الخطيب ، وكذلك فيما كان الخبر فيه جامدا مثل « هذا معدن » ، وأما اسناد « قائم » الى ضمير زيد فهو حقيقة .

ثم المراد بكون المسند للمسند اليه كونه وصفا له وحقه أن ينسب اليه بالاتصاف . فمتى كونه له أن معناه قائم به وهو متصف به ومنتسب اليه. وقوله الى ما هو له يشمل ما هو له فى الواقع والاعتقاد معا أو فى الواقع فقط. وقوله « عند المتكلم » أى لما هو له عند المتكلم لا فى الواقع ونفس الأمر .. وبهذا دخل فى تعريف الحقيقة : ما طابق الاعتقاد دون الواقع كقول الجاهل « أنبت الربيع البقل » .

وقوله فى « الظاهر » وعند المتكلم متعلقان بقوله « له » . وفى الظاهر — اى فى ظاهر حال المتكلم — يدخل ما لا يطابق الاعتقاد سواء طابق الواقع أم لا.

وبهذا صار التعريف متناولا لأربعة اقسام : ما يطابق الواقع والاعتقاد، وما لا يطابق شيئا منهما ، وما طابق الواقع دون الاعتقاد ، وما طابق الاعتقاد دون الواقع .. ولم يخرج عن التعريف الا ما فيه اسناد لغير ما هو له عند المتكلم بحسب الظاهر . فالحقيقة العقلية اربعة اقسام كما ترى وكما سيذكر الخطيب ... والمعنى أن الحقيقة هى اسناد الفعل او معناه الى ما يكون هو له عند المتكلم فيما يفهم من ظاهر حاله ، وذلك الفهم بألا ينصب قرينة دالة على انه غير ما هو له فى اعتقاده .

والثالث ما يطابق اعتقاده دون الواقع ، كقـول الجاهل : « شفى الطبيب المريض » معتقدا شفاء المريض من الطبيب ، ومنـه قوله تعالى حكاية عن بعض الكفار : « وما يهلكنا إلا الدهر » • ولا يجوز أن يكون مجازا • والانكار عليهم من جهة ظاهر اللفظ لما فيه من ايهام الخطأ ، بدليل قوله تعالى عقيبه : « وما لهم بذلك من علم ان هم الا يظنون » ، والمتجوز المخطىء في العبارة لا يوصف بالظن ، وانما الظان من يعتقد أن الأمر على ما قاله •

والرابع ما لا يطابق شيئا منهما ، كالأقوال الكاذبة التى يكون القائل عالما بحالها دون المخاطب •

وأما المجاز[1] فهو اسناد الفعل أو معناه الى ملابس[2] لـه غير

---

(١) المجاز أصله مجوز من جاز المكان تعداه لأن الاسناد تعدى مكانه الأصلى ... وعقلى نسبة العقل ، لأن التجوز والتصرف فيه فى أمر معقول يدرك بالعقل وهو الاسناد ، بخلاف المجاز اللغوى فان التصرف فيه فى أمر نقلى ، وهو أن اللفظ لم يوضع لهذا المعنى ...

ويسمى مجازا حكميا أى منسوبا للحكم بمعنى الادراك ، أو أنه نسبة الحكم بمعنى النسبة والاسناد لتعلقه بها . والمراد بالحكم المنسوب اليه المتعلق به مطلق نسبة سواء كانت اسنادية أو اضافية أو ايقاعية ، وحينئذ فهو من نسبة الخاص للعام أو من تعلق الخاص بالعام ، فالمجاز كما يكون فى الحكم وهو النسبة التامة ، يكون فى النسبة الاضافية كمكر الليل ، والايقاعية كنومت الليل أى أوقعت النوم عليه ... فالمراد بالحكم الذى تعلق به المجاز ليس خصوص النسبة التامة ، بل مطلق نسبة . فالمجاز اذا كان فى الاضافية أو الايقاعية يصدق عليه أنه متعلق بالحكم بمعنى مطلق نسبة من تعلق الخاص بالعام .

ويسمى أيضا مجازا فى الاثبات لحصوله فى اثبات أحد الطرفين للآخر ، والتقييد بالاثبات لاشرفيته ، فمثل « فما ربحت تجارتهم » : جعل من قبيل المجاز لكون اسناد الربح الى التجارة اسنادا الى غير ما هو له ، أو أن ما ربحت تجارتهم بمعنى خسرت ، فالمجاز العقلى كما يكون فى الاسناد المثبت =

* * * * * * * * * * * *

يكون فى المنهى أيضا . ويسمى أيضا اسناد مجازيا نسبة الى المجاز بمعنى المصدر . لأن الاسناد جاوز به المتكلم حقيقته وأصله الى غير ذلك .
فان قيل : المجاز العقلى لا يختص بالاسناد أى النسب التامة ، بل يجرى فى الاضافية والايقاعية . واقتصارهم على الاسناد يوجب الاختصاص ،
أجيب بأن اقتصارهم فى التسمية على الاسناد لاشرفيته أو أن المراد بالاسناد مطلق النسبة من اطلاق الخاص وارادة العام .

(٢) أى الى شىء بينه وبين الفعل أو معناه ملابسة وارتباط وتعلق . فالضمير فى قوله « له » راجع « للفعل أو معناه » ـ « وغير ما هو له » أى غير الملابس الذى هو أى الفعل أو معناه له أى لذلك الملابس ، يعنى غير الفاعل الحقيقى فى المبنى الفاعل . وغير المفعول به فى المبنى للمفعول به .

وفى تعريف المجاز العقلى اشارة الى أنه لا بد فيه من علاقة (ويدل على ذلك قولنا الى ملابس له) وقرينة (ويدل عليها قولنا بتأويل) .
وقصارى القول : أن المجاز العقلى هو « اسناد الفعل أو معناه الى غير ما هو له عند المتكلم فى الظاهر لعلاقة مع قرينة صارفة عن أن يكون الاسناد الى ما هو له » .

علاقة المجاز العقلى :

المجاز العقلى لابد له من علاقة كما أن اللغوى كذلك . وظاهر كلام المصنف أن العلاقة المعتبرة هنا هى الملابسة فقط ، وانه لا بد منها فى كل مجاز عقلى ، قال الشيخ يسن : لكن يبقى هناك شىء ، وهو أنه هل يكفى فى جميع افراد هذا المجاز كون العلاقة الملابسة ، أو لا بد أن تبين جهتها ، بأن يقال العلاقة هى ملابسة الفعل لذلك الفاعل المجازى من جهة وقوعه عليه أو فيه أو به ، كما قالوا فى المجاز اللغوى : انه لا يكفى أن يجعل اللزوم أو التعلق هو العلاقة بل فرد منها ، لأن ذلك قدر مشترك بين جميع أفراده ، فلا بد أن يبين أنه من أى وجه ! ؟
والمعتبر عند الزمخشرى تلبس ما أسند اليه الفعل بفاعله الحقيقى ، لأنه قال : المجاز العقلى هو أن يسند الفعل الى شىء يتلبس بالذى هو فى الحقيقة له ، كتلبس التجارة بالمشترين فى « فما ربحت تجارتهم » .. وقال الزمخشرى قبل هذا الكلام : « وقد يسند الى هذه الأشياء على طريق المجاز

المسمى استعارة ، وذلك لمضاهاتها الفاعل فى ملابسة الفعل ، كما يضاهى الرجل الأسد فى جرأته فيستعار له اسمه ... وهذا هو رأى السكاكى أيضا . فالملابسة فى المجاز العقلى عنده هى بين الفاعل الحقيقى والفاعل المجازى . وفى كلام عبد القاهر اشارة الى ذلك أيضا (٣٣١ أسرار) ، فالربيع عنده قد شبه بالقادر فى تعلق وجود الانبات به ، فذلك عنده على العرف الجارى بين الناس ، من أن يجعلوا الشىء اذا كان سببا أو كالسبب فى وجود الفعل كأنه فاعل .

فالحاصل أن العلاقة ليست هى الملابسة والتعلق والارتباط بين الفعل والمسند اليه المجازى كما هو ظاهر كلام المصنف ، وكما هو المتبادر من التعريف من قوله « وله — أى الفعل — ملابسات شتى » ، بل هى المشابهة بين المسند اليه الحقيقى والمسند اليه المجازى فى الملابسة أى فى تعلق الفعل بكل منهما وان كانت جهة التعلق مختلفة ، فالمسند اليه المجازى فى « جرى النهر مثلا » وهو النهر يشابه ما هو له ، أى يشابه المسند اليه الحقيقى ، فالماء فى قولك جرى الماء ، فى ملابسة الفعل وهو الجرى ، فالجرى يلابس الماء من جهة قيامه به ، ويلابس النهر من جهة كونه واقعا فيه .

والعلاقة المعتبرة فى هذا المجاز هى المشابهة بين المسند اليه الحقيقى والمسند اليه المجازى فى تعلق الفعل بكل فى صحة اسناده لذلك المجازى ، والعلاقة فى الاستعارة المشابهة بين المعنى المجازى والمعنى الحقيقى لأجل صحة نقل اللفظ من المعنى الحقيقى للمعنى المجازى .

فالعلاقة هى فى المجاز العقلى على التحقيق المشابهة بين الفاعلين : المجازى والحقيقى ، لا الملابسة بين الفعل والمسند اليه المجازى وأن كان ذلك كافيا فى اسناد الفعل اليه .. لأن ملاحظة المشابهة بين الفاعلين أنم وأدخل فى صرف الاسناد الى غير ما هو له ، وأن كفى فيه مجرد الملابسة المذكورة .

وأنواع العلاقة فى المجاز العقلى هى :

١ — المفعولية : فيما بنى للفاعل وأسند الى المفعول به الحقيقى كقولهم ، « عيشة راضية » اذ هى مرضية ، فالاسناد فى المثال مجازى ، وأصله رضى المؤمن عيشته ، فأقيمت عيشة مقام المؤمن فى تعلق الفعل وهو الرضى بكل ، فصار رضيت عيشته ، فاشتق منه اسم الفاعل وأسند الى =

ضمير المفعول وهو عيشة بعد تقديمه وجعله مبتدأ ؛ ثم حذف المضاف اليه اكتفاء بالمبتدأ فى مثل « عيشة زيد راضية » ... وقال العدوى : أصله : « عيشة رضيها صاحبها » ، فالرضا كان بحسب الأصل مسندا للفاعل الحقيقى (الصاحب) ثم حذف الفاعل وأسند الرضا الى ضمير العيشة ، وقيل عيشة رضيت ، لما بين الصاحب والعيشة من المشابهة فى تعلق الرضا بكل ، وأن اختلفت جهة التعلق ، فصار ضمير العيشة فاعلا نحويا حقيقا ، ثم اشتق من رضيت راضية ، وأسند الى المفعول ... ومذهب الخليل والبصريين أنه لا مجاز فى هذا التركيب ، بل الراضية بمعنى ذات رضا حتى تكون بمعنى مرضية ، فهو نظير لابن وتأمر ، قال الفنرى ونقله عنه الدسوقى : وهو مشكل بدخول التاء لأن هذا البناء يستوى فيه المذكر والمؤنث ، ويمكن الجواب بجواز جعلها للمبالغة لا للتأنيث كعلامة ... وقيل راضية بمعنى كاملة .. والشاهد فى « عيشة راضية » اسناد راضية الضمير المستتر الذى هو للعيشة ، وليس الشاهد فى اسناد راضية للعيشة ، لأن الاسناد الى المبتدأ عند المصنف واسطة بين الحقيقة والمجاز ، وكذا يقال فيما بعد هذا المثال من الأمثلة الآتية .

٢ ــ الفاعلية : فيما بنى للمفعول وأسند للفاعل الحقيقى ، كسيل مفعم ؛ لأن السيل هو الذى يفعم أى يملأ ، فأصله أفعم السيل الوادى أى ملأه ثم بنى أفعم للمفعول واشتق منه اسم المفعول وأسند لضمير الفاعل الحقيقى وهو السيل بعد تقديمه وجعله مبتدأ .

٣ ــ المصدر فيما بنى للفاعل وأسند للمصدر مجازا ، مثل شعر شاعر ، فقد أسند ما هو بمعنى الفعل (وهو شاعر) الى ضمير المصدر ، وحقه أن يسند للفاعل (أى الشخص) لأن الفاعل الحقيقى ، بحيث يقال شعر شاعر صاحبه ، لكن لما كان الشعر شبيها بالفعل من جهة تعلق الفعل بكل منهما صح الاسناد اليه مجازا ، والأولى أن يمثل بنحو جد جده لأن الجد مصدرا أسند اليه فعل الفاعل ، فحق الجد أن يسند للفاعل الحقيقى وهو الشخص لا الى الجد نفسه الذى أسند اليه لمشابهته له فى تعلق الفعل بكل منهما . وانما كان ذلك أولى لأن الشعر الذى هو مصدق الضمير فى شاعر يحتمل أن يكون بمعنى المفعول أى المشعور به لا المصدر الذى هو نفس الشعر فيكون من باب عيشة راضية ، أى يكون من باب

ما هو بتأويل وللفعل ملابسات شتى[1] :

يلابس الفاعل والمفعول به والمصـــدر والزمان والمكان والسبب . فاسناده الى الفاعل اذا كان مبنيا له حقيقة كما مر ، وكذا الى المفعول

ما بنى للفاعل وأسند للمفعول لا من باب ما بنى للفاعل وأسند للمصدر الذى كلامنا فيه ، بخلاف « جد جده » فانه من ذلك القبيل . وانما قلنا الأولى ولم نقل الصواب . لأن الشعر يحتمل أن يكون باقيا على مصدريته بمعنى تأليف الكلام فيكون من ذلك القبيل .. فالحاصل أن « جد جده » من باب ما بنى للفاعل وأسند للمصدر قطعا ، وأما « شعر شاعر » فيحتمل أن يكون منه أو من باب « عيشة راضية » . وما لا احتمال فيه أولى مما فيه احتمـــال .

٤ ــ الزمانية : فيما بنى للفاعل وأســـند للزمان لمشابهته الفــاعل الحقيقى فى ملابسة الفعل لكل منهما مثل نهاره صائم .

٥ ــ المكانية : فيما بنى للفاعل وأســـند للمكان لمشابهته الفــاعل الحقيقى فى ملابسة الفعل لكل منهما مثل نهر جار ، لأن المـــاء هو الجارى فى النهر ــ أى الحفرة التى يكون المـــاء فيها ــ .

٦ ــ السببية : فيما بنى للفاعل وأســـند للسبب مجازا ، مثل بنى الأمير المدينة فى السبب الآمر ، لأن السبب نوعان : سبب آمر وسبب غائى أو مآلى ، قال ابن يعقوب : السبب المـــآلى يسند اليه أيضا مجازا مثل يوم يقوم الحساب ، فالقيام فى الحقيقة لأهل الحساب لا لأجله ، فكأن الحساب علة غائية .

هذه هى علاقات المجاز العقلى . وذكر ابن السبكى ان جميع علاقات المجاز اللفظى ينبغى أن تأتى فى العقلى .

(١) لمـــا ذكر فى تعريف الحقيقـــة العقلية « الملابس الذى له » ، وفى تعريف المجاز العقلى « الملابس الذى ليس هو له » ، أخذ يبين التعريفين ببيان الملابس ، فقال « وللفعل ملابسات شتى » ... ويصح فتح « باء الملابسة » وكسرها ، لأن الملابسة مفاعلة من الجانبين ، فكل واحـــد من الفعل وما أسند اليه ملابس (بكسر الباء) وملابس (بفتحها) . الا أن المناســـب لقوله « يلابس الفاعل » أن يقرأ بالفتح ... وقول الخطيب : وللفعل ملابسات شتى ... الخ » هو نص كلام الزمخشرى فى تفســـير قوله تعالى « ختم الله على قلوبهم » ، ومأخوذ منه .

اذا كان مبنيا له ، وقولنا « ما هو له » يشملهما . واسناده الى غيرهما لمضاهاته لما هو له فى ملابسة الفعل مجاز . كقولهم فى المفعول به : « عيشة راضية » و « ماء دافق » ، وفى عكسه « سبيل مفعم » وفى المصدر « شعر شاعر[1] » ، وفى « نهاره صائم » و « ليله قائم » ، وفى المكان « طريق سائر » و « نهر جار » ، وفى السبب « بنى الأمير المدينة » ، وقال :

(فلا تسألينى واسألى عن خليقتى)
اذا رد عافى القدر من يستعيرها[2]

وقولنا بتأول يخرج نحو قول الجاهل : شفى الطبيب المريض ، فإن اسناده الشفاء الى الطبيب ليس بتأول . ولهذا لم يحمل نحو قول الشاعر الحماسى[3] .

---

(١) وجد جده . قال تأبط شرا .

اذا المرأ لم يحتل وقد جد جده أضاع وقاسى امره وهو مدبر

(٢) البيت لعبيد بن الأبرص . وفى السبكى انه لعوف بن الأحوص . وهو من قصيدة رواها صاحب المفضليات لعوف . ونسبه اللسان للمضرس الأسدى . . وعافى فاعل ، والقدر مضاف اليه ، ومن اسم موصول مفعول. وعافى القدر : المرق الذى يتأخر فيها ، وبقاؤه فيها سبب فى رد من يستعيرها ، فأسند بذلك الرد اليه من اسناد الفعل الى سببه .

(٣) هو الصلتان العبدى ، وبعد البيت قرينة تدل على المجاز وارادته وهو قول الشاعر :

فملتنا أننا مسلمون على دين صديقنا والنبى

فليس هناك فرق بين البيت وكلام أبى النجم الآتى :

ومثال البيت فى ذلك قول أسقف نجران :

منع البقاء تصرف الشمس وطلوعها من حيث لا تمسى

وحاصل الكلام أنه لابد فى المجاز العقلى من التأول الذى حاصله نصب القرينة الصارفة عن أن يكون الاسناد الى ما هو له .

أشاب الصغير وأفنى الكبير ... كر الغداة ومر العشى

على المجاز ما لم يعلم أو يظن أن قائلة لم يرد ظاهرة .. كما استدل على أن اسناد (ميز) الى (جذب الليالى) فى قول أبى النجم :

قد أصبحت (أم الخيار) تدعى
على ذنبا كله لم أصنع
من أن رأت رأسى كرأس الأصلع
ميز عنه قنزعا عن قنزع
جذب الليالى أبطئى أو أسرعى(١)

مجاز بقوله عقيبه :

أفناه قيل الله للشمس اطلعى
حتى اذا واراك أفق فارجعى

***

وسمى الاسناد فى هذين القسمين من الكلام عقليا لاستناده الى العقل دون الوضع ، لأن اسناد الكلمة الى الكلمة شيء يحصل بقصد المتكلم دون واضع اللغة ، فلا يصير ضرب خبرا عن زيد بواضع اللغة بل بمن قصد اثبات الضرب فعلا له ، وانما الذى يعود الى واضع اللغة : أن ضرب لاثبات الضرب لا لاثبات الخروج ، وأنه لاثباته فى زمان ماض وليس لاثباته فى زمان مستقبل ، فاما تعيين من ثبت له فانما يتعلق بمن أراد ذلك من المخبرين .. ولو كان لغويا لكان حكمنا بأنه مجاز فى مثل

---

(١) الجذب : الشد . القنزع : الشعر المجتمع فى نواحى الراس . عن بمعنى بعد . « ابطئى أو اسرعى » جملتان واقعتان حالا من الليالى بتقدير القول أى مقولا فيها ذلك .

قولنا « خط أحسن مما وشى الربيع » من جهة أن الفعل لا يصح الا من الحى القادر حكما بأن اللغة هى التى أوجبت أن يختص الفعل بالحى القادر دون الجماد ، وذلك مما لا يشك فى بطلانه .

* * *

● **تعريف السكاكى للحقيقة والمجاز العقليين :**

وقال السكاكى :

الحقيقة العقلية : هى الكلام المفاد به ما عند المتكلم من الحكم فيه[1] .

وانما قلت « ما عند المتكلم » ، دون أن أقوم « ما عند العقل » ليتناول كلام الجاهل اذا قال « شفى الطبيب المريض » ، رائيا شفاء المريض من الطبيب ، حيث عد منه حقيقة مع أنه غير مفيد لما فى العقل من الحكم فيه .. وفيه . نظر[2] :

١ ــ لأنه غير مطرد[3] ، لصدقه على ما لم يكن المسند فيه فعلا

---

(١) هو لا يخرج عن كلام عبد القاهر فى الحقيقة العقلية : « كل جملة وضعتها على أن الحكم المفاد به على ما هو عليه فى العقل وواقع موقعه فهى حقيقة .

(٢) اى فى تعريف السكاكى للحقيقة العقلية .

(٣) التعريف المطرد أى المانع بمعنى انه كلما صدق التعريف صدق المعرف فهو مانع من دخول غير أفراد المعرف فيه .

والتعريف المنعكس أى الجامع بمعنى انه كلما انتفى التعريف انتفى المعرف فهو جامع لأفراد المعرف ، ومثال عدم الجمع تعريف الحيوان بأنه جسم مفكر ، ومثال عدم المانع تعريفه بأنه جسم نام .

وسبب عدم الجمع كون التعريف أخص من المعرف كالمثال ، أو مباين له ، كتعريف الانسان بالمالك .. وسبب عدم المنع هو كون التعريف أعم من المعرف مطلقا ، فان كان أعم من وجه كان فى التعريف عدم الجمع والمنع .

ولا متصلا به ، كقولنا : الانسان حيوان ، مع أنه لا يسمى حقيقة ولا مجازا •

٢ ــ ولا منعكس ، لخروج ما يطابق الواقع دون اعتقاد المتكلم وما لا يطابق شيئا منهما منه ، مع كونهما حقيقتين عقليتين كما سبق •

وقال (السكاكى) :

المجاز العقلى هو الكلام المفاد به خلاف ما عند المتكلم من الحكم فيه لضرب من التأويل ، افادة للخلاف لا بواسطة وضع ، كقولك : أنبت الربيع البقل ، وشفى الطبيب المريض ، وكسا الخليفة الكعبة •

قال (السكاكى) : وانما قلت « خلاف ما عند المتكلم من الحكم فيه » • دون أن أقول خلاف ما عند العقل :

١ ــ لئلا يمتنع طرده بما اذا قال الدهرى عن اعتقاد جهل ، أو جاهل غيره : أنبت الربيع البقل ، رائيا انباته من الربيع ، فانه لا يسمى كلامه ذلك مجازا ، وان كان بخلاف العقل فى نفس الأمر ، واحتج (السكاكى) ببيت الحماسة وقول أبى النجم على ما تقدم •

٢ ــ ثم قال السكاكى : ولئلا يمتنع عكسه بمثل : كسا الخليفة الكعبة وهزم الأمير الجند ، فليس فى العقل امتناع أن يكسو الخليفة نفسه الكعبة ولا أن يهزم الأمير وحده الجند ، ولا يقدح ذلك فى كونهما من المجاز العقلى •

وانما قلت « لضرب من التأويل » ليحترز به عن الكذب فانه لا يسمى مجازا مع كونه كلاما مفيدا خلاف ما عند المتكلم •

وانما قلت « افادة للخلاف لا بواسطة وضع » ليحترز به عن المجاز اللغوى فى صورة ، وهى اذا ادعى أن « أنبت » موضوع لاستعماله فى القادر المختار أو وضع لذلك •

وفيـه نظر[1] :

١ ـ لأنا لا نسـلم بطلان طرده بما ذكر ، لخروجه بقوله : لضرب من التأول .

٢ ـ ولا بطلان عكسه بما ذكر ، اذ المراد بخلاف ما عند العقـل خلاف ما فى نفس الأمر . وفى كلام الشيخ عبد القاهر اشارة الى ذلك ، حيث عرف الحقيقة العقلية بقوله : « كل جملة وضعتها على أن الحكم المفاد بها على ما هو عليه فى العقل وواقع موقعه » فان قوله « واقـع موقعـه » معناه فى نفس الأمر وهو بيان لمـا قلبـه ، وكذا فى كلام الزمخشرى ، حيث عرف المجاز العقلى بقوله : « أن يسند الفعـل الى شىء يلتبس بالذى هو فى الحقيقة له » ، فان قوله فى الحقيقة معناه فى نفس الأمر . ونحو كسـا الخليفة الكعبة اذا كان الاسـناد فيـه مجـازا كذلك .

٣ ـ ثم القول بأن الفعل موضوع لاستعماله فى القادر ضعيف ، وهو معترف بضعفه ، وقد رده فى كتابه بوجوه ، منها : أن وضع الفعل لاستعماله فى القادر قيد لم ينقل عن واحد من رواة اللغة وترك القيد دليل فى العرف على الاطلاق فقوله : « افادة للخلاف لا بواسطة وضع » لا حاجة اليه ، وان ذكر فينبغى أن لا يذكر الا بعـد ذكر الحـد على المذهب المختار ، على أن تمثيله بقول الجـاهل « أنبت الربيع البقل » ينافى هذا الاحتراز .

تنبيـــه :

قـد تبين بـا ذكرنا أن المسـمى بالحقيقة العقليـة والمجـاز العقلى على ما ذكره السكاكى هو الكلام لا الاسـناد ، وهـذا يوافق

---

(١) أى فى تعريف السـكاكى للمجاز العقلى .

ظاهر كلام الشيخ عبد القاهر في مواضع من دلائل الاعجاز ، وعلى ما ذكرناه هو الاسناد لا الكلام ، وهذا ظاهر ما نقله الشيخ أبو عمرو ابن الحاجب[1] رحمه الله عن الشيخ عبد القاهر[2] ، وهو قول الزمخشري في الكشاف ، وقول غيره ، وانما اخترناه لأن نسبة المسمى حقيقة أو مجازا الى العقل على هذا لنفسه بلا وساطة شيء ، وعلى الأول لاشتماله على ما ينتسب الى العقل ، أعني الاسناد .

أقسام المجاز العقلي باعتبار طرفيه : حقيقيتهما ومجازيتهما أو أحدهما :

قال الخطيب :

ثم المجاز العقلي باعتبار طرفيه — أعني المسند والمسند اليه أربعة أقسام لا غير ، لأنهما اما :

١ — حقيقتان ، كقولنا أنبت الربيع البقل ، وعليه قوله :

فنام ليلى وتجلى همي

وقوله :

وشيب أيام الفراق مفارق
(وأنشزن نفسي فوق حيث تكون)

وقوله :

(لقد لمتنا يا أم غيلان في السرى) ونمت وما ليل المطي بنائم[3]

---

(١) امام في اللغة والنحو توفي عام ٦٤٦ هـ .
(٢) وهو ظاهر كلام عبد القاهر في الأسرار والدلائل كما فهمته أنا
(٣) لجرير ومثل البيت قول النعمان بن بشير : =

٢ ـ واما مجازان كقولنا « أحيا الأرض شباب الزمان » .

٣ ـ واما مختلفان ، كقولنا : « أنبت البقل شباب الزمان » ، وكقولنا : « أحيا الأرض الربيع » ،وعليه قول الرجل لصاحبه : « أحيتني رؤيتك » أي آنستني وسرتني ، فقد جعل الحاصل بالرؤية من الأنس والمسرة حياة ثم جعل الرؤية فاعلة له ، ومثله قول أبي الطيب :

وتحيي له المال الصوارم والقنا ويقتل ما تحيي التبسم والجد[1]

جعل الزيادة والوفور حياة للمال ، وتفريقه في العطاء قتلا له ، ثم أثبت الاحياء فعلا للصوارم ، والقتل فعلا للتبسم ، مع أن الفعل لا يصح منهما . ونحو قولهم : « أهلك الناس الدينار والدرهم » : جعلت الفتنة اهلاكا ، ثم أثبت الاهلاك فعلا للدينار والدرهم .

* * *

وهو في القرآن كثير[2] .

كقوله تعالى : « واذا تليت عليهم آياته زادتهم ايمانا » ، نسبت

= ألم تبتدركم يوم بدر سيوفنا وليلك عما ناب قومك نائم

وقول عمرو بن براق :

فلا تأمنن الدهر حرا ظلمته فما ليل مظلوم كريم بنائم

ومثله في المجاز قول الشاعر :

نهاري بأشرف التلاع موكل وليلي ـ اذا ما جنني الليل ـ آرق

(١) الجدا : العطاء . وراجع تعليق عبد القاهر على البيت في الأسرار ص ٣٢١ وقد نقل منه الخطيب .

(٢) رد به على مذهب الظاهرية الزاعمين عدم وقوع المجاز العقلي كاللغوي في القرآن لايهام المجاز الكذب والقرآن منزه عنه . ووجه الرد أنه لا ايهام مع القرينة .

الزيادة التى هى فعل الله الى الآيات لكونها سببا فيها . وكذا قوله تعـالى : « وذلكم ظنكم الذى ظننتم بربكم أراد لكم » . ومن هذا الضرب قوله : « يذبح أبناءهم » ، الفاعل غيره ونسب الفعل اليه لكونه الآمر به . وكقوله : « ينزع عنهما لباسهما » ، نسب النزع الذى هـو فعـل الله تعالى الى ابليس ، لأن سببه أكل الشجرة ، وسبب أكلهـا وسوسته ومقاسمته اياها : انه لهما لمن الناصحين . وكذا قوله : « ألم تر الى الذين بدلوا نعمة الله كفرا وأحلوا قومهم دار البوار » ، نسب الاحلال الذى هو فعل الله الى أكابرهم ، لأن سـببه كفرهم وسبب كفرهم أمر أكابرهم اياهـم بالكفر . وكقوله تعالى : « يوما يجعـل الولدان شيبا » ، نسب الفعل الى الظرف لوقوعه فيه ، كقولهم : « نهاره صائم » . وكقوله تعالى : « وأخرجت أثقالها » .

***

وهو غير مختص بالخبر ، بل يجرى فى الانشـاء ، كقوله تعالى : « يا هامان ابن لى صرحا » ، وقوله : « فأوقد لى يا هامان على الطين فاجعل لى صرحا » ، وقوله : « ولا يخرجنكما من الجنة فتشقى » .

***

● **أنواع القرينـة :**

(قال الخطيب) :

ولابد له ـــ أى للمجاز العقلى ـــ من قرينة :

(أ) اما لفظية كما سبق فى قول أبى النجم[١] .

---

(١) « أفناه قيل الله للشمس اطلعى » الخ .

(ب) أو غير لفظية (أى معنوية) :

كاستحالة صدور المسند من المسند اليه المذكــور أو قيامه به : عقلا كقولك محبتك جاءت بى اليك ، أو عادة كقولك هزم الأمير الجند وكسا الخليفة الكعبة وبنى الوزير القصر ، (لاستحالة ذلك فى العادة). وكصدور الكلام من الموحــد فى مثل قوله : « أشاب الصغير » ، البيت[1] .

* * *

واعلم أنه ليس كل شىء يصلح لأن تتعاطى فيه المجاز بســهولة بل تجدك فى كثير من الأمر تحتاج الى أن تهيىء الشىء وتصلحه له بشىء تتوخاه فى النظم ، كقول من يصف جملا :

تجوب لــه الظلمــاء عين كأنها زجاجة شرب غير ملأى ولا صفر

يريد أنه يهتدى بنور عينه فى الظلماء ويمكنه بها أن يخرقها ويمضى فيها ، ولولاها لكانت الظلماء كالسد الذى لا يجد السائر شيئا يفرجه به ويجعل لنفسه فيه سبيلا ، فلولا أنه قال : تجوب له ، فعلق له بتجــوب لمــا تبين جهة التجوز فى جعــل الجوب فعلا للعين كما ينبغى ، لأنــه لم يكن حينئذ فى الكلام دليل على أن اهتداء صاحبها فى الظلماء ومضيه فيها بنورها ، وكذلك لو قال تجوب له الظلماء عينه لم يكن لــه هذا الموقع ولا تقطع السلك من حيث كان يعييه حينئذ أن يصف العين بما وصفها به .

---

(١) القرينة اما لفظية أو غير لفظية وهى المعنوية وتنقسم الى عادية وعقلية ، وذلك مثل :

أ ــ استحالة قيام المسند بالمسند اليه استحالة عادية .

ب ــ أو استحالة قيامه به استحالة ضرورية . اى بدهية .

جـ ــ صدور الكلام الذى فيه الاسناد من الموحد ، وهذا القســم الثالث من المجاز العقلى هو الذى يحتاج الى دليل وتأمل ، أما القســم الأول والثانى فمن المجاز الضرورى البدهى الذى لا يحتاج الى دليل .

واعلم أن الفعل المبنى للفاعل فى المجاز العقلى واجب أن يكون له فاعل فى التقدير اذا أسند اليه صار الاسناد حقيقة[1] لما يشعر بذلك تعريفه كما سبق ، وذلك قد يكون ظاهرا كما فى قوله تعالى :

---

(١) هذا رأى الرازى والسكاكى والخطيب ، وعبد القاهر على خلافه ذلك :

فيرى الخطيب أن الفعل فى المجاز العقلى لابد أن يكون له فاعل اذا أسند اليه يكون الاسناد حقيقة ، ومعرفة ذلك اما ظاهرة كما فى « فما ربحت تجارتهم » وأما خفية لا تظهر الا بمزيد نظر وتأمل كما فى « سرتنى رؤيتك » لكثرة الاسناد الى الفاعل المجازى وترك الاسناد الى الفاعل الحقيقى .. وقد اشترك السعد والسيد فى ابطال ما وجهه الرازى والسكاكى من الشبه فى هذا البحث .

قال الدسوقى : وتحرير النزاع أن المجاز العقلى هل يشترط فى تحققه أن يكون للفعل المسند فيه فاعل محقق فى الخارج أسند له ذلك الفعل قبل المجاز اسنادا حقيقيا معتدا به ، بأن يقصد فى العرف والاستعمال اسناد ذلك الفعل لذلك الفاعل ، أو لا يشترط ؟ . فمذهب السكاكى والمصنف اشتراط ذلك لأجل أن ينقل الاسناد من ذلك الفاعل الحقيقى للفاعل المجازى، فالفاعل ليس محققا فى الخارج بل متوهم مفروض ولا يعتد بالاسناد للمتوهم المفروض ، فليس « لسرتنى » ولا « ليزيدك » فاعل فى الاستعمال يكون الاسناد اليه حقيقة ، لعدم وجود تلك الأفعال المتعدية فى الاستعمال ، أى أن المتكلم لم يقصد الاخبار بها بل استعملها فى لازمها ، فانتفاؤها بالنظر الى قصد المتكلم وملاحظته لا بالنظر للواقع ، وكذا « أقدمنى » ، فان الاقدام ليس له فاعل حقيقى واسناد الاقدام فيه للحق مجاز عقلى ، فقد بولغ فى كون الحق له مدخل فى تحقق القدوم ، ففرض اقدام صادر من فاعل متوهم ثم نقل عنه واسند الى الحق مبالغة فى ملابسته للقدوم ، كما ينقل اسناد الفعل من الفاعل الحقيقى الى الفاعل المجازى مبالغة فى ملابسة الفاعل المجازى للفاعل الحقيقى ، فالمجاز فى الاسناد ، لا فى الفعل ، فالفاعل الحقيقى ليس موجودا محققا فى الخارج بل متوهم مفروض ، ولا يعتد باسناد

« فما ربحت تجارتهم » ، أى فما ربحوا فى تجارتهم ، وقد يكون خفيا لا يظهر الا بعد نظر وتأمل ، كما فى قولك سرتنى رؤيتك أى سرنى الله وقت رؤيتك ، كما تقول : أصل الحكم فى أنبت الربيع البقل أنبت الله البقل وقت الربيع ، وفى شفى الطبيب المريض : شفى الله المريض عند علاج الطبيب ، وكما فى قولك أقدمنى بلدك حق لى على فلان أى أقدمتنى نفسى بلدك لأجل حق لى على فلان أى قدمت لذلك ، ونظيره محبتك جاءت بى اليك ، أى جاءت بى نفسى اليك لمحبتك ، أى جئت لمحبتك .. وانما قلنا ان الحكم فيهما مجاز لأن الفعلين فيهما مسندان الى الداعى والداعى لا يكون فاعلا ، وكما فى قول الشاعر[1] :

وصيرانى هواك وبى لحينى يضرب المثل

أى وصيرنى الله لهواك وحالى هذه ، أى أهلكنى الله ابتلاء بسبب هواك ، وكما فى قول الآخر وهو أبو نواس[2] :

يزيدك وجهه حسنا اذا ما زدته نظرا

=
الفعل للفاعل المتوهم المفروض ، وكذا يقال فى سرتنى رؤيتك ويزيدك وجهه حسنا : أنه بولغ فى كون الرؤية لها مدخل فى السرور ، والوجه له مدخل فى زيادة العلم بالحسن ، ففرض سرور وازدياد من فاعل متوهم ، ثم نقلا عنه وأسندا للفاعل المجازى وهو الوجه والرؤية للمبالغة فى ملابسة الفاعل المجازى للفعل ، فقول الشيخ عبد القاهر : ليس لهذه الأفعال فاعل ، اى محقق فى الخارج يعتد باسنادها اليه .. هذا وما ذكر من أن الاسناد فى « اقدمنى بلدك حق الخ » من قبيل المجاز العقلى غير متعين ، بل يجوز أن يراد بالاقدام الحمل على القدوم على جهة المجاز المرسل ، فيكون المعنى « حملنى على القدوم حق الخ » .

(١) هو ابن البواب كما فى الدلائل ص ٧٢ ، والكلام على البيت فى ص ٢٢٩ من الدلائل .. وينسب البيت لمحمد اليزيدى .

(٢) فى المطول لابن المعذل ، وهو لأبى نواس كما فى معاهد التنصيص وتجد البيت فى الدلائل ص ٢٢٩ .

أى يزيدك الله حسنا فى وجهه لما أودعه من دقائق الجمال متى تأملت .

* * *

وأنكر السكاكى وجود المجاز العقلى فى الكلام ، وقال : الذى عندى نظمه فى سلك الاستعارة بالكناية ، بجعل الربيع استعارة بالكناية عن الفاعل الحقيقى[1] بواسطة المبالغة فى التشبيه على ما عليه مبنى الاستعارة كما سيأتى ، وجعل نسبة الانبات اليه قرينة للاستعارة[2] ،

---

(١) وكان عبد القاهر يرد ذلك الرأى فى كلامه فى الأسرار (ص ٢٣١) .

(٢) تفصيل الكلام على راى السكاكى فى رد المجاز العقلى الى الاستعارة المكنية أنه بعد أن عرض للمجاز العقلى قال :

« هذا كله تقرير الكلام فى هذا الفصل بحسب رأى الأصحاب من تقسيم المجاز الى لغوى وعقلى ، والا فالذى عندى هو نظم هذا النوع فى سلك الاستعارة بالكناية ، يجعل الربيع استعارة بالكناية عن الفاعل الحقيقى — وهو القادر المختار اى الله تعالى — بواسطة المبالغة فى التشبيه على ما عليه مبنى الاستعارة كما عرفت ، وجعل نسبة الانبات اليه قرينة للاستعارة ، ويجعل الأمير المدبر لأسباب هزيمة العدو استعارة بالكناية عن الجند الهازم ، وجعل نسبة الهزم اليه قرينة للاستعارة ، فالمجاز كله لغوى اى فى الكلمة لا فى الاسناد (راجع ص ١٦٩ المفتاح) .. والاستعارة بالكناية عنده أن تذكر المشبه وتريد المشبه به بواسطة قرينة ، وهى أن تنسب اليه شيئا من اللوازم العادية للمشبه به مثل أن تشبه المنية بالسبع ثم تفردها وتضيف اليها شيئا من لوازم السبع فتقول مخالب المنية نشبت بفلان .

وما ذهب اليه السكاكى هو حاصل شبهة أوردها عبد القاهر ورد عليها (٢٣١ من الأسرار) ، قال عبد القاهر فى أسلوب « ضاغ الربيع الوشى » : فان قيل : أليس الكلام معقودا على تشبيه الربيع بالقادر فى تعلق وجود الصور والنسج به ؟ فالجواب أن هذا التشبيه ليس هو الذى

* * * * * * * * * * * *

يعقد في الكلام ، انما هو عبارة عن الجهة التي راعاها المتكلم حين أعطى الربيع حكم القادر في اسناد الفعل اليه ، فقولنا في تشبيه منقول منطوق به ، وقول المعترض في تشبيه معقول غير منطوق به الخ .. وقد سار السكاكي على ضوء هذه التشبهة وقال : ليس في كلام العرب مجاز عقلي الخ . والحامل للسكاكي على هذا الانكار كما يقول هو للاستعارة بالكناية ، ولكن يرد عليه أن ذلك ليس بأولى من العكس .. وقول السكاكي في الاستعارة بالكناية « هي أن نذكر المشبه الخ » أي هي ذكر المشبه أي هي المتسبه المذكور .

وناقش الخطيب رأى السكاكي ، ورده بوجوه منها :

١ ـ أنه يستلزم أن يكون المراد : بعيشة في قوله تعالى « فهو في عيشة راضية » صاحب العيشة لا العيشة ، وبماء في قوله « خلق من ماء دافق » فاعل الدفق ، لما سيأتي من تفسير الاستعارة بالكناية على مذهب السكاكي ، من أن حاصلها أن يشبه الفاعل المجازى المذكور بالفاعل الحقيقي في تعليق وجود الفعل به ثم يفرد الفاعل المجازى بالذكر ، وينسب اليه شيء من لوازم الفاعل الحقيقي .. توضيح المقام : أنه لا بد في الاسناد من مستعار منه ومستعار له ومستعار ، ففي أنشبت المنية أظفارها بفلان المستعار منه معنى السبع وهو الحيوان المفترس ـ والمستعار لفظ السبع ، والمستعار له معنى المنية ، ومعنى قولهم بالكناية أنك كنيت عن المستعار بشيء من لوازم معناه (أي الأظفار) ولم تصرح بـه ، وهـذا على طريق الجمهور ، فيجعلون مدلول لفظ استعارة بالكناية المستعار أعني اللفظ الدال على المشبه به المضمر ، والسكاكي يجعل مدلوله اللفظ الدال على المشبه فيقال عنده في تقريرها : شبهت : المنية بالسبع وأدعينا أنها فرد من أفراده ، ثم أوردنا اللفظ الدال على المشبه مرادا منه المشبه به بواسطة قرينة دالة على ذلك (كلفظ الأظفار) ، وأما على طريق المصنف فمدلوله نفس التشبيه المضمر في النفس فتسمية التشبيه استعارة بالكناية .... وقول السكاكي في « أنبت الربيع البقل » : « أن الربيع استعارة بالكناية عن الفاعل الحقيقي بواسطة المبالغة في التشبيه ـ أي بادخال المشبه في جنس المشبه به وجعله فردا من أفراده ادعاء ، ونسبة الانبات الى الربيع قرينة الاستعارة ـ يرد عليه أن هذا مخالف لما أشتهر من أن قرينة الاستعارة بالكناية عند السكاكي هي اثبات الصورة الوهمية المسماة ـ

= بالاستعارة التخييلية ، فيجب أن يؤول على أن المراد « وجعل نسبة ما هو على الاستعارة بالكناية غير الكائنة في المجاز العقلى ، وأما الواقعة فيه فنسبة شبيه بالانبات اليه قرينة » .. وأجيب : بأن ما اشتهر عنه محمول على الاستعارة بالكناية غير الكائنة فى المجاز العقلى وأما الواقعة فيه فالقرينة فيه قد تكون أمرا محققا ، فما اشتهر عنه كلى ، ويدل على ذلك أنه نفسه صرح فى بحث المجاز العقلى بأن القرينة قد تكون أمرا محققا كما فى أنبت الربيع البقل . وقول السكاكى : المكنية « هى أن تذكر المشبه وتريد المشبه به بواسطة قرينة ، وهى أن تنسب اليه شيئا من اللوازم المساوية للمشبه به » ، يريد « بالمساوية » التى تصدق حيث صدق وتكذب حيث كذب .

٢ ـ ويستلزم أن لا تصح الاضافة فى نحو قولهم : فلان نهاره صائم وليله قائم ، أى لان المراد بالنهار على هذا فلان نفسه ، واضافة الشىء الى نفسه لا تصح ، فكل تركيب أضيف فيه الفاعل المجازى الى الفاعل الحقيقى كما فى المثالين السابقين تكون ـ على هذا ـ الاضافة فيه غير صحيحة ، لبطلان اضافة الشىء الى نفسه اللازمة من كلامه ، لأن المراد بالنهار حينئذ فلان نفسه ، ولا شك فى صحة هذه الاضافة ووقوعها ، قال تعالى : فما ربحت تجارتهم ، قال الشاعر : فنام ليلى وتجلى همى ، وهذان المثالان اظهر ، لان « نهاره صائم » يمكن المناقشة فيه بأن الاستعارة انما هى فى ضميره المستتر لا فى « نهاره » على الاستخدام المعروف فى علم البديع . لكن المناقشة فى المثال ليست من أدب العلماء ـ قال الدسوقى فى « نهاره صائم » : اضافة الشىء الى نفسه انما توجد اذا كان المراد « بالنهار » وضمير « صائم » واحدا ، وأما اذا ارتكب الاستخدام وجعل الضمير فى « صائم » راجعا الى النهار ، لا بالمعنى الأول وهو الزمان ، بل بمعنى الشخص ، فلا يلزم اضافة الشىء الى نفسه ، لأن الاستعارة انما هى فى الضمير المستتر فى صائم لا فى نهاره .

٣ ـ وان لا يكون الأ بالايقاد على الطين فى احدى الآيتين بالبناء فيهما لهامان مع أن النداء له فيكون الأمر له أيضا فلا يجوز تعدد المخاطب فى كلام واحد أو جمعه أو عطفه .

قال الدسوقى : قيل أن هذا الالزام انما يتوجه على السكاكى اذا كان المسند مستعملا فى معناه الحقيقى ، وله أن يمنع ذلك مدعيا أن معنى « ابن » هو أمر بالبناء « وأوقد لى ياهامان » هو أمر بالايقاد ، فصح أن =

= النداء له والخطاب معه .. وفيه أن هذا خروج عما نحن بصدده ، لانه حينئذ يكون المجاز فى الظرف ، فيخرج عن المجاز العقلى كما يقول المصنف وغيره وعن الاستعارة بالكناية كما يقول السكاكى .

وقال ابن السبكى : آن الزام الخطيب للسكاكى بنحو « ابن لى صرحا » بأن لا يكون الأمر بالبناء لهامان مع ان النداء له ؛ جوابه : ان المأمور بالبناء البانى بنفسه بعد اعتقاد دخول هامان نفسه فى زمرة من يبنى بنفسه مجازا .

٤ ـ ويستلزم أن يتوقف جواز التركيب فى نحو قولهم : انبت الربيع البقل وسرتنى رؤيتك على الاذن الشرعى لأن أسماء الله تعالى توقيفية .

قال ابن يعقوب : ان ما ذهب اليه السكاكى يستلزم أيضا أن يتوقف استعمال نحو « أنبت الربيع البقل » و « شفى الطبيب المريض » و « سرتنى رؤيتك » و يزيدك وجهه حسنا » ـ وكل ما كان مثل هذا الاستعمال ـ على سماعه من الشارع ، لان أسماء الله توقيفية ، فلا يطلق عليه تعالى اسم لا حقيقة ولا مجاز ما لم يرد أذن من الشارع كالرحمن فانه مجاز بخلاف ما لم يسم به الله نفسه فى الكتاب ولا فى السنة سواء كان مجازا أو حقيقة ، ولم يرد اطلاق الربيع والطبيب والرؤية على الله تعالى . لكن توقف مثل هذا الاستعمال على السماع غير صحيح ، لانه شاع استعماله حتى كاد أن يكون اجماعا سكوتيا ، فشيوعه يدل على أن المراد بالربيع غير الله . ولا يجاب عن هذا الالزام بأن مذهب السكاكى أن أسماءه تعالى غير توقيفية ، لأن الرد عليه ليس باستعماله هو بل باستعمال غيره ممن يذهب الى غير ذلك مع عدم انكار غيره ، فصار استعمالا صحيحا ، ولو كان كما ذكر السكاكى لتركه من يراها توقيفية أو لأنكر عليه .

ملاحظة :

المجاز العقلى له معنيان : اسناد الفعل أو ما فى معنى الفعل الى ما ليس الاسناد له بعلاقة ، مع قرينة ـ والمجاز الذى سببه التصرف فى أمور عقلية أى غير لفظية كجعل الفرد الغير المتعارف من أفراد المعنى المتعارف للفظ مثل جعل الشجاع فردا من أفراد الحيوان المفترس فتنقل اسمه اليه قائلا : « رأيت أسدا » أى رجلا شجاعا شبيها بالأسد . والمعنى الأول هو المراد هنا فى هذا الباب .

ويجعل الأمير المدبر لأسـباب هزيمة العدو استعارة بالكناية عن الجند الهازم وجعل نسبة الهزم اليه قرينة للاستعارة .

وفيما ذهب اليه (السكاكى) نظر :

١ ــ لأنه يستلزم أن يكون المراد بعيشة فى قوله تعالى « فهو فى عيشة راضية صاحب العيشة لا العيشة ، وبماء فى قوله : خلق من ماء دافق فاعل . فاعل الدفق لا المنى ، لمـا سيأتى من تفسـيره للاستعارة بالكناية .

٢ ــ وأن لا تصح الاضـافة فى نحو قولهم : فلان نهاره صائم وليله قائم . لأن المراد بالنهار على هذا فلان نفسه واضافة الشىء الى نفسه لا تصح .

٣ ــ وأن لا يكون الأمر بالايقـاد على الطين فى احـدى الآيتين وبالبناء فيهما لهامان ، مع أن النداء له .

٤ ــ وأن يتوقف جواز التركيب فى نحـو قولهم : أنبت الربيع البقل ، وسرتنى رؤيتك على الاذن الشرعى ، لأن أسـماء الله تعـالى توقيفية ، وكل ذلك منتف ظاهر الانتفاء .

٥ ــ ثم ما ذكره منقوض بنحـو قولهم : « فلان نهاره صائم » فان الاسناد فيه مجاز ، ولا يجوز أن يكون النهار استعارة بالكناية عن فلان ، لأن ذكر طرفى التشبيه يمنع من حمل الكلام على الاسـتعارة ويوجب حمله على التشبيه ، ولهذا عد نحو قولهم « رأيت بفلان أسدا ، ولقينى منه أسد » تشـبيها لا اسـتعارة ، كما صرح السـكاكى أيضا بذلك فى كتابه .

● تنبيـــــه :

اننا لم نورد الكلام فى الحقيقة والمجاز العقليين فى علم البيـــان كما فعل الســـكاكى ومن تبعه ، لدخوله فى تعريف علم المعـــانى دون تعريف علم البيـــان .

* * *

البحث البلاغي عن أسلوب المجاز العقلي وأطواره(١)

● سيبويه وهل اثبت المجاز العقلي ؟ :

قال صاحب الكتاب : مطر قومك الليل والنهار على الظرف ، وان شئت رفعته على سعة الكلام ، كما يقال صيد عليه الليل والنهار ، كما قال جرير :

ونمت وما ليل المطى بنائم

فكأنه في كل هذا جعل الليل بعض الاسم ، وكما قال الشاعر :

أما النهار ففى قيد وسلسلة والليل فى قعر منحوت من الساج

فكأنه جعل النهار فى قيد والليل فى جوف منحوت (راجع ١/٨٠ سيبويه فى : باب من الفعل يبدل فيه الآخر من الأول ويجرى الاسم كما يجرى أجمعون على الاسم ينصب بالفعل لأنه مفعول) .

وقال : تقول سرقت الليلة أهل الدار فتجرى الليلة فى سعة الكلام ، ومثل ما أجرى مجرى هذا فى سعة الكلام والاستخفاف : « بل مكر الليل والنهار » فالليل والنهار لا يمكران ولكن المكر فيهما (١/٨٩ الكتاب لسيبويه) .

وقال : باب استعمال الفعل فى اللفظ لا فى المعنى لاتساعهم فى الكلام وللايجاز والاختصار : فمن ذلك أن نقول : صيد عليه يومان أى صيد عليه الوحش فى يومين ولكنه اتسع واختصر ، ومما جاء على اتساع الكلام والاختصار . واسأل القرية التى كنا فيها والعير التى

---

(١) هذه البحوث بقلم محمد عبد المنعم خفاجى .

أقبلنا فيهـــا ، انما يريد أهـــل القرية فاختصر وعمل الفعل فى القرية كما كان عاملا فى الأهل لو كان ها هنا ، ومثله بل مكر الليـــل والنهار المعنى مكركم فى الليل والنهار ، وقال تعالى ولكن البر من آمن بالله ، أى بر من آمن بالله ، وهذا أكثر من أن يحصى ، وقال الجعدى :

وكيف تواصـــل من أصبحت خلالتـــــه كأبى مرحب

(راجع ١٠٨ ــ ١/١١٠ من الكتاب) •

هذا بعض ما ذكره سيبويه فى كتابه عن المجاز العقلى[1] • وهو يرشـــدنا الى رأى شـــيخ العربية فى مثل هذا الأسلوب •• وبالامعان فيما نقلنـــاه ها هنا عن ســـيبويه ندرك أنه يحمـــل هذه الأســـاليب وما شابهها ــ مما حمله المتأخرون على المجاز فى الكلام أى على المجاز العقلى ــ يحملها على السعة فى الكلام بالايجاز والحذف والاختصار ، وأصلها على تقدير المضاف ، وبهـــذا التقدير تخرج هذه الأساليب عند ســـيبويه عن معنى المجاز الذى نفهمه من كلام المتأخرين ••• فالمجاز العقلى محمول عنده على السعة فى الكلام وحذف مضاف •

وسيأتى نبسط رأى عبد القاهر فى ذلك ودفاعه عن أسلوب المجاز العقلى ورده على من يرى أنه محمول على الســـعة والحذف من علماء العربية كسيبويه ومن نهج نهجه فى فهم وتحليل هذا الأسلوب •

---

(١) وفى ص ١٦٩ ج ١ من الكتاب يقول سيبويه :
وأن شئت رفعت (فقلت ولا اناعى) فجاز على ســـعة الكلام ، من ذلك قول الخنســـاء :

ترتع ما رتعت حتى اذا ادكرت فانما هى اقبـــال وادبـــار

فجعلها الاقبال والادبار فجاز على ســـعة الكلام كقولك : نهارك صائم وليلك قائم .. ولكنه جاز على السعة فاستخفوا واختصروا ، والسيرافى والشنتمرى يجعلانه على تقدير مضاف أو تأويل المصـــدر باسم الفاعل . وهذا بيـــان لمعنى السعة الذى يقصده صاحب الكتاب .

● **المبرد واسلوب المجاز العقلي :**

وقال صاحب الكامل : « ليلة مزؤودة » أي ذات زؤد وهو الفزع وجعل الليلة ذات فزع لأنها يفزع فيهـا ، قال تعالى : بل مكر الليـل والنهار أي مكركم في الليـل والنهار ، وقال جرير : ونمت وما ليل المطى بنائم . وقال آخر : فنام ليلي وتجلى همي . (٦٥/١ كامل النسخة القديمـة) .

وقال : العـرب تقـول نهارك صـائم وليلك قائم أي أنت قائم وصـائم ، كما قال تعالى : بل مكر الليل والنهار أي في الليل والنهار ، وقال : ونمت وما ليل المطى بنائم (١٠٤/١ كامل المبرد) .

وقال : « وأما خلة فشمانى » ، سماها بالمصدر مثل فانما هى اقبال وادبار ، نعتها بالمصدر لكثرته منها ، ويجوز أن يكون أراد ذات خلة ، ومثله : ولكن البر من آمن بالله (١٣٧ جـ ١ كامل المبرد الطبعة القديمة).

وقال : « ويمسى ليله غير نائم » أي في ليله ، جعل الفعل لليـل على السـعة مثل فانما هى اقبال وادبار ، وفي القرآن بل مكر الليـل والنهار (٢٤٨ جـ ٢ كامل المبرد طبعة التجارية) .

ذلك ما في كامل المبرد من كلام وتحليل لبعض الأسـاليب التى جعلها المتأخرون من أسلوب المجاز العقلى .

والمبرد في تحليل هذه الأساليب يجمع بين رأى سيبويه السـابق ورأى آخر جديد هو المبالغة ، والمبالغة من خصائص المجاز كما تعلم ــ فيقول فى « فانما هى اقبـال وادبار » نعتها بالمصـدر لكثرته منهـا (١٣٧ جـ ١ كامل) ، فهو اذاً يجوز فى أسـلوب « فانما هى اقبـال وادبار » ــ وما يشابهه مثله طبعا ــ أن يكون على المبالغة كمـا يقول عبد القاهر أى على المجاز ، أو على الحذف كما يقول سيبويه ، واذا هو

لم يذهب الى مذهب سيبويه وحده ، وقد يكون المبرد قد أراد من المبالغة التشبيه البليغ ، هي اقبال ، أي شبيهة به . ولكن ذلك بعيد عن الأسلوب وعن مراد المبرد منه كما يخيل لي .

وفي رسالة أخرى للمبرد هي « ما اتفق لفظه واختلف معناه في القرآن » يقول المبرد :

وفي القرآن مختصرات ، فان مجاز كلام العرب يحذف كثيرا من الكلام اذا كان فيما يبقى دليل على ما يلقى ، فمن ذلك : واسأل القرية التي كنا فيها والعير التي أقبلنا فيها ، لما كانت القرية والعير لا يسألان ولا يجيبان علم أن المطلوب غيرهما (ص ٣٦) ، ولا يجوز على هذا جاء زيد وأنت تريد غلامه لأن المجيء يكون له ولا دليل في مثل هذا على المحذوف . ومثل الأول : ولكن البر من آمن بالله ، أي بر من آمن بالله لأن البر لا يكون البار . ونظيره قول الجعدي : أ .. أصبحت خلالته كأبي مرحب) أي كخلالة أبي مرحب (٣٢ و ٣٣) .

ومن المختصر في القرآن قوله تعالى : ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع . تأويله مثلكم ومثلهم كمثل الناعق بما لا يسمع فاختصر وحذف ، كقول النابغة : كأنك من جمال بني أقيش ، أي جمل من جمال (٣٥) .. والمبرد في ذلك تابع لسيبويه ناقل عنه ، ورأيه عندي صحيح .

ابن المدبر والمجاز العقلي :

يرى ابن المدبر أن أسلوب « بل مكر الليل والنهار » من الحذف والاتساع ، وأن الكتاب ينبغي أن يتجنبوه . (راجع ص ١٨ الرسالة العذراء لابن المدبر نشر الدكتور مبارك) .

● **نقـد النثر والمجـاز العقلى :**

وكذلك كتاب « نقد النثر » ضئيل الصلة بالمجاز العقلى • قال : ومن الاستعارة انطاق ما لا ينطق مثل « فوجد فيها جدارا يريد أن ينقض فأقامه » ومثل : امتلأ الحوض وقال قطنى ـ وذكر أيضـا المثال : فللموت ما تلد الوالدة (٦٦ نقد النثر) •• ومن المعلوم أن كلامه فى هـذا قليل جدا من ناحية البحث البيانى وهو متأثر بخطابة أرسطو ، حامل لهذه المثل على الاستعارة ، كما صنع عبد القاهر بعد •

● **الآمدى وسلوب المجـاز العقلى :**

قال الآمدى فى موازنته : المصادر قد تجعل أوصافا فى مكان أسماء الفاعلين وانما تكون أوصافا على وجه من الوجوه وطريقة من اللفظ ، وهى قولهم انما زيد دهره أكل ونوم وانما عمرو أبدا قيام وقعود . فتقيم المضاف اليه مقام المضاف لأنه يدل عليه أو تجعل زيدا نفسـه الأكل والنوم وعمرا القيام والقعود على المبالغـة لأن ذلك كثير منهما كما قالت : « فانما هى اقبـال وادبار » ، فجعلت الناقة هى الاقبـال والادبار لأن ذلك كثير منها ، وان شئت كان المعنى ذات اقبـال وادبار فأقمت المضاف اليه مقام المضاف فهذه طريقة الوصف بالمصـادر على ما ذكرته ، فيقال هنـد الحسن كله ودعد الجمال أجمعه وزيد الهرم أقصاه وعبد الله التيه بعينه : ان شئت كان المعنى هند صاحبة الحسن كله ودعد ذات الجمال أجمعه وزيد أخـو الهرم وعبـد الله ذو التيه فأقمت المضـاف اليه مقام المضـاف مثل واسأل القرية ، وان شـئت جعلت هنـدا هى الحسن ودعدا هى الجمال على المبـالغة لمـا كانتا متناهيتين فى هذين الوصفين (٧٦ الموازنة طبعة صبيح) •

ورأى صاحب الموازنة قد حلله أتم تحليل وان كان لا يخـرج عن رأى المبرد فى كثير ولا قليل •• فان هذه الأساليب كلها بعيدة عن

المجاز العقلى انما هى على الحذف والاختصار ، أما ما ذكره فى الكامل من الأساليب من مثل : نهارك صائم وليلك قائم فقد حملهما على المبالغة أو على الحذف كما سبق : وسـيبويه يحملها كلها على الحذف .

ومن تتمه الفائدة أن ننقل هذا النص عن المبرد وان لم يكن وثيق الصـلة بالمجاز العقـلى ، قال المبـرد : « وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون ــ انما نملى لهم ليزدادوا اثما » مجاز مصـيره الى ذا كقوله تعـالى : « فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا » وهم لا يلتقطونه مقدرين فيه ذلك ولكن تقديره : فكان مصيره الى عداواتهم وحزنهم ، ومثله : ودورهم بخراب الموت نبنيها ، أى الى هذا تصير ، ومثل قول ابن الزبعرى فللموت ما تلد الوالدة ، أى أن هذا مصيرهم (٢٦ ــ ٢٨ ما اتفق لفظه للمبرد) .

● **خطابة رأسطو والمجـاز العقلى :**

وقد ترجمت فى القرن الثالث الهجرى ولم يتأثر بها أئمة البيـان كثيرا فى فهم هـذا الأسلوب ، وانما كان جل تأثرهم بآراء علماء العربية كسيبويه والمبرد وابن فارس ، وليس فيها الا كلام قريب الصلة بالمجاز العقلى : قال :

« ومن التغيرات الاستعارية اللذيذة أن ينسب الأمر الى صـفة الفاعل مثل الشيخوخة تفعل الخير بدل الشيخ » .. وقال : ومن أنواع الاستعارة اللفظية أن تجعل أفعال الأشياء غير المتنفسة كأفعال ذوات الأنفس مثل الغضب لجوج (راجع باب العبـارة فى فن الخطابة فى الشـفاء لابن سينا) .

فهو ها هنا يجعل هذه الأساليب استعارة فقط ، لا حذفا كما ذهب اليه سـيبويه ، وصنيع الخطابة فى هذا هو صنيع عبد القاهر ، فقـد جعل ما شـابه هذه الأساليب مجازا عقليا ورد أن تكون من الحذف سـبيل .

• ابن فارس وأسلوب المجاز العقلى :

قال ابن فارس : ومن اللامات لام العاقبة : « فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا » لم يلتقطوه لذلك ولكن صارت العاقبة ذلك (٨٧ الصاحبى لابن فارس) .

وقال : ومن سنن العرب الحذف والاختصار ، ومنه « واسأل القرية » اراد أهلها ، وبنو فلان يطؤهم الطريق أى أهله ، ومنه نطأ السماء أى مطرها ، وعلى خوف من فرعون ، « اذن لأذقناكم ضعف الحياة » أى ضعف عذابها (١٧٥ الصاحبى) .

وقال : ومن سنن العرب اضافة الفعل الى ما ليس فاعلا فى الحقيقة مثل جدارا يريد أن ينقض وهو فى شعر العرب كثير (١٧٩ و ١٨٠ الصاحبى) .

وقال : باب المفعول يأتى بلفظ الفاعل ، تقول سر كاتم أى مكتوم ، وفى القرآن لا عاصم اليوم من أمر الله أى لا معصوم ، ومن ماء دافق ، وعيشة راضية أى مرضى بها ، وحرما آمنا أى مأمونا فيه .. قيل ويأتى الفاعل بلفظ المفعول به كقوله : انه كان وعده مأتيا . أى آتيا (١٨٧ و ١٨٨ الصاحبى) .

وقال : ومن سنن العرب وصف الشىء بما يقع أو يكون منه كقولهم يوم عاصف أى عاصف الريح ، لأن عصوف ريحه يكون فيه ، ومثله ليل نائم ، وليل ساهر لأنه ينام فيه ويسهر ، قال أوس : خذلت على ليلة ساهرة ، وقال عمرو بن براق : « وليلك من ليل الصعاليك نائم » . ومثله ، « وما ليل المطى بنائم » . ويقولون : لا يرقد وساده يريدون متوسد الوساد (١٨٨ الصاحبى) .. وقال : ومن سنن العرب التوهم والايهام وهو أن يتوهم أحدهم شيئا ثم يجعله كالحق كمساءلة الرسوم (١٩٢) .. وقال : ومن سنن العرب الاضمار :

اضمار الأسماء ، واضمار الأفعال ، واضمار الحروف (١٩٦ — ١٩٨ الصاحبي) — والعرب تضمر الفعل فيشتبه المعنى حتى يعتبر فيوقف على المراد مثل « فاني لا الام على دخول » أى على ترك دخول ، وقال الأعشى : أأزمعت من آل ليلى ابتكارا ، أى من أجل آل ليلى (ص ١٩٨ و ١٩٩) •• وقال : باب اضافة الشيء الى ما ليس له مثل سرج الفرس وثمرة الشجرة وغنم الراعى (ص ٢٠٥) • وقال : باب اقتصارهم على ذكر بعض الشيء • وهم يريدون كله ومنه : ويبقى وجه ربك الخ • (٢١٢ و ٢١٣) •

وبالتأمل فيما ذكره ابن فارس فى الصاحبى نجده يفرق بين باب الحذف وباب المبالغة والمجاز ، فيذكر مثل الحذف ويجعلها من الحذف ، ويذكر مثل المبالغة كليل نائم ويجعلها من وصف الشيء بما يقع فيه أو يكون منه •

وابن فارس فى هذا جد دقيق متحر للصواب فيما يرى ويقول •

● ابن الأثير والمجاز العقلى :

كذلك لم يعرض ابن الأثير فى المثل السائر للمجاز العقلى ، وانما جعل المجاز ثلاثة أقسام : توسع فى الكلام وتشبيه واستعارة :

فالتوسع يكون العدول فيه عن الحقيقة الى المجاز لغير مشاركة بين المنقول والمنقول اليه لطلب التوسع فى الكلام ، وهو ضربان :

١ — ما يرد على وجه الاضافة واستعماله قبيح ، لبعد ما بين المضاف والمضاف اليه ، وذلك لأنه يلتحق بالتشبيه المضمر الأداة ، واذا ورد التشبيه ولا مناسبة بين الطرفين ، كان ذلك قبيحا مثل بح صوت المال وماء الملام •

٢ ـ ما يرد على غير وجـه الاضافة ، وهو حسن لا عيب فيـه مثل : قالتا أتينا طائعين ، فنسبة القول الى السماء من باب التوسع ، لأنهما جماد لا ينطق ، وعلى هذا ورد مخاطبة الطلول ••• وهذا النوع الثانى قريب من أسلوب المجاز العقلى ، وابن الأثير يعده من التوسع الذى هو قسم من أقسام المجاز •

• عبد القـاهر والمجـاز العقلى :

ليس عبد القاهر أول من تكلم على أسلوب المجاز العقلى ، فقـد تقدمه كثير من العلمـاء : كسيبويه والمبرد والآمدى وابن فارس •• وفى هـذا ما يبطل الرأى القائل بأن المجاز الحكمى ـ العقلى ـ من ابتداع عبد القاهر وحده ، وهو رأى ذهب اليه الدكتور طه حسـين فى مقدمته لكتاب نقد النثر •

وبلاغه المجاز العقلى كما فهمها عبد القاهر سيق الى بيانها باختصار وفى خفية المبرد والآمدى •

وجملة ما ذكره عبد القاهر فى كتابيه الأسرار والدلائل عن المجاز العقلى •• هى :

١ ـ اثبـات وجود المجاز العقلى وبيـان سر الفروق بينه وبين المجاز فى الكلمة •

٢ ـ بيـان أن المجاز فى الاثبات عقلى وفى الكلمة المثبتة لغوى •

٣ ـ بيـان حد هذين النوعين من المجاز (المجاز الحكمى والمجاز فى المفرد) •

٤ ـ بيـان القرينة على التجوز فى المجاز العقلى والفرق بينه وبين الأحاديث الكاذبة •

٥ — الكلام على بلاغة المجاز العقلى ودرجاته في البلاغة — من العامية والخاصية — وأن تقدير الحقيقة في الاسناد المجازى قد لا يتأتى في الأسلوب ، وتوضيح سر دقة الأساليب الخاصية في المجاز العقلى ، وتأويل نظرية علماء النحو التى يذهبون فيها الى أن أسلوب المجاز الحكمى على تقدير مضاف ، والدفاع عن بلاغة المجاز الحكمى التى يهيضمها مثل هذا التقدير الحائف والتأويل البعيد .

وهذه الآراء مبسوطة في كتابى « عبد القاهر ، والبلاغة العربية » بسطا وافيا ، فليرجع اليها من أراد .

● الراغب الأصفهانى والمجاز العقلى :

أكثر الأسباب التى يحتاج الفعل اليها فى وجوده كما يقول الراغب عشرة : فاعل يصدر عنه كالنجار وعنصر يعمل فيه كالخشب وعمل كالنجر ، وزمان ومكان يعمل فيهما ، وآلة يعمل بها كالمنجر ، وغرض قريب كاتخاذ النجار ، وغرض بعيد كتحصين البيت به ، ومثال يعمل عليه ويقتدى به ، ومرشد يرشده .. وكل قد ينسب اليه الفعل فيقال أعطانى زيد اذا باشر الاعطاء ، وأعطانى الله لما كان هو الميسر له وربما جمع بين السببين : البعيد والقريب فيقال : أعطانى الله وزيد ، قال الشاعر :

حبايا به جدنا والاله وضرب لنا أخذم صارم

فنسب الى الأول وهو الله والى السبب المتأخر وهو الضرب والى المتوسط وهو الجد .. وقال : الله يتوفى الأنفس حين موتها ، فأسند الى الآمر به ، قل يتوفاكم ملك الموت ، فأسند الى المباشر له ، وقال الشاعر : وألبسنيه الهالكى ... وقال : كساهم محرق[1] . فنسب

---

(١) للحصين المرى (راجع ص ١٩ من المفضليات) .

الفعل الى عاملها وفى الثانى الى مستعملها ، وقال فى صفة نبال : كستها ريشها مضرحية . فنسب كسوتها الى الطائر الذى أخذ ريشـه فجعل لها : وقيل يداك أوكتا وفوك نفخ ، فنسب الفعل الى الآلة المتصلة .

ويقال سيف قاطع فنسب الى الآلة المنفصلة . وقيل ضرب قاطع وطعن جائف فنسب الى الحدث . وسر كاتم وعيشـة راضية ، فنسب الى المفعول . وقال تعالى : حرما آمنا . فنسب الى المكان . وقيل يوم صـائم وليل سـاهر ، وما ليل المطى بنـائم ، فنسب الى الزمان .. ولمـا كانت أفعالنـا على ذلك صح فى الفعل الواحد أن ينسب الى أحد الأسـباب مرة وينفى عنه مرة بنظرين مختلفين . وقال :

أعطيت من لم تعطه ولو انقضى حسن اللقاء حرمت من لم تحرم

فأثبت له الفعل ونفاه عنه بنظرين مختلفين .. وهذا فصيـل من تأمله لم يعتمد فى تثبيت المعانى على مثلها من الألفاظ فينظر من اللفظ الى المعنى ، بل ينظر فى مثل هذا من المعنى الى اللفظ . ومن أجل هذا قال قوم من المحصلين لا فاعل فى الحقيقة لأى شىء من الأفعال الا الله تعـالى فإن فعله يستغنى عن الزمان والمكان والمـادة ، ومن عداه من الفاعلين فإن له من كل ذلك أو بعضه ، ولهذا لا يصح أن ينسب الابداع الى غيره تعـالى لا حقيقة ولا مجازا ويصح أن ينسب فعل الله تعـالى الى كل ما تقدم ذكره (١٨٠ ــ ١٨٢ الذريعة الى مكارم الشريعة) .

وبهذا نرى أن الراغب ينفى المجاز العقلى كافة ، ولكن فى نظرى أنه انما ينظر الى المعانى كما قال فى آخر كلمته ، ويوجه الألفاظ فى دلالتها الى ما تقتضيه المعـانى ، ولا ينظر الى النظم والأسلوب وكيفية أدائه للمعنى من حقيقة أو مجاز ، فهو عن هذا فى واد بعيد ، وشـغل شـاغل .

● **صاحب المصباح(١) وأسلوب المجاز العقلي :**

وقد تأثر بدر الدين في كتابه في بحث المجاز العقلي بالسكاكي : قال : المجاز العقلي هو الكلام المزال اسناده عما هو له عند المتكلم الى غيره بضرب من التأويل والمراد بما الاسناد له عند المتكلم ما يعتقد قيام الفعل به أو صدوره عنه ، ولم أقل بغير العقل لأنا لم نرهم يحملون نحو « أشاب الصغير البيت » على المجاز ما لم يعلموا أو يظنوا صدوره عن غير جهل ، أو ما ترى كيف استدلوا على أن اسناد « ميز » الى الجذب في قوله :

ميز عنه قنزعا عن قنزع جذب الليالي أبطئي أو أسرعي

مجاز بأن أتبعه قوله : « أفناه قيل الله الخ » الشاهد لنزاهته أنه يريد الظاهر ، وقولي بضرب من التأويل مخرج للكذب . وسمى هذا الضرب مجازا عقليا لتعدى الحكم فيه عن مكانه الأصلي من غير تغيير للوضع . ومن شرط هذا المجاز أن يكون للمسند اليه شبه بالمتروك في تعلقه بالعامل (٦٩ و ٧٠ المصباح) .

فهو يثبت المجاز العقلي ويفسره ويبين شروطه ويفرق بينه وبين الكذب .

● **حسن التوسل في صناعة الترسل » والمجاز العقلي :**

وهذا الكتاب متأثر في بحث أسلوب المجاز العقلي بعبد القاهر ، قال : المجاز مفعل من جاز يجوز اذا تعداه . فاذا عدل باللفظ عما يوجبه أصل اللغة وصف بأنه مجاز بمعنى أنهم قد جاوزوا به موضعه الأصلي أو جاز هو مكانه الذي وضع فيه أولا لأنه ليس بموضع أصلي لهذا

---

(١) هو بدر الدين بن ملك المتوفى عام ٦٤٩ هـ .

اللفظ ولكنه مجازه ومتعداه يقع فيه كالواقف بمكان غيره ثم يتعداه الى مكانه الأصلي(١) .. وحدهما ــ الحقيقة والمجــاز ــ في المفرد : أن كل كلمة أريد بهــا ما وضعت له فهي حقيقة (١١٧ المرجع المذكور) كالأسد للحيوان واليد للجارحة ، وان أريد بها غيره لمناسبة بينهما فهي مجــاز كالأسد للشجاع واليد للنعمة أو القوة ، وحــدهما في الجمله : أن كل جملة كان الحكم الذي دلت عليه كما هو في العقل فهي حقيقة مثل خلق الله الخلق ، وكل جملة أخرجت الحكم المفــاد بها عن موضعه في العقل لضرب من التأول فهي مجاز ، كما اذا أضيف الفعل الى شيء يضــاهي الفاعل كالمفعول به في عشية راضية ، أو المصــدر في شــعر شــاعر . أو الزمان في ليله نائم ، أو المكان في طريق ســائر ، أو المسبب في بنى الأمير المدينــة ، او السبب في واذا تليت عليهم آياته زادتهم ايمانا ، فمجاز المفرد لغوي ويسمى مجــازا في المثبت . ومجــاز الجمــلة عقلي ويسمى مجازا في الاثبات ، فالمجــاز قد يكون في المثبت وحــده مثل : فأحيينا به الأرض بعد موتها ، وقــد يكون في الاثبات وهو أن يضيف الفعل الى غير الفاعل الحقيقي كما ذكرنا ، وقــد يكون فيهما جميعــا كقولك آنستني رؤيتك أي سرتني فجعل المسرة حياة ، وأسـندها الى الرؤية وهو مجاز في الاثبات (١١٨ حسن التوسل) .

---

(١) ذلك مأخوذ عن عبد القاهر وقد سبق ابن فارس في كتــابه « الصاحبي » الى بيان ذلك قال : « باب سنن العرب في حقائق الكــلام والمجاز » : الحقيقة من حق الشيء اذا وجب . وهي الكلام الموضوع موضعة ليس باستعارة ولا تمثيل ولا تقديم فيه ولا تأخير ، كقول القائل « أحمد الله على نعمه واحســانه » وهذا أكثر الكلام . وأما المجاز فمأخوذ من جاز يجوز اذا استن ماضيا ، تقول جاز بنا فلان وجاز علينا فارس ، هذا هو الأصل ثم تقول يجوز أن تفعل كذا اي تنفذ ولا يرد ولا يمنع ، وتقول عندنا دراهم وضح وازنة وأخرى تجوز جواز وازنة ، اي هي وان لم تكن وازنة فهي تجوز مجازها وجوازها لقربها منها ، فهــذا تأويل قولنــا مجاز ، أي أن الكلام الحقيقي يمضي لسننه لا يعترض عليه أو قد يكون غيره يجوز جوازه لقربه منه الا أن فيه من تشبيه واستعارة ما ليس في الأول ، (١٦٧ ــ ١٦٩ الصاحبي) .

• الزمخشرى والمجـاز العقلى :

قال فى الكشاف فى تفسير الآية الكريمة « ختم الله على قلوبهم » ما نصــه : ويجوز أن يستعار الاسناد نفسه من غير الله له فيكون الختم مسندا الى الله على سبيل المجاز وهو لغيره حقيقة ، تفسـير هـذا أن للفعل ملابسات شتى يلابس الفــاعل والمفعول به والمصــدر والزمان والمكان والمتسبب له فاسناده الى الفاعل حقيقة ، وقــد يسند الى هــذه الأشياء على طريق المجــاز المسمى استعارة وذلك لمضاهاتها الفاعل فى ملابسته الفعل (١) كما يضاهى الرجل الأســد فى جراءته فيستعار لــه اسمه ، فيقال فى المفعول به : عيشــة راضية وماء دافق وفى عكســه : سيل مفعم وفى المصــدر شعر شاعر وذيل ذائل وفى الزمان نهاره صائم وليله قائم ، وفى المكان طريق ســائر ونهر جار ، وأهل مكة يقولون : صلى المقــام ، وفى المسبب بنى الأمير المدينة ، وقال الشــاعر : اذا رد عافى القدر من يستعيرها • فالشــيطان هو الخاتم فى الحقيقة أو الكافر الا أن الله لمــا أقدره ومكنه أســند اليه الختم كما يســند الفعــل الى المتسبب •

وقال فى الآية الكريمة : « فما ربحت تجارتهم » ما نصــه : فان قلت كيف أسند الخسران الى التجارة وهو لأصحابها • قلت : هو من الاســناد المجازى وهو أن يسند الفعل الى شئ يتلبس بالذى هو فى الحقيقة له كما تلبست التجارة بالمشترين •

---

(١) فالزمخشر يجعل هــذا مجازا فى الاســناد على تشبيه الفاعل غير الحقيقى بالفاعل الحقيقى فهو عنده كالاستعارة فى التشبيه والعلاقة .. فهو ينظر الى المجاز فى الاســناد من جهــة الفاعل غير الحقيقى وانه على تشبيهه بالفاعل الحقيقى .

● الشهاب الخفاجي واسلوب المجاز العقلي :

جاء في طراز المجالس للشهاب الخفاجي م سنة ١٠٦٩ هـ ما نصه :

قال الأبهري في شرح العضد : الفاعل لابد أن يكون سببا قابليا لفعله ليصح الاسناد اليه لغة ، فاذا أسند فعل الى ما لا يكون سببا قابليا له يجعل مجازا عن فعل آخر مناسب [١] له يكون الفاعل قابليا [٢] له ، ويكفي في هذا التسبب أن يعد الفاعل سببا قابليا له في عرف العرب وعادتهم ولا يجب أن يكون محلا له في الحقيقة ، فانهم لا ينظرون في الاسناد الى ذلك ، ويرون جهة الاسناد — في نحو : سرتني رؤيتك ومات زيد وضرب عمرو — واحدة من حيث ان الفاعل فيهما سبب قابل لأفعاله عادة وإن كان موجدها هو الله حقيقة ، فقول الشيخ عبد القاهر : « الاسناد في سرتني رؤيتك مجاز اذ فاعله في الحقيقة هو الله والمعنى سرني الله عند رؤيتك ، وفي الآخرين حقيقة » بعيد لأن موجد الضرب أيضا هو الله لما ثبت من قاعدة خلق الأفعال ، وكذا محدث الموت اتفاقا لكن العرب لا يخطر ببالهم عند اسناد الضرب الى عمرو والمسرة للرؤية ان فاعلهما غير المذكور . قال الشهاب ، وهذا كلام دقيق ، ولكن فيه بحث من وجهين :

١ — كيف يتم قوله : اذا أسند فعل الى ما لا يكون سببا قابليا له يجعل مجازا عن فعل آخر مناسب له يكون الفاعل قابليا له ، فانه يقتضي أنه لو أسند الى الموجد الحقيقي كخلق الله السموات والأرض يكون مجازا وهذا يأباه العقل والنقل ، وكون هذا لا بد فيه من التجوز في الفعل أيضا لا وجه له لجواز التجوز في لاسناد ، فما وجه الحصر ؟ .

---

(١) هو هنا يجعل الاسناد غير حقيقة ، ويؤول المجاز فيجعله في الفعل ، من حيث اول الزمخشري فجعله في الفاعل ، وعبد القاهر والسكاكي والخطيب فجعلوه في الاسناد .

(٢) يرد عبد القاهر في الأسرار على نظرية ان المجاز في الفعل وحده ردا مفصلا

٢ ــ كيف يشترط فى الاسناد الحقيقى أن يكون الفاعل سببا قابليا ، دائما فى اللغة . بناء على أن الفاعل اللغوى غير الفاعل الحقيقى ، مع أن اللغة واستعمال العرب يشهد بخلافه فى مواضع كثيرة : منها ما ذكر من الاسناد للمتوحد ، ومنها أن الفعل يوضع للاعدام الصرفة كفقد وعدم وقد يسند للرجل حقيقة ما يقبله غيره ويقوم به مثل قطف ، وهذا كله يقتضى أن الحقيقة والمجاز . يدوران على اعتبار اللغة وواضعها .

والذى تحرر عندى وهو ما رد به الابهرى : أن الفاعل الواقع فى التخاطب لا سيما فى اللسان العربى هو من تلبس بالفعل وقام به أو كان سببا قابليا عاديا فى الاثبات ، أو ما هو فى حكمه ، وليس هذا على الاطلاق بل اذا كان الشيء موجدا وفاعلا حقيقيا . وكان له أمر آخر قام به أو نسب له على الوجه المذكور فانه يسند حقيقة الى الثانى دون الأول ، فان لم يكن الا الأول كخلق الله السموات يسند حقيقة الى الموجد وانما الكلام ومحل النزاع هو الأول ، ثم السبب القابل ليس المراد به ما هو كذلك حقيقة بل هو وما جرى مجراه ، ولذا عول فيه على عادة العرب فى عرف تخاطبهم ، ومن كان له دراية وطالع أساس البلاغة للعلامة وفقه اللغة للثعالبى وقف على سر هذا (٢٠٤ ــ ٢٠٦ طراز المجالس) .

* * *

● والخلاصـــة :

أن أسلوب المجاز العقلي قد اختلف فيه العلماء :

١ ـ فسيبويه ومن تابعه يقولون : هو على تقـدير محذوف ـ نام ليلى أى نمت فى ليلى .

٢ ـ وأناس يقولون : المجـاز فى الفعل وحـده وهو « قام » .... فهو فيـه مجاز لغوى لا غير ، ويرد عبد القـاهر هذا الرأى ردا مطولا فى كتابه « الأسرار » .. ولكن الأبهرى اتخذ ذلك مذهبا فى شرحه على العضد ، ورد على ذلك الخفاجى فى « طراز المجالس » .

٣ ـ وآخرون يقولون : المجاز فى الفاعل وحده وأنه على تشبيهه بالفاعل الحقيقى ، وعبد القاهر يرد على ذلك ، ولكن الزمخشرى يلوح كلامه باعتقاده هذا الرأى ، والسكاكى ذهب اليه وحده ، وجعله مذهبا له فى التخلص من المجـاز العقلى .

٤ ـ وعبد القاهر يرى أن المجاز فى الاسناد ، وأن تشبيه الفـاعل غير الحقيقى بالفاعل الحقيقى انمـا هو عبـارة على العـلاقة فى هـذا التجوز العقلى وأن تقدير المضـاف فى أسلوب المجـاز العقلى صـار كالشريعة المنسوخة ، فهو غير منظور اليه الآن ....

ولا شـك أن رأى عبد القـاهر هو أمثل هذه الآراء فى فهم بلاغة هـذا الأسلوب .

* * *

حـول المجـاز العقـلى

١ ـ الحقيقة العقلية والمجاز العقلى عنـد الخطيب من صفة الاسناد لا الكلام ، حيث قال : « ثم الاسـناد منه حقيقة عقلية ومجاز عقلى » لأن المتصف بالحقيقة والمجاز فى الواقع هو ما تسـلط عليـه التصرف

العقلى وهو الاسناد . فاتصاف الكلام بهما بالتبع للأمر العقلى وهو الأسناد ، واتصاف الاسناد بهما بطريق الأصالة ، فجعل الاسناد معروضا لهما .. وذلك أولى — لكون ذلك بالأصالة — من جعل الكلام معروضا لهما لأن ذلك بالتبع ، وكلام الزمخشرى يؤيد الخطيب . أما السكاكى فجعلهما صفتين للكلام حيث قال : « المجاز العقلى هو الكلام المفاد به خلاف ما عند المتكلم الخ » ، والحقيقة العقلية هى الكلام المفاد به ما عند المتكلم الخ » .

أما كلام عبد القاهر من قوله : « مجاز واقع فى الاثبات » وقوله « الاضافة فى الاسم كالاسناد فى الفعل » ، فظاهره أن المتصف بذلك هو الاسناد . ولكن قوله فى حد الحقيقة فى الجملة : « كل جملة وضعتها على أن الحكم المفاد بها على ما هو عليه فى العقل وواقع موقعه فهو حقيقة » ، وفى حد المجاز العقلى فيها : « فكل جملة أخرجت الحكم المفاد بها عن موضعه فى العقل لضرب من التأويل فهو مجاز » ، وقوله « لا يجوز الحكم على الجملة بأنها مجاز الا بأحد الأمرين » ، كل ذلك يوهم أنهما عنده صفتان للكلام لا للاسناد .

ولكن الحق أن عبد القاهر يجعلهما وصفا للاسناد بالذات فاذا وصف بهما الكلام فباعتبار اشتماله على الاسناد ، فرأيه مؤيد لما سبق عن الخطيب ، وهذا ظاهر مما نقله ابن الحاجب فى رأى الشيخ عبد القاهر أيضا ، من أنه يجعلهما وصفا للاسناد ، كما أن ذلك هو رأى جمهور علماء البلاغة ، ولكن السعد يرى أن عبد القاهر يجعلهما وصفا للكلام كصاحب المفتاح ، والحق أن السعد فى ذلك قد وهم بظاهر بعض كلام عبد القاهر ، فالحق أن عبد القاهر يرى أنهما وصفان للاسناد . ثم قال السعد : « قال الخطيب : وانما اخترنا أنهما صفة للاسناد لأن نسبة الشىء الذى يسمى حقيقة أو مجازا الى العقل على هذا لنفسه بلا واسطة وعلى قولهما (عبد القاهر والسكاكى) لاشتماله على ما ينسب الى العقل أعنى الاسناد ، يعنى الخطيب أن

تسمية الاسناد حقيقة عقلية انما هى باعتبار أنه ثابت فى محله ومجازا باعتبار أنه متجاوز اياه والحاكم بذلك هو العقل دون الوضع لأن اسناد كلمة الى كلمة شيء يحصل بقصد المتكلم دون واضع اللغة . فان ضرب مثلا لا يصير خبرا عن زيد بواضع اللغة بل بمن قصد اثبات الضرب فعلا له وانما الذى يعود الى الواضع أنه لاثبات الضرب دون الخروج وفى الزمان الماضى دون المستقبل [1] فالاسناد ينسب الى العقل بلا واسطة والكلام ينسب اليه باعتبار أن اسناده منسوب اليه » .. فالسعد يثبت هنا أمرين :

١ ــ أن المجاز فى الاسناد عقلى وكذلك الحقيقة فى الاسناد عقلية .

٢ ــ أن المجاز والحقيقة العقليين راجعان الى الاسناد .

فالخلاصة أنهما وصفان للاسناد الا عند السكاكى على أن كلام السكاكى ربما أمكن تأويله ، أفلا تراه يقول : المجاز العقلى هو الكلام المفاد به خلاف ما عند المتكلم من الحكم فيه لضرب من التأويل والحقيقة هى الكلام المفاد به ما عند المتكلم من الحكم فيه فيجعل مناطهما الحكم (وهو الاسناد) ، ويسميه ــ تبعا لعبد القاهر ــ أحيانا مجازا حكميا ومجازا فى الاثبات ، أفلا يدل ذلك على أن السكاكى يعتبر التجوز انما هو أولا فى الاسناد ، فيكون على هذا وصفا له ، قال السبكى : بل لا يصح من جهة المعنى الا ذلك .

الحق أن جمهور علماء البلاغة على أن المجاز والحقيقة العقليين انما هما وصف للاسناد ، وما يوهمه كلام السكاكى فمؤول ، وتأويل ما يوهمه عبد القاهر فى ذلك أظهر فى باب التأويل اذ لا يحتاج فى تأويله الى دليل .

---

(١) راجع ٣٥٥ و ٣٥٦ أسرار .

٢ ـ ذكر الخطيب المجاز العقلي في علم المعاني وذكره السكاكي في علم البيان . أما حجة الخطيب فهي أن المجاز العقلي داخل في تعريف علم المعاني لا البيان فكأنه مبني على أنه من الأحوال المذكورة في تعريف المعاني كالتأكيد والتجريد عن المؤكدات ، فهو من أحوال اللفظ ـ بواسطة أنه من أحوال الاسناد ـ التي بها يطابق اللفظ مقتضى الحال ، قال السعد : « وفيه نظر لأن علم المعاني انما يبحث عن الأحوال المذكورة من حيث انها يطابق بها اللفظ مقتضى الحال وظاهر أن البحث في الحقيقة والمجاز العقليين ليس من هذه الحيثية ـ والا لو كانا من الأحوال المعهودة لذكر المصنف الحال التي تقتضي الحقيقة والمجاز كما ذكر في غير من المباحث الآتية ـ فلا يكون داخلا في علم المعاني والا فالحقيقة والمجاز اللغويان أيضا من أحوال المسند أو المسند اليه » ، هذا اعتراض قوي من السعد ، تخلص منه بعض العلماء بحجة واهية وهي أن الخطيب انما ذكر المجاز والحقيقة العقليين هنا على طريق الاستطراد لا غير أي لا لمناسبة .

أما حجة السكاكي في ذكرهما في علم البيان فقوية ، قالوا : لما كان علم البيان موضوعا لبيان ما يعرف به كيفية ايراد المعنى الواحد بطرق مختلفة في وضوح الدلالة واختلاف الطرق يكون بالحقيقة والمجازية في الجملة ، أوردهما في علم البيان ، ولكن الخطيب ـ كما سبق ـ راعى أنهما من أحوال الكلام المفيد ، باعتبار عروضهما لاسناده الذي به صار مفيدا ، والكلام المفيد تراعى فيه المعاني الزائدة على أصل المراد ليطابق بها الكلام مقتضى الحال ، بخلاف الحقيقة والمجاز اللغويين فليسا من أحوال الكلام المفيد بل من أحوال أجزائه ، والمفيد من حيث انه مفيد بالاسناد هو المعروض للمعاني الزائدة على أصل المعنى المراد ليطابق بها مقتضى الحال كما تقدم .

قال ابن يعقوب : لكن يرد على هذا أنهما انما يكونان من علم المعاني ان ذكرا فيه من حيث المطابقة لمقتضى الحال ، ولم يذكرا فيه

من تلك الجهة والحيثية بل من حيث تفسيرهما وذكر أقسامهما ، وقد يجاب عن هذا بأن تصور حقيقتهما يدرك معه بسهولة ما يذكر في علم المعاني من كيفية الاستعمال للمطابقة لمقتضى الحال لأنه اذا علم أن المجاز يفيد تأكيد الملابسة علم أنه لا يعدل اليه عند اقتضاء المقام لذلك التأكيد مثلا فكأنه ذلك ولم يصرح به لوضوحه .

الحق مع السكاكي في عدهما من علم البيان ، وما قيل عن عدهما في المعاني تكلف محض ، ولابن السبكي رأي غريب في توجيه حجه السكاكي في عدهما من البيان ، قال : جعلهما السكاكي في علم البيان لأنه كان ينكر هذه الحقيقة وهذا المجاز فلذلك ذكرهما ثم .

٣ ـــ المجاز والحقيقة العقليان وصف للاسناد مطلقا سواء كان خبريا أو انشائيا ولهذا قال الخطيب « ثم الاسناد منه حقيقة عقلية الخ » فأتى بالاسم الظاهر دون الضمير ـــ وان كان المحل للضمير حيث كان السياق أن يقول ثم منه ـــ لئلا يتوهم عوده على الاسناد المقيد بالخبري في قوله « أحوال الاسناد الخبري ، وارتكاب الاستخدام في الكلام خلاف الأصل » ، ولا يرد أن المعرفة اذا أعيدت بلفظ المعرفة كانت عين الأولى فما لزم على الاتيان بالضمير لازم على الاتيان بالاسم الظاهر ، لأنا نقول ليس هذا كليا بل مقيد بما اذا خلا عن قرينة المغايرة . ومما يدل على أن المراد الاسناد مطلقا الأمثلة الآتية من نحو : « يا هامان ابن لي صرحا » . وليس المراد خصوص الخبري كما قد يتوهم من كون البحث في الاسناد الخبري .

والحقيقة والمجاز العقليان يقتضي ذكرهما في الاسناد الخبري وجعلهما وصفا للاسناد مطلقا ـــ انشائيا كان أو خبريا ـــ اختصاصهما بالاسناد التام ، لأن الانشاء والاخبار وصفان له . مع أنهما لا يختصان بالاسناد التام بل يكونان في الاسناد الناقص كما في اسناد المصدر للفاعل وللمفعول به مثل أعجبني ضرب زيد وجري النهر وأعجبني انبات الله البقل أو انبات الربيع البقل .

وأجاب الحفيد بأن المراد بالانشائى والاخبارى الاسناد فى الجملة الانشائية والاخبارية سواء كان تاما أو ناقصا فتناول ما ذكر ، فالمراد باسناد مطلق النسبة مجازا مرسلا من اطلاق المقيد على المطلق فان الإسناد هو النسبة التامة واستعمل في مطلق النسبة : تامة كالاسنادية أم غير تامة مثل الاضافية والايقاعية . وأجاب المطول بأن المراد بالاسناد أعم من أن يكون صريحا أو مستلزما .

قال الخطيب : والمجاز العقلى غير مختص بالخبر بل يجرى فى الانشاء ، كقوله تعالى : « يا هامان ابن لى صرحا » وقوله تعالى : « فأوقد لى يا هامان على الطين فاجعل لى صرحا » وقوله تعالى : « ولا يخرجنكما من الجنة فتشقى » .. وقد سبق الى ذلك السكاكى (١٦٩ المفتاح) .

وقال السعد نقلا عن السكاكى : لما كان تقييده بالمجاز فى الاثبات وايراده فى أحوال الاسناد الخبرى يوهم اختصاصه بالخبر لأن الاثبات لا يتحقق فى الانشاء اذ الاثبات يقابل الأنتزاع ، وكل منهما حكم ، ولا حكم فى الانشاء لأنه من قبيل التصورات ، قال الخطيب وهو غير مختص بالخبر بل يجرى فى الانشاء كما فى « يا هامان ابن لى صرحا » أى قصرا عاليا .

فالمجاز العقلى يدخل فى الخبر ، ويدخل فى الانشاء ويظهر ذلك فى دخوله فى أنواع الانشاء الآتية :

١ ـ الأمر .　　　　٢ ـ النهى .

٣ ـ الاستفهام عند ابن يعقوب لا السبكى .

٤ ـ أما النداء فلا تقدر على دخول المجاز العقلى فيه كما قال السبكى .

٥ ـ وأما غير الانشاء الطلبى : فالقسم لا تكاد تقدر عليه كما ذكره السبكى ، والعلاقة فى المجاز العقلى فى الانشاء كما هى فى الخبر ، فقد تكون السببية مثل ابن لى صرحا أو المكانية مثل ليت النهر جار أو الزمانية مثل ليصم ليلك أو الآلة مثل لتقطع السكين الخ .

٤ ـ ومما سبق الاشارة اليه فى الملاحظة السابقة نعلم أن المجاز العقلى أعم من أن يكون فى النسبة الاسنادية أو غيرها ، فكما أن اسناد الفعل الى غير ما حقه أن يسند اليه مجاز ، فكذا ايقاعه على غير ما حقه أن يوقع عليه ، واضافة المضاف الى غير ما حقه أن يضاف اليه ، لأنه جاز موضعه الأصلى ، فالمذكور فى الخطيب اما تعريفا اما تعريف للمجاز العقلى فى الاسناد خاصة أو لمطلقه باعتبار أن يجعل الاسناد المذكور فى التعريف أعم من أن يدل عليه الكلام بصريحه كما مر أو يكون مستلزما له كما فى : « شقاق بينهما » فانه جعل البين شقاقا فى الآية ، وكما فى « مكر الليل والنهار » حيث جعل الليل والنهار ماكرين ، وكما فى يا سارق الليلة أهل الدار فانه جعل الليل مسروقة ، وكما فى « ولا تطع أمر المسرفين » ، حيث جعل الأمر مطاعا ... وكذا فيما جعل فيه الفاعل المجازى تمييزا كقوله تعالى « أولئك شر مكانا وأضل سبيلا » لأن التمييز فى الأصل فاعل ، قال السعد : واعلم أن المجاز العقلى قد يدل عليه صريحا كما مر ، وقد يكون كناية كما ذكروا فى قولهم « سل الهموم » أنه من المجاز العقلى حيث جعل الهموم مخزونة بقرينة اضافة التسلية اليها ، فافهم ولا تقصر المجاز العقلى على ما يفهم من ظاهر كلام السكاكى والخطيب ، وقال الدسوقى : المجاز العقلى والحقيقة يجريان فى الاضافة مثل أعجبنى جرى الماء فى النهر وجرى النهر ، وفى الايقاعية مثل نومت ابنى فى الليل ونومت الليل أى أوقعت النوم عليه ، فلا تختص الحقيقة والمجاز بالنسبة الاسنادية كما يوهمه كلام الخطيب ، لأنهما كما يجريان فى الاسنادية يجريان فى الاضافية وهى النسبة الواقعة بين المضاف والمضاف اليه ، وفى الايقاعية وهى نسبة الفعل للمفعول فان الفعل المتعدى واقع على المفعول أى متعلق به ـ ولكن يلاحظ أن ظاهر هذا يقتضى أن الايقاعية غير تامة مع أن نسبة الفعل للمفعول انما تعتبر بعد التمام فكان الأولى الاقتصار على الاضافية الا أن يقال انهم التفتوا الى نسبة الفعل للمفعول فى حد ذاته بقطع النظر عن نسبته

للفاعل ولا شك أنهـا غير تامة •• فنحو أعجبني جرى الأنهـار من النسب الاضافية وهو مجاز عقلي وكذلك أعجبني انبات الربيع البقل ، فهمـا مجازان في النسـبة الاضافية لكن هذا اذا جعلت الاضافة بمعنى اللام وأما لو جعلت بمعنى في فلا يكون مجازا بل حقيقة ، فلا بد من النظـر لقصـد المتكلم ونفس الأمر فان كان ما قصده مناسبا بحسب نفس الأمر فحقيقة والا فمجاز •• ومجرد مناسـبة نوع من الاضـافة لا يقتضى أن تكون حقيقة ما لم يقصده •

٥ ـ حديث المجـاز العقلي أنه تجوز في الاسـناد كما قـال الخطيب أو تجوز في النسـبة أعم من أن تكون اسـنادا أو اضـافة أو ايقـاعا مصرحا بهـا أو مكنية عنهـا كمـا رأى السـعد ، فما الحكم اذا في :

(أ) وصف الفاعل أو المفعول بالمصدر نحو رجل عدل ، فانمـا هي اقبال •

(ب) وصف الشيء بوصف محدثه وصاحبه مثل الكتاب الحكيم والأسلوب الحكيم ، فان المبني للفاعل قد أسند الى المفعول لكن لا الى المفعول الذي يلابسـه ذلك المسنـد بل فعـل آخر من أفعاله مثـل أنشأت الكتاب •• فان كلامه ظاهر في أن المفعول الذي يكون الاسناد اليه مجازا يجب أن يكون بما يلابسه ذلك المسند •• وكذا ما أسـند الى المصـدر الذي يلابسه فعل آخر من أفعـال فاعله نحـو الضـلال البعيد فان البعيد انما هو الضـال وكذا العـذاب الأليم فالأليم هـو المعذب فوصف به فعله مثل جـد جده ، كذا في الكشاف وظاهر أن هذا المصدر مما يلابسه ذلك المسند •

أما الجواب عن الأول فقد قالوا : انـه ليس بحقيقة ولا مجـاز ، لأنه أسـناد الى المبتدأ ـ والاسناد اليه ليس بحقيقة ولا مجـاز عنـد الخطيب ـ هذا بعيد ، والحق أنه مجاز ، كما ذهب اليه عبد القـاهر

ومن سبقه : وكما يمليه الذوق السليم ، قال عبد القاهر فى الدلائل : « لم ترد بالاقبال والادبار غير معناهما حتى يكون المجاز فى الكلمة وانما المجاز فى أن جعلتها لكثرة ما تقبل وتدبر كأنها تجسمت من الاقبال والادبار ، فليس المراد تشبيهها بالاقبال حتى يكون تشبيها بليغا ، ولا المراد ذات اقبال ولو كان صحيح المعنى ، لأن ذلك يفيت المبالغة المقصودة للشاعر وهى كونها لكثرة وقوع الاقبال والادبار منها صارت نفس كل منهما » .

وأما الجواب عن الثانى فهو أن الملابسة أعم من أن تكون بواسطة حرف أو بدونها ، وهذه الصور من قبيل الأول لأن المعنى هو حكيم فى أسلوبه وكتابه وبعيد فى ضلاله وأليم فى عذابه فيكون مما بنى للفاعل وأسند الى المفعول بواسطة ، فهو داخل فى المفعول ليكون اسناد ما للفاعل له مجازا لأنه لا يتوصل اليه ذلك المسند الا بحرف فالمراد بالمفعول ما يتوصل اليه فعل الفاعل بنفسه أو بحرف ، فهو مجاز عقلى علاقته المفعولية .. فالخلاصة أن الاسناد فى :

(أ) الانسان حيوان ليس بحقيقة ولا مجاز عند الخطيب .

(ب) هى اقبال وادبار مجاز عند عبد القاهر والسكاكى وعند السعد .

(ج) كتاب حكيم رده السعد الى المجاز .

(د) نام ليلى أو ليلى نائم الاسناد فيه مجاز قطعا عند الجميع .

فالخطيب أخرج الاسناد الذى بين المبتدأ والخبر عن أن يكون حقيقة أو مجازا ، ولذلك قال ثم الاسناد منه حقيقة ومنه مجاز ولم يقل اما حقيقة واما مجاز ، وذلك لأن المتبادر من هذه العبارة فى تقاسيم الأشياء هو الانفصال الحقيقى (مانعة جمع وخلو معا) أو المانع من الخلو اذ بأحدهما تصير الأقسام مضبوطة ، دون المانع من الجمع اذ لا

يعلم به عــدة الأقسام قطعا ، فلو أوردت اما هنــا لدلت على انحصار الاسناد فى الحقيقة والمجاز والمصنف لا يقول به .

قال السبكى : قال الخطيب : اسـناد ما ليس فعلا ولا متصــلا به لا يسمى حقيقة ولا مجازا مثل الانسان جسم ، وليس كما قال بل كل خبر ففيه الاســناد وما ذكر يؤدى الى نفى الاســناد لأن من أثبت الحقيقة والمجاز العقليين فتقسيمه الاسـناد اليهما منفصلة حقيقة مانعـة جمع وخلو فكل اسـناد ليس حقيقة ولا مجازا لا وجود له ، ومن وقف على حدى الاســناد الحقيقى والمجازى عرف ذلك ، ثم نقول : الانسان جســم فيه معنى الفعل باعتبار رجوعه الى الاســناد المعنوى كما قدروا فى زيد أسد جرىء ، وكذلك يقدر فى الجميع .

هــذا ويجعل ابن قتيبة مثل نبت البقل وطالت الشجرة من المجاز ، ومثل قوله فى الغرابة كلام صاحب الذريعة من أنه ينفى المجاز العقلى كافة ، قال السبكى : وهما قولان غريبان آخذان بطرفى الافراط والتفريط والحق بينهما .

وقال الدسوقى : الظاهرية يزعمون عدم وقوع المجاز العقلى فى القرآن كاللغوى لايهـام المجاز الكذب والقرآن منزه عنــه .. والرد عليهم أنه لا ايهــام مع القرينة .

وقال ابن السبكى : فى أنبت الربيع البقل اذا لم يكن من كافر ولا كذبا أقوال :

(أ) المجاز لغوى فى أنبت وهو رأى ابن الحاجب .

(ب) المجاز لغوى فى الربيع وهو رأى الســكاكى .

(جـ) المجاز عقلى فى الاسناد وهذا رأى عبد القاهر والمصنف .

(د) أنه تمثيل فلا مجاز فيه لا فى الاســناد ولا فى الافراد بل هو كلام أورد ليتصور معناه فينتقل الذهن فيه الى اثبات الله تعالى وهو اختيار الامام فخر الدين . انتهى كلام السبكى ، ونضيف اليــه رأيا خامسا وهو أنه حقيقة ، وهو رأى صاحب الذريعة .

* * *

نشـأة البيـان العربى

١ ـ كان للعرب فى حياتهم الأولى ذوق وفيهم طبع ، كانوا بهما فى غنى عن الشرح والتحليل والتوجيه والتعليل لأحكام النقد ولأصول البيان العربى ومذاهبه ، وكذلك كانت أصول البيان بعيـدة عن البحث والدراسـة والتقرير •

وفى ظـلال الحيـاة الإسـلامية اختلطت العنـاصر ، وتمازجت الثقافات ، فلقحت العقول ، وأصابت الألسنة آثار من اللكنة واللحن ، وأخذ أئمـة العربية يعملون فى صبر وعزيمة فى وضع أصول النحـو العربى ، وجمع مواد اللغـة العزيزة •• وصحب ذلك وتلاه دراسـات أخـرى تتناول البيـان العربى وأصـوله ومذاهبه بالبحث والتحليل ، وأخذت تتكون من تلك الدراسـات النواة الأولى للبيان العربى ، وظل التقـدم الفكرى والنضـوج الأدبى والعلمى يسـير بهذه البحـوث والدراسـات نحو الكمال المنشـود بخطوات كبيرة •• وكانت الثقافة البيانية تنمو حين ذاك بجهود ثلاث طبقات :

(أ) الأولى طبقـة رواة وعلمـاء الأدب من البصريين والكوفيين والبغداديين ، من أمثـال : خلف والأصمعى وأبى زيد وأبى عبيـدة ويحيى بن نجيم وعمرو بن كركرة ، وأستاذهم أبو عمرو بن العلاء أعلم الناس بالعرب والعربية[(١)] ، ومن عامة الرواة الذين لا يقفون الا على البليغ الساحر من الأساليب كما يقول الجاحظ دون النحويين واللغويين والاخباريين الذين لم ينتجهوا هـذا الاتجاه[(٢)] •• وبجوار هؤلاء أئمة الشـعراء[(٣)] وغيرهم من الخطباء ورجال الأدب الذين تثقفوا بالثقافة العربيـة •

---

(١) ١/٢٠٩ البيـان .
(٢) ٣/٢٢٤ البيـان .
(٣) ١/٥٤ البيـان .

(ب) والثانية طبقة الكتاب الذين لم ير الجاحظ قوما أمثل طريقة في البلاغة منهم والذين التمسوا من الألفاظ ما لم يكن وحشيا ولا سوقيا[1] ، ورأى الجاحظ البصر بهذا الجوهر من الكلام فيهم أعم[2] ، وحكم مذهبهم في النقد[3] ، ومثلهم المعتزلة وفرق المتكلمين الذين رآهم الجاحظ فوق أكثر الخطباء وأبلغ من كثير من البلغاء[4] وكان بعضهم من عناصر عربية وتثقفوا بثقافة أجنبية ، والآخرون من عناصر أجنبية تثقفت بالثقافة العربية ، مما كان له أثره في فهم أصول البيان وفي توجيه دراسته وبحوثه وفي الدعوة الى آراء في الأدب توائم ثقافتهم وعقليتهم ، وكان بعضهم يلقن مذاهبه الأدبية العامة للتلاميذ وشداة الأدب ، كما ترى في محاضرة بشر بن المعتمر المعتزلي م ٢١٠ هـ في أصول البلاغة[5] ، والتي يقول الجاحظ عنها ان بشرا مر بابراهيم بن جبلة بن مخرمة[6] وهو يعلم الفتيان الخطابة فوقف بشر فظن ابراهيم أنه انما وقف ليستفيد فقال بشر : اضربوا عما قال صفحا ثم دفع اليهم صحيفة من تحبيره وتنميقه في أصول البلاغة وعناصر البيان[7] ، ومن رجال هذه الطبقة : أبو العلاء سالم مولى هشام وعبد الحميد الكاتب أو الأكبر كما يقول الجاحظ[8] وابن المقفع وسهل ابن هرون[9] والحسن والفضل[10] ابنا سهل ويحيى البرمكي وأخوه

---

(١) ١/١٠٥ البيان . (٢) ٣/٢٢٥ البيان .
(٣) ١/٢٤٠ البيان .
(٤) ١/١٠٦ البيان .
(٥) ١/١٠٤ وما بعدها البيان ، ٢٢٨ وما بعدها صناعتين .
(٦) يعده الجاحظ من الخطباء الشعراء ١/٥٥ البيان .
(٧) ولبشر كتاب في نظم كليلة ودمنة .
(٨) ١/١٥١ البيان .
(٩) كان سهل يقول : سياسة البلاغة أشد من البلاغة (١/١٤٤ البيان ، ٣/٣٢ العقد) .
(١٠) ذكر الحصري كثيرا من بلاغته (١٦ — ١٩ جـ ٢ زهر) .

جعفر[1] وأيوب بن جعفر وأحمد بن يوسف وعمر بن مسعدة[2] وابن الزيات وسواهم .

وكان لهذه الطبقة أثرها في بحث عناصر البيان وبلاغه الكلام .. ونستطيع أن نعرف آثار هاتين الطبقتين في دراسات البيان بالرجوع الى آرائهم المبثوثة في شتى أصول الأدب ، والتي يمكننا أن نذكر لك هنا طرفا منها ، وان شئت فاقرأ جواب صحار لمعاوية حين سأله عن البلاغه[3] ، ويروى قبل هذا بكثير أن عامر بن الظرب سأل حممة بن رافع من أبلغ الناس ؟ . فقال ، من حلى المعنى المزيز باللفظ الوجيز وطبق المفصل قبل التحزيز[4] واقرأ تحديد المفضل الضبى للايجاز[5] ، وتفسير ابن المقفع للبلاغة[6] ، وحوار الشمرى لعمرو بن عبيد فى البلاغة[7] ، وتعريف الأصمعى للبليغ[8] ، ورأى ابراهيم بن محمد فى البلاغة[9] ، وتعريف جعفر البرمكى للبيان[10] ، وتعريف العتابى للبلاغة[11] ، وتفضيل الجاحظ لرأيه[12] ، وصف الرشيد للبلاغة[13] ، ورأى شبيب بن شيبة فى تفضيل بلاغة جودة القطع أو القافية على جودة الابتداء[14] ، ووصف ابن المقفع كلام الأعراب[15] ، الذين أعجب

---

(1) وصف الجاحظ بلاغته وأشاد به (٨٥ و ١/٩١ البيان ، ٢/٨١ زهر) وكان يؤثر الايجاز (١/٨١ البيان ، ١/١٧٧ الكامل) ، ونوه به سهل بن هرون (٢/١١ زهر) .

(2) نوه المأمون ببلاغته (٣/٢٦٤ زهر) .

(3) ١/٨١ البيان ، وراجع ٢/١٨ الكامل .

(4) ١/٢١٦ العمدة ، ٢/٢٨٠ الآمالى للقالى .

(5) ١/٨١ البيان .

(6) ٩١ البيان ، ١/٢١٤ العمدة ، ١٥ ــ ١٧ صناعتين .

(7) ١/٩٠ البيان ، ١/١٤٢ زهر ، ٤٧ الرسالة العذراء .

(8) ١/٨٦ البيان ، ١/٢٢٠ العمدة .

(9) ١/٧٥ البيان .

(10) ١/٨٥ البيان ، ٤٢ ــ ٤٧ صناعتين .

(11) ١/٩٠ ، و ١/١٥٧ البيان .

(12) ١/١٢١ البيان .

(13) ٣/٢٦٤ زهر .

(14) ١/٨٩ البيان .

(15) ٢/١١٨ زهر .

الجاحظ ببلاغهم[١] ووصف الحسن بن وهب بلاغة أبى تمام[٢] ، وتعريف المأمون للبليغ بأنه من كان كلامه فى مقدار حاجته ولا يجيل الفكرة فى اختلاس ما صعب عليه من الألفاظ ولا يتعمد الغريب الوحشى ولا الساقط السوقى[٣] ، وقول خالد بن صفوان : أبلغ الكلام ما لا يحتاج الى الكلام الخ[٤] ، وتعريفه للبلاغة بأنها التقريب من المعنى البعيد أو التباعد عن خسيس الكلام والدلالة بالكبير على الكثير ، وتعريف ابن عتبة لها : بأنها دنو المأخذ وقرع الحجة والاستغناء بالقليل عن الكثير ، وعرفها الخليل : بأنها ما قرب طرفاه وبعد منتهاه ، وعرفها ابراهيم الامام : بأنها الجزالة والاصابة وعرفها ابن المقفع : بأنها قلة الحصر والجراءة على البشر ، الى غير ذلك من شتى هذه التحديدات[٥] ، ويقول أبو داود الأيادى : رأس الخطابة الطبع وعمودها الدربة وجناحاها رواية الكلام وحليها الاعراب[٦] الخ ، ويقول الخليل : كل ما أدى الى قضاء الحاجة فهو بلاغة فان استطعت أن يكون لفظك لمعناك طبقا ولتلك الحال وفقا وآخر كلامك لأوله مشابها وموارده لمصادره موازنة فافعل واحرص أن تكون لكلامك متهما وان ظرف[٧] ، ووصية أبى تمام للبحترى تدخل فى هذا الباب[٨] ، ويقول عبد الملك بن صالح م ١٩٩ هـ : البلاغة معرفة رتق الكلام وفتقه[٩] ، وقال ابن الرومى : البلاغة حسن الاقتضاب عند البداهة والغزارة عند الأصالة[١٠] ، ويقول البحترى : خير الكلام ما قل وجل ودل ولم يمل[١١] ،

---

(١) ١/١١٠ البيان .
(٢) ٣/٢٦٣ زهر .
(٣) ٤٢٣ صناعيتين .
(٤) ٣٥ و ٣٦ الرسالة العذراء .
(٥) راجع : ٤٤ — ٤٦ الرسالة العذراء ، ١/٧٥ البيان ، ٢ و ٣ و ٢٢ ، ٣/٢٣ العقد ، ١٤٠ — ١/١٥٠ زهر ، ٨٧ — ٢/٩١ ديوان المعانى ، ١٠٩ ، ٢٠٢ اعجاز القرآن ، ٢١٣ — ١/٢٢١ العمدة .
(٦) ١/١٤٧ زهر ، ١/٥١ البيان .
(٧) ٤٨ الرسالة العذراء .
(٨) ١/١٥١ زهر .
(٩) ٣/١٦٨ البيان .
(١٠) ٤١ الصناعتين .
(١١) ١/٣٦ المستطرف .

ويقول الثعالبى بعد : خير الكلام ما قل وجل ولم يمل[1] ، ويقول ابن الأعرابى : البلاغة التقرب من البغية ودلالة قليل على كثير[2] .

(جـ) وأما الطبقة الثالثة فهى طبقة المفكرين والمثقفين الذين تثقفوا بثقافة اجنبية واسعة ، وتأثروا كل التأثر بآداب الأمم الأخرى : وترجموا آرائهم فى البيان ومناهجه الى اللغة العربية ، أو ألفوا كتبا تبحث فى هذه الاتجاهات ، وهؤلاء قد عاشوا فى البيئة الاسلامية وأثروا فى النقد والأدب والبيان ودراساته وتطوره تأثيرا واضحا كبيرا ، يمكننا أن نذكر شيئا عن مجهود هذه الطبقة فى خدمة البيان :

أهم عمل علمى قامت به هذه الطبقة : هو ترجمة كتابى الخطابة والشعر لأرسطو الى العربية ، فأما الخطابة فهو آصل البلاغة ودراساتها ، وقد « أصيب بنقل قديم ونقله اسحاق بن حنين م ٢٩٨ هـ وكذلك نقله ابراهيم بن عبد الله وفسره الفارابى م ٣٣٩ هـ »[3] ، وأما كتاب الشعر فقد اختصره الكندى م ٢٥٣ هـ ، ونقله يحيى بن عدى ومتى فى القرن الرابع من السريانية الى العربية[4] ... وقد ألفوا فى صناعة الشعر ، وللكندى رسالة فى صناعة الشعر[5] ، ولأبى زيد البلخى كتاب بعنوان « صناعة الشعر » أيضا[6] ، وكذلك لأبى هفان[7] .

---

(١) ١/٢١٨ العمدة . (٢) ١/٢١٧ العمده .

(٣) ٣٤٩ فهرست .

(٤) ٣٤٩ و ٣٥٠ فهرست ، وتجد تحليلا كاملا للكتاب فى (٦٤ — ١٣٦ قواعد النقد الأدبى) ، وهو لم يصل البنا كاملا وليس من شك فى أن الكتاب جزءا ثانيا فقد (٦٨ المرجع) ، ونكاد نجزم أن أرسطو أراد بكتابه هذا أن يكون ردا على أفلاطون فى رأيه الذى ذهب اليه وهو أن الشعر عمل غير جدير بمقام الذكاء البشرى وأنه من أشد بواعث الفساد (٧١ المرجع) ، ويقول أرسطو فى أوله : « سأتكلم هنا عن فن الشعر وأنواعه المختلفة ووظائف كل نوع وفى البناء الصحيح للمنظومة وعدد أجزائها وخصائص كل منها » (٧٩ المرجع) ، وترجمة ابن سينا وابن رشد (٢٤ وما بعدها مقدمة نقد النثر) .

(٥) ٣٥٩ فهرست . (٦) ١٩٨ فهرست .

(٧) ٢٠٧ فهرست .

وهناك آراء كثيرة مأثورة عن هـذه الطبقة فى البلاغة وعناصرها وهى متفرقة فى شتى كتب الأدب ومصادره ، وتجد فى البيان والعمدة وسواهما أن صاحب اليونانيين عرف البلاغة بأنها تصحيح الأقسام واختيار الكلام ، وعرفها الرومى بأنها وضوح الدلالة وانتهاز الفرصة وحسن الاشارة ، وعرفها الفارسى بأنها معرفة الوصل من الفصل ؛ وعرفها الهندى بأنها البصر بالحجة والمعرفة بمواضع الفرصة الخ ، وعرفها أرسطو بأنها حسن الاستعارة ، ويعرفها جالينوس بأنها ايضاح المفصل وفك المشكل ، واقرأ البلاغة كما يراها حكيم الهند[1] ، ويقول حكيم : البلاغة معرفة السليم من المعتل وفرق ما بين المضمن والمطلق وفصل ما بين المشترك والمفرد[2] ، ويعرفها سقراط بأنها استكشاف الحقائق [3] ، ويقسمها الكندى ثلاثة أنواع : فنوع لا تعرفه العامة ولا تتكلم به ، ونوع بالعكس ، ونوع تعرفه ولا تتكلم به وهو أحمدها[4] ، ويقول : يجب للبليغ أن يكون قليل اللفظ كثير المعانى[5] ، وذكر بزرجمهر فضائل الكلام ورذائله فقال : فضائله أن يكون صدقا وأن يقع موقع الانتفاع به وأن يتكلم به فى حينه وأن يحسن تأليفه وأن يستعمل منه مقدار الحاجة ، ورذائله بالضد[6] الخ ، وقال أبرويز لكاتبه : الكلام أربعة : سؤالك الشىء وسؤالك عن الشىء وأمرك بالشىء وخبرك عنه ، فاذا طلبت فأسجح واذا سألت فأوضح واذا أمرت فأحكم واذا أخبرت فحقق ، وقال أيضا : واجمع الكثير مما تريد فى القليل[7] ، ولعل ثعلبا حين ذكر فى صدر كتابه « قواعد الشعر » أقسام الشعر وأنها أمر ونهى وخبر واستخبار[8] قد تأثر بذلك الرأى .

---

(١) ٧٨ و ١/٧٩ البيان ، ٢٠ — ٣٨ صناعيين ، ١/١٤٤ زهر .
(٢) ٢/٨٨ البيان والتبيين .
(٣) أصول النقد الأدبى للشايب .
(٤) ١/٢١٩ العمدة .
(٥) ١/٣٥ المستطرف .
(٦) ١٨٣ ، الموازنة .
(٧) ١٠ أدب الكاتب .
(٨) ص ١١ قواعد الشعر .

وبعد فقد تعاونت هـذه الطبقات فى خدمة البيـان ، ولها جميعا أثرها فى نشـأته وتطوره .

٢ ـ ومن الكتب الأولى التى ألفت فى دراسات البيان موضوعاته : مجاز القرآن لأبى عبيـدة ، وكتاب البيـان لابن السكيت[١] وكتاب الفصاحة للدينورى[٢] ، وكتاب التشبيه والتمثيل للفضل بن نوبخت[٣] ، وصـناعة الكلام للجاحظ[٤] ، وكتاب التمثيـل له[٥] ، ونظم القرآن أيضا[٦] وقواعد الشعر وكتاب البلاغة للمبرد[٧] ، وللحرانى كتاب فى البلاغة[٨] ، ولثعلب قواعد الشعر ، ولابن مقسم تلميذه كتاب المدخل الى صـناعة الشـعر[٩] ، وللمروزى كتـاب البلاغة والخطـابة[١٠] ، ولابن الحرون كتاب المطابق والمجانس[١١] ، ولأبى سـعيد الأصفهانى كتاب تهـذيب الفصـاحة[١٢] ، وللباحث كتاب صـنعة البـلاغة[١٣] ولمحمـد بن يزيد الراسطى المعتزلى م ٣٠٦ هـ كتاب اعجاز القرآن فى نظمه وتأليفه ولابن الأخشيد كتاب نظم القرآن[١٤] وكذلك لابن أبى داود م ٣١٦ هـ[١٥] وللحسن بن جعفـر كتاب فى الرد على من نفى المجـاز فى القرآن[١٦] .

٣ ـ وبعد فقـد كان البيان العربى فى القرن الثالث مزيجا من

---

(١) ١/٢٠٨ كشف الظنون ، وقد يكون فى هذا الكتاب عرض للأدب وألوانه كالبيـان والتبيين .
(٢) ١١٦ فهرست .
(٣) ٣٨٣ فهرست . وهو فارسى خدم المنصور والمهدى .
(٤) ٢٨ الجاحظ لمردم .
(٥) ٤١ المرجع ، ٦/٧٩ معجم الادباء .
(٦) ٤٠ الجاحظ لمردم .
(٧) ٨٨ فهرست ، ٧/١٤٤ معجم الادباء .
(٨) ١٧٨ فهرست .
(٩) ٢٦ بغية الوعاة .
(١٠) ٢١٥ فهرست .
(١١) ٢١٢ فهرست .
(١٢) ١٩٧ فهرست .
(١٣) ٥٧ و ٥٨ فهرست .
(١٤) ٣٢٤ فهرست .
(١٥) ٥٢ آلفهرست .
(١٦) فهرست أيضـا .

ثقافات وآراء مختلفة عربية وغير عربية مؤلفة ومترجمة ، من حيث كاد في القرن الثاني أن يكون عربيا خالصا . وهنا سؤالان لابد من الجواب عليهما وهما : متى نشأ البيان العربي ، وهل تأثر بثقافة أجنبية ؟

أما نشأة البلاغة والبيان فالآراء فيها كثيرة . فالدكتور طه حسين يرى أن البلاغة نشأت في عهد متأخر والجاحظ في رأيه أول من اهتم بها وهو مؤسس البيان العربي حقا[1] ، ويرى آخر أن نشأة البلاغة قديمة قد سبقت القرآن وتطورت بعده[2] وأكثر الفنون الأدبية أخذت شواهدها من القرآن[3] ، وينقد باحث هذا الرأي[4] .. ومن الضروري أن نفرق بين أمرين ، نطق العرب في آثارهم الأدبية بأساليب لغتهم المختلفة من استعارة وتشبيه وكناية ومجاز وقصر وفصل ووصل وطباق وتجنيس الخ ، ومعرفتهم العلمية بأوضاع هذه الأساليب ونواحيها البلاغية ، فالأول كان موجودا عند العرب قبل القرآن وفي عصر القرآن وبعده ، والثاني لم يوجد الا في القرن الثالث الهجري كما ذهب اليه أكثر الباحثين ، فقواعد البلاغة قد سنها الفكر أولا ليجري عليها الأدب بل ان طبيعة الأدب موجودة من قبل سواء بحثت أو لم تبحث[5] ، فالأدب وخواصه الأدبية موجودان من قديم وأما معرفة هذه الخصائص ودراستها وبحثها على أنها علم وأصول وقواعد فلم يوجد الا بعد القرن الثاني الهجري ، « فعلم البلاغة اسلامي لا عهد للجاهليين به »[6] ، والبلاغة باعتبارها فنا مدروسا أي التحليل العلمي للأساليب البلاغية ليست من علوم العصر الجاهلي انما هي دراسة متأخرة في نشأتها على انه لا شك كان هنالك في العصر

---

(١) ٣ و ٣٠ و ٣١ مقدمة نقد النثر .

(٢) ١/٤٨ النثر الفني ، ومن قبل رأى الصاحبي أن النحو والعروض نشأ من قديم (٨ وما بعدها الصاحبي) .

(٣) ١/٥٦ النثر الفني .

(٤) ١٦ وما بعدها تاريخ البلاغة العربية مخطوط بمكتبة كلية اللغة .

(٥) ٨ قواعد النقد الأدبي .

(٦) ٢٩ تاريخ البلاغة العربية .

الجاهلى وصدر الاسلام بعض الخصائص والأساليب البلاغية المتعارف عليها[١] ، وهـذا كله مما لا سبيل الى الشك فيه .

وأما الأمر الثانى وهو هـل تأثرت البلاغة العربية فى نشـأتها الأولى ببلاغة الأمم الأخرى ؟ فيمكننا بسط الحديث فيه :

يذكر ابن الأثير أن الشعر والخطابة فى الأدب العربى لم يتأثرا بثقافة اليونان البيانية « فهذا شئ لم يكن ولا علم أبو نواس شـيئا منه ولا مسلم ولا أبو تمام ولا البحترى ولا المتنبى ولا غيرهم وكذلك جرى الحكم فى أهل الكتابة كعبد الحميد وابن العميد » ، ثم ينفى أن يكون هو قد تأثر فى رسائله ومكاتباته بما ذكره علماء اليونان فى حصر المعـانى ويذكر أنه اطلع على ما كتبه ابن سينا فى الخطابة والشـعر فلم يوافق ذوقه واستجهله ورأى أن ما ذكره لغو لا يستفيد به صاحب الكلام العربى شـيئا[٢] ، ويرى باحث محدث أنه كان للبلاغة اليونانية أثر فى علم البـلاغة العربى[٣] ، ويرى آخر أن أرسـطو المعلم الأول للمسلمين فى علم البيان[٤] ، وأن الكتاب والمتكلمين الذين عاشوا فى القـرن الثانى وأثروا فى البيـان وتطـوره جلهم من الأعاجم[٥] وأن متكلمى المعتزلة كانوا بتضلعهم فى الفلسـفة اليونانية من مؤسسى البيان العـربى[٦] وأنه حتى منتصف القرن الثالث لم يوجـد الا بيان عربى واحد كان لا يزال فى دور الطفولة وكان خصبا جامعا للروح العـربى والفارسى واليونانى ثم وجـد من ذلك الوقت بيانان : عربى بحت ، ويونانى يجهر بالأخذ عن أرسـطو ، على أن البيان العـربى الصرف قد تأثر باليونان[٧] . وترجم كتاب الخطابة فى النصف الثانى من القرن

---

(١) ص ٤ و ٥ مجلة الأدب والفن نوفمبر ١٩٤٥ من مقال للأستاذ جب
(٢) ٢٠ المثـل السائر .   (٣) ١/١٧٧ ضحى الاسلام .
(٤) ٣١ مقدمة نقد النثر .
(٥) ص ٦ المرجع نفسه .   (٦) نفس المرجع .
(٧) ١١ وما بعدها نفس المرجع .

الثالث ، وجاء قدامة فاستفاد من كتاب الخطابة وفهم منه كل ما يمكن أن ينتفع به وطبقه على الشعر العربى وكان يجهل كتاب الشعر[1] وقد درس قدامة الفلسفة وخاصة المنطق[2] ، على أن تشريع الفلسفة للأدب فى رأى الدكتور يظهر أول مرة فى « نقد الشعر »[3] ثم فى « نقد النثر » الذى هو مستمد من آراء أرسطو فى الجدل والقياس والخطابة[4] .

على أننا قد بسطنا القول فى ذلك فيما سبق ورأينا أن المشتغلين بالفلسفة قد اشتركوا مع الجماعات الأخرى فى خدمة البيان العربى وانشائه والتأليف فيه وكان اتجاههم الأول الى البيان اليونانى فأخذوا يدأبون على الافادة منه فى بحوث البيان العربى ودراساته وتلقيحه بما يمكن أن يلقح به من عناصر ومناهج علمية سلكها ومهد سبيلها اليونان ، فهم قد استعانوا بطرقهم فى دراسة البيان على فهم وتحليل أصول البيان العربى والتأليف فيه .

٤ — ونحن الآن نعرض عليك خلاصة وافية لأهم الكتب التى تناولت بعض مسائل البلاغة بالبحث والتى ألفت فيها خاصة .

١ — جمهرة أشعار العرب لأبى زيد القرشى : وفى مقدمتها نجد آراء متفرقة فى البلاغة والبيان ، فهو يعرف الالتفات ويشير الى أن العرب تخاطب الشاهد مخاطبة الغائب[5] ، ويعرف مجاز الحذف ويفيض فى شرحه[6] .

(ب) الجاحظ وكتابه « البيان والتبيين » :

والجاحظ امام الكتاب وشيخ البيان وعلم من أعلام الأدب والنقد ،

---

(١) ١٧ المرجع . (٢) ١٦ المرجع .
(٣) ١٦ وما بعدها مقدمة نقد النثر
(٤) ١٧ وما بعدها المرجع .
(٥) ص ٣ جمهرة أشعار العرب . (٦) ص ٢ المرجع .

وهو من أئمة المعتزلة ، تتلمذ على النظام وسواه من فحول عصره فخرج واسع الثقافة عميق التفكير كثير الاحاطة والاطلاع على شتى المؤلفات والتراجم المنقولة من جميع اللغات الى العربية .

اتصل الجاحظ باليونان وثقافتهم من كتبهم المترجمة وعن طريق المتكلمين وبمجالسته لكثير من المثقفين باليونانية[١] ، كما أنه حذق الثقافة الفارسية من كتب ابن المقفع وسواه ، وتوسع في الثقافات كلها بما كان يقرؤه من الكتب[٢] ، وتأثر بخطابة أرسطو الى حد بعيد ومن المشابهة بينه وبين أصحاب الخطابة في الأسلوب استعماله القياس المضمر وهو المذهب الكلامي عند البديعيين[٣] ، ونقد الجاحظ التراجم والمترجمين من اليونانية وخاصة كتاب المنطق بأنه في أسلوب سقيم ، فالجاحظ ولا شك قد تأثر « بالخطابة » لأرسطو كثيرا[٤] . وأنكر باحث آخر أن يكون كتاب البيان متأثرا بخطابة أرسطو أو صدى له لأن الجاحظ لم يره[٥] وذلك ما يؤيده الدكتور طه حسين[٦] .

ومن البدهي أن الجاحظ ألم بالثقافة الفارسية ، ففي البخلاء يحكي الجاحظ كلام بخيل من أهل مرو تجاهل رجلا زاره من أهل العراق : لو خرجت من جلدك لم أعرفك ، قال الجاحظ : وترجمة هذا الكلام بالفارسية « كراز بوستت باروان بيائى نشناسيم »[٧] :

---

(١) ١/٤٠١ ضحى الاسلام . (٢) ١/٣٨٧ المرجع .

(٣) ٦٢٠ و ٦٢١ الرسالة عدد ١٩٦ من محاضرة للأستاذ حمودة في أسبوع الجاحظ ، واذا كان الجاحظ ينكر أن يكون لليونانيين خطابه (٣/١٥ البيان) فليس ذلك الا في مقام الرد على الشعوبيين وقد يكون الجاحظ لم يطلع على نصوص خطابية اليونان .

(٤) راجع ٦٢١ الرسالة العدد ١٩٦

(٥) راجع ٦٢٢ المرجع السابق .

(٦) ص ٣ مقدمة نقد النثر .

(٧) ص ١٩ البخلاء .

وأثر ثقافته الفارسية واضح في كتبه وفي مؤلفه « البيان » ؛ أما أثر ثقافته اليونانية فواضح أيضا في الحيوان وفي كتابه البيان[١] ، قرأ الجاحظ من كتب أرسطو المترجمه كتاب الحيوان واستدل برأى لأرسطو[٢] وكان مصدرا كبيرا له في كتابه « الحيوان » ، والجاحظ يذكر تعريف صاحب المنطق للانسان كثيرا[٣] ويذكر صاحب المنطق وأنه كان بكيء اللسان مع علمه بتمييز الكلام وتفضيله ومعانيه وبخصائصه[٤] . ويذكر تعاريف البلاغة عند الأمم المختلفة ومنها اليونان[٥] ويذكر كتب اليونان في المنطق وأن الحكماء جعلتها معيارا للتفكير[٦] ، ويذكر نوادر ريسموس اليوناني[٧] ويرى أن لليونان فلسفة وصناعة منطق وليس لفلاسفتهم في الخطابة ذكر[٨] ، وأقسام الدلالة عند الجاحظ[٩] هي من تفكير أرسطو ، ويذكر أن للفرس رسائلها وخطبها وألفاظها ومعانيها ولليونان رسائلها وخطبها وعللها وحكمها وكتبها في المنطق وللهند حكمها وسيرها وعللها ويرى أنها لا توازن بما للعرب من بيان وبلاغة وصناعة وخطابة[١٠] ، وللجاحظ رسالة في نقد الكندي[١١] .

ويذكر الجاحظ في البيان « صناعة الكلام » ويعني بها حينا علم الكلام[١٢] ، وحينا آخر البيان[١٣] ، ويذكر اصطلاحات أخرى كصناعة المنطق[١٤] وصناعة الخطابة ويذكر أحيانا « أصحاب الخطابة والبلاغة »[١٥] .

---

(١) وذلك في مواضع كثيرة .
(٢) ٦١/١ البيان .
(٣) ٦٩ و ١٢٨/١ البيان .
(٤) ١٥/٣ البيان .
(٥) ٧٥/١ البيان .
(٦) ٧/٣ البيان .
(٧) ١٦٥/٢ البيان .
(٨) ١٥/٣ البيان ، الظاهر أن الجاحظ لم يطلع على شيء من خطابتهم .
(٩) ٦٩/١ البيان ، وهي في ٤٠ الرسالة العذراء ، ٩ نقد النثر .
(١٠) ٧/٣ البيان .
(١١) ٤٢ الجاحظ لمردم .
(١٢) ٦٩/١ البيان .
(١٣) ١٠٨/١ البيان . ويشيد الجاحظ بصناعة الكلام (٤/٣ زهر) .
(١٤) ٧٩/١ البيان .
(١٥) ١٨٣/١ البيان .

ومهما يكن فالجاحظ فيما ذكره من أصول البلاغة العربية قريب من روح أرسطو ، فدعوته الى ترك الوحشى والسوقى[1] له نظير عند أرسطو الذى دعا الى « هجر الألفاظ الخسيسة التى لا يستعملها الا العامة[2] وقال « ينبغى ألا تكون الألفاظ سفسافة ولا مجاوزة الحد فى المتانة مبلغ الأمر الذى يدل عليه فلا تبلغ درجة العامية ولا تحوج الى الكلفة المنشوءة » ، ودعوة الجاحظ الى الوضوح[3] لها نظير عند أرسطو حيث يذكر « حسن الدلالة ووضوح العبارة وأن الاغراب مستكره وأنه يجب ألا تمعن فى الاغرابات بل يجب أن تكون العبارة بحيث يفهمها الأماثل دون اسقاط الجمهور » ، واللحن وخروجه عن حد البلاغة[4] موجود فى خطابة أرسطو حيث يوجب أن « يكون اللفظ فصيحا لا لحن فيه » ، ويذكر الجاحظ استعمال المبسوط فى مواضعه والمقصور (المحذوف الموجز) فى مواضعه[5] ، والايجاز والاطناب يوم الاطناب[6] ، وأرسطو أول من أشار الى ذلك كله فذكر الايجاز والاسهاب وأشار الى أن لكل منهما مقاما . وعلى أى حال فمرجع هذا التشابه فى الأفكار أرجح أن سببه نقل الجاحظ كثيرا عن الذين ألموا بثقافة اليونان وكتب أرسطو فى النقد وعلى الأخص الخطابة والشعر .

ومع ذلك فالجاحظ يجهل كثيرا من النظريات التى شرحها أرسطو فى كتابيه ، فأنواع البيان والأساليب البلاغية الأنيقة التى ألم بها

---

(١) ١٠٥ و ١١٠ و ١/١٧٦ البيان .

(٢) راجع الشفاء لابن سينا وكل النصوص المنقولة هنا عن أرسطو فهى منقولة من الشفاء .

(٣) ٦٨ و ١١٠ و ١/١٧٦ البيان .

(٤) ١/١٢١ البيان .

(٥) ١/٥١ البيان ، ويشير الى ذلك فى مواضع أخرى من كتابه ١٤١ و ١٤٧ و ١٦١ و ١/١٨٠ البيان) .

(٦) ١٢٠ رسائل الجاحظ ، وتبعه ابن قتيبة فذكر أن للايجاز مواضعه وللاطالة مواضعها (مقدمة أدب الكاتب) .

أرسطو[1] لا يشير اليها الجاحظ فى بيانه ، وهو على العموم لم يطلع على كتابى أرسطو ، ولا نشك فى أنه أفاد من أستاذه النظام ومن علوم الفلسفة والمنطق التى شاعت فى عصره كثيرا ، ونقل عمن اطلعوا على خطابة أرسطو ، ويكفينا ذلك التحقيق فى هذا المقام .

وبعد فللجاحظ فى البيان العربى آثار كثيرة : كرسالة فى تفضيل النطق على الصمت[2] ، وكتابه البيان والتبيين .

والبيان « أول كتاب ظهر فى الأدب جامعا لفنون كثيرة من ضروبه »[3] ، ويشيد به أبو هلال[4] ، ويعده ابن خلدون من أركان الأدب[5] ، والكتاب يبحث فى فنون الأدب والبلاغة ويتناول النقد واللغة ويأتى على ذكر الخطباء والأدباء والشعراء والمنشئين وآثارهم الأدبية وهو من أجل وثائق الأدب فى الجاهلية والاسلام[6] ، ويذكر ابن رشيق أنه لا يبلغ جودة وفضلا[7] ، ويذكر أبو أحمد العسكرى مثلا من تصحيف الجاحظ فيه[8] ، وينقد ابن شهيد الكتاب[9] ورد عليه بعض المعاصرين[10] . والكتاب يجمع بين دفتيه الكثير من بلاغة العرب وسحرهم فى البيان كما يجمع آراء كثيرة فى أصول النقد الأدبى

---

(١) كدراسته للاستعارة ، وللرباطات (حروف العطف) وأنها تجعل الكلام الكثير كالواحد ، وللجناس وسواه ، ونظرية أرسطو فى الوصل ، وهى التى يفيض عبد القاهر فى شرحها فى الدلائل . . ونصيب فى نقده للكميت فى قوله « تكامل فيها الانس والشنب » لأنه باعد فى القول (١٣٤/١ الأغانى ٣٥٥/١ الكامل) لا تنم ذلك عن معرفته بأسرار هذه الدراسات البيانية .

(٢) تجدها فى ١٤٨ — ١٥٤ رسائل الجاحظ .

(٣) ٨٠ العصر العباسى للاسكندرى .

(٤) ٦ و ٧ الصناعتين .

(٥) ٥٥٣ مقدمة ابن خلدون . (٦) ٣٥ الجاحظ لمردم .

(٧) ٢٢٧/١ العمدة .

(٨) ٥٣ و ٥٤ التصحيف والتحريف .

(٩) ١٩٨/١ ذخيرة . (١٠) ٥٠/٢ النثر الفنى .

وقوانين البلاغة العربيــة وأنواعهــا وعناصرها ومذاهبهــا واتجاهاتها وأثرها ، سواء كانت هذه الآراء من جمع الجاحظ وروايته أم من رأيه وتفكيره ، وحسبك أن تقرأ فيه البلاغة كما تتحدث عنها صحيفة هندية مكتوبة[1] ، أو كمــا يصــورها بشر بن المعتمــر[2] ، أو كمــا يراها ابن المقفع[3] ، ولهــذه النصوص قيمة كبيرة ، وقد عد بعض الباحثين الجاحظ مؤسس البيان العربي لمــا جمعه من النصوص التي توضــح لنا كيف كان العرب الى منتصف القرن الثالث يتصورن البيان العربي وتعطينا صورة مجملة لنشأته[4] .

وفي الكتاب كثير من بحوث البلاغة ، فهو يعرف الاستعارة[5] ، ويتكلم على الســجع[6] ، ويشــير الى التفصــيل والتقســيم[7] ، والاستطراد ، والكناية[8] ، والأمثال[9] ، والاحتراس[10] والقلب[11] والأسلوب الحكيم[12] ، والجاحظ فوق ذلك هو أول من لقب المذهب الكلامي بهــذا الاصطلاح[13] ، ويرى الجاحظ أن البــلاغة في النظم لا في المعاني قال : والمعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي والبدوي والقروي وانما الشأن في اقامة الوزن وتخير اللفظ وسهولة المخرج وفي صحة الطبع وجودة الســبك[14] ، وهــو ما ذهب اليــه

---

(1) ١/٧٩ البيــان .
(2) ١/١٠٤ وما بعدها البيان .
(3) ١/٩١ البيــان .
(4) ٣ مقدمة نقد النثر .
(5) ١/١١٦ البيــان .
(6) ١/١٩٤ البيــان .
(7) ١/١٧٠ و ٢/٩١ البيان ، وهو باب من أبواب البديع عند كثير من علماء البلاغة راجع ٧٨ نقد الشعر ، ٣٣٢ صناعتين .
(8) ١/١٨٠ و ١ و ٢٩ و ٣١ و ٣/٨٥ البيان .
(9) ٨٦ و ٨٨ و ١١٤ و ١٨٣ و ٢/٢٢٤ البيان .
(10) ١/١٦١ وما بعدها البيان .
(11) ١/١٨٠ البيــان .
(12) ٢٠١ و ٢٠٢ جـ ٢ البيان ، ويقرب من الأسلوب الحكيم ما يسميه الجاحظ « اللغز في الجواب » (٢/١١٦ البيان) .
(13) ١٠١ البديع ، ٢/٧٦ العمدة .
(14) ٣/٤٠ الحيوان .

ابن خلدون[1] ، ويقول شيلر : فى الفن الشكل هو كل شيء والمعنى ليس شيئا مذكورا .. وفى البيان نصوص كثيرة استغلها علماء البيان والبديع فى اختيار شواهد أساليب البلاغة منها ، مما لا داعى الى ذكره هنا خوفا من كثرة الاسهاب ، والجاحظ يشيد بالايجاز ويدعو اليه كثيرا فى بيانه[2] ، وفى الحديث عن رسول الله : اذا قلت فأوجز واذا بلغت حاجتك فلا تتكلف[3] ، ويحث على ترك الوحشى والسوقى وعلى الافهام والوضوح ، وعلى ترك التعمق والتهذيب فى صناعة الكلام ، وعلى أى حال فالبيان والتبيين أثر أدبى وعلمى نفيس ، والجاحظ يده على البيان العربى لا تجحد ، ويعده ابن خلدون من السابقين فى التأليف فيه[4] .

وبعد فالجاحظ أظهر من خص البيان بالتأليف وهو أعظم السابقين الى جمع وتدوين آراء رجال البيان والبلاغة ، وله مع ذلك آراء كثيرة وصل اليها بفكره وذوقه وملكته البيانية الدقيقة الاحساس بالأساليب البلاغية ودقائقها ، ولا يضير الجاحظ أن كانت دراساته فى كتاب البيان موجزة مفرقة كما يقول أبو هلال[5] ، فهى على كل حال ذات أثر كبير فى نشأة البيان .

(ج) وقد كتب بعد الجاحظ كثير من العلماء فى مسائل تتصل بالبلاغة والبيان : كالمبرد فى كامله ، وابراهيم بن المدبر فى الرسالة العذراء ، وثعلب فى قواعد الشعر ، وابن عبد ربه فى العقد ، وسوى هؤلاء مما يطول الحديث لو فصلنا القول فيه .

* * *

---

(١) ٥٧٧ مقدمة ابن خلدون .
(٢) ٨٠ و ٨٦ و ١١٤ و ١٥٢ و ١٨٧ و ٢/١٩٨ البيان .
(٣) ١/٥ الكامل للمبرد .
(٤) ٥٥٢ مقدمة ابن خلدون .
(٥) ٦ الصناعتين .

الجاحظ والبيان العربى

— ١ —

كان الجاحظ أستاذ الثقافة الاسلامية فى النصف الأول من القرن الثالث ، وكان مجده الأدبى الذائع يعصف بمجد كل أديب ، ويدوى فى كل أفق ، ويرن صداه فى سمع كل كاتب وشاعر وخطيب .

وعاش الناس فى عصره وبعد عصره عيالا عليه فى البلاغة والفصاحة واللسان والعارضة كما يقول ابن العميد ، وعدوا التلمذة عليه شرفا لا يعدله شرف ومجدا يدنيهم من بلاط الملوك ، وتعصب له كثير من رجالات الثقافة الاسلامية فى شتى عصورها ، فألفوا الكتب فى الاشادة به — كما فعل أبو حيان التوحيدى فى كتابه تقريظ الجاحظ — ، وبالغوا فى الاشادة به والثناء عليه حتى حسد ثابت بن قرة الأمة العربية عليه ، وحتى كان الخلفاء يهشون عند ذكره ونهج كبار الكتاب نهجه فى الثقافة والبيان ، وكان فخر الرجل فى أن يلقب بلقبه ، وأقبلوا على كتبه وأدبه يتثقفون بثقافتها ويرونها تعلم العقل أولا والأدب ثانيا ، وبلغ من اهتمام خاصة رجال الفكر الاسلامى بها أن كانوا يسألون الناس عن المفقود منها فى البيت الحرام وعرفات ، وكان معاصروه يحذرون خصومته حتى لا يسمهم بميسم الخزى والهوان الى الأبد ، ومن سباء جده منهم فكان هدفا لسخريته اللاذعة سار على الأجيال صورة مشوهة واساءة لا يغفرها الزمن كما فعل الجاحظ مع أحمد ابن عبد الوهاب بطل رسالته الساخرة المتهكمة « التربيع والتدوير » .. وحسبك أن المأمون كان يقرأ تآليف الجاحظ ويثنى عليها ويستجيدها[1] .

---

(١) ٣/٢١١ البيان نشر السندوبى ط ٩٢٧

ومجد الجاحظ الأدبي مجد خالص من شوائب العصبية وتمويه السياسة وهو مجد بوأه صرحه الخالد : كفاءته الممتازة وثقافته النادرة وآثاره الفكرية والأدبية الممتعة ، فقد عاش الجاحظ محروما من كل شيء الا من مجد الأدب ، وشهرة العلم ، ولم تبوئه مواهبه مقاعد الوزارة التي كان يصعد اليها في عهده كثير من الكتاب ، ولم تنله كفايته الأدبية منزلة في ديوان رسائل الدولة ، ولما صدر فيه أيام المأمون لم يبق فيه غير ثلاثة أيام استقال بعدها منه ، أو قل انه حورب فيها من أجله حذرا من أن يأفل به نجم الكتاب كما كان يرى سهل بن هارون ، الاخفاق في الحياة العامة الذي مني به الجاحظ في عصره كان مما نعاه ابن شهيد عليه في رسالته « الزوابع والتوابع » ، ومما جعله يخطيء من يذهب الى تقديم الجاحظ على سهل بن هرون ، وان كان تحكيم التوفيق في الحياة في وزن الشخصيات وتقديرها ضلال وغبنا .

ولكن ما سر هذا الاخفاق مع هذه الشهرة البعيدة والمجد الذائع ؟ رأى ابن شهيد من قبل أن حرمان الجاحظ من شرف المنزلة بشرف الصنعة مع تقديم ابن الزيات وابراهيم بن العباس اما لأنه كان مقصرا في الكتابة وجميع أدواتها أو لأنه كان ساقط الهمة أو لأن دمامته وافراط جحوظ عينيه قعد به عن الغايات المنشودة ، ورأى أن نقص أدوات الكتابة عند الجاحظ شيء قد يكون غريبا فذهب الى أن أول أدوات الكتابة العقل وقد تجد عالما غير عاقل .

أما أن الجاحظ ينقصه أداة — أيا كانت هذه الأداة — من أدوات الكتابة فذلك ما ترده الحقيقة المقررة ، فعقل الجاحظ وفنه الأدبي وطبعه الموهوب أعظم من أن يتطرق اليه فيها شك وريب . وأما أن الجاحظ كان قريب الأمل غير بعيد الطموح ، لا يتطلع الى مجد ينشده أو جاه سلطان يناله ، فذلك بعيد عن الجاحظ وحياته وروحه الوثاب الطموح . وأما أن دمامة الجاحظ كان لها أثر في هذا الاخفاق

فذلك أحد ما نراه من أسبابه الكثيرة حتى انه ذكر للمتوكل لتأديب بعض ولده فلما رآه واستبشع منظره صرفه وأمر له بعشرة آلاف درهم •

الحق أن الجاحظ كان عربيا في روحه ودمه وحياته ، وكان يتعصب للعرب في كل شيء حتى في الثقافة والأدب في عصر كان النفوذ والسلطان في الدولة فيه للعناصر الأجنبية لا سيما الفرس ، وكثيرا ما كان ينسى أولو الثقافة والكفايات من العرب الا من اتصل منهم بحبل وزير أو أمير ، والجاحظ مع صداقته الوثيقة لمحمد بن عبد الملك الزيات الوزير م سنة ٢٣٣ هـ ، والذي أهدى له كتابه « الحيوان » وكافأه عليه بخمسة آلاف دينار ، كان يتخلل هذه الصداقة الشك والجفاء ، ولم يستطع أو لم يتسن له ، أن يستفيد شيئا من وراء هذه الصداقة ، وقتل محمد بن عبد الملك وجاء بعده عدوه اللدود أحمد ابن أبي دؤاد الذي سبق اليه الجاحظ مغلولا لأنه كان من أصحاب محمد بن عبد الملك ، ثم فك قيوده وطلب حديثه وبيانه وثوقا منه بظرفه وأدبه لا باخلاصه وولائه •

ثم لا ننس أن مواهب الجاحظ مواهب عالم وأديب لا مواهب رجل من رجال المجتمع والسياسة والحياة العامة ، وقد رفعته مواهبه العقلية والعلمية والأدبية مكانا عليا ما كان ينتظر أن ترفعه اليه السياسة مهما حلق في أجوائها ، وكان اخلاص الجاحظ للفكر والثقافة أعظم من اخلاصه للحياة نفسها ، وكان خوضه في معامع الثقافة والعلم يشغله عن الخوض في ميادين السياسة والاجتماع ، وكانت لذته في الدراسة والبحث والتأليف أكثر من لذته في مجد السياسة وسلطانها ، فالجاحظ أولا وقبل كل شيء هو رجل الثقافة والأدب ، وهو المعتزلي الذي تتلمذ على النظام ثم عاف تقليد غيره في العقيدة فكان صاحب مذهب ورئيس فرقة من فرق المعتزليين ، وهو المتكلم الساحر والكاتب البليغ والخطيب المفوه والعالم الفذ والمؤلف النابه وشيخ العربية

الذى وعى الثقافة العربيــة وما خالطهــا من الثقافات فى شــتى علوم الدين والدنيــا ، وهضمها وعاصرها زهاء قرن (١٥٠ ــ ٢٥٥ هـ) . وكان له فى صــدر شبابه فخر التلمذة على شـيوخها فى اللغة والأدب وفى علوم الدين والكلام وفى التفكير والمنطق كمــا كان له صــداقة رجال الفكر والسياسة فى الدولة ، وقد اســتفاد من وراء هذا وذاك نضوجا كبيرا فى عقليته وثقافته هيأه لأن يكون محور الثقافة الاســلامية فى عصره لا بطلا من أبطال السياسة والدولة والاجتماع .

ولا يضير الجاحظ أن يكون كما قال بديع الزمان الهمذانى فيه من أحد شــقى البلاغة يقطف وفى الآخر يقف[1] ، فقد يجيــد الرجل فى باب من أبواب الأدب دون باب ، ولا يغض ذلك من احسانه فيما أحسن فيه ، ولكن البديع أراد الفخر بنفسه على حساب الجاحظ ، وليته وقف عند هــذا الحد فلم يرم الجاحظ بأن كلامه بعيــد الاشارات قليــل الاســتعارات قريب العبارات وأنه منقاد لعريان الكلام يســتعمله نفور من معتاصه يهمله ، وأنه ليس له لفظة مصنوعة أو كلمة غير مسموعة[2] . وانما أراد البديع أنه فوق الجاحظ أدبا وبيانا ، وهيهات !

وثقافة الجاحظ ثقافة واســعة منوعة تحيط بسائر ألوان الثقافات التى مازجت الثقافة الاســلامية فى عصره ، فهو عالم من علماء الدين ، ومتكلم من الطراز الأول للمتكلمين وعالم يحيط باللغــة وبيانها وآدابها احاطة لا تقف عنــد غاية ، وقد خاض الجــاحظ فى جــداول الثقافات الأخرى التى سرت فى تيــار الثقافة العربية منــذ مشرق القرن الثانى الهجرى ، وعقلية الجاحظ البعيــدة التفكير لا نشك أنها أفادت ذلك من أســتاذه النظام ومن علوم الفلســفة والمنطق التى شاعت فى البيئــة الاســلامية فى عصر الجاحظ . ولا شــك أن عصر الجاحظ ، وعقليته وشــغفه بالدراسة والبحث ، وعكوفه على القراءة ، ونشأته بالبصرة ،

---

(١) ص ٨٢ مقامات البديع ــ المقامة الجاحظية .

(٢) ص ٨٢ و ٨٣ المرجع .

وتلقيه اللغة من الأعراب فى المربد والعلمـاء فى حلقات البصرة ومجامعها العلمية ، وتلمذته على كثير من أسـاتذة الثقافة فى شتى مناحيها كأبى يوسف القاضى والنظام والأصمعى والأخفش وابن الاعرابى وأبى عبيدة . وأبى زيد الأنصـارى ، كان له أثره فى ثقـافة الجـاحظ الواسـعة الجوانب المتعددة الألوان .

وشخصية الجاحظ تطالعك فى أدبه وكتبه من كل جانب وناحية ، وهى شخصية رجـل الفكر الواثق بشخصيته وعقليته وثقافته ، المؤمن بهـا ، الحريص على كرامته ، المعتز بنفسه ... يخاطب الوزراء والعظماء ويراسـلهم ، فلا ينفى شخصيته فى شخصياتهم ، بل يراهم اخوانه ، ويرى له عليهم حق الصـداقة ودالة الأخرة ، ولا يجبن عن توجيه العتاب واللوم اليهم ، وأنت حين تقرأ فى كتب الجاحظ ومؤلفاته تغيب فى جو بعيـد تطل عليك فيه شخصية الرجل ، بسـعة ثقافتها وبعد مكانتها ، وبتوجيهها السـاحر القارىء وفكره وشـعوره حتى ليكاد ينسى أمامها نفسـه ، ويشعر شعورا صادقا أنه قد تقلك من جوه هو الى جو آخر تشـيع فيه روح قوية سـاحرة تملك عليك عقلك وعاطفتك ، وتروعك بكثرة حفظها وروايتهـا ، كما تروعك بروعة فكرها وجـلال بيانها ، وتتركك صريعا فى معارك فكرية ترى الجاحظ فارسها المعلم ، وترى قلمه البليغ عصا السـاحر المتحدى تسترعى السـمع والبصر ، وتبهت الفكر والعقل ، وتلهب العاطفة والشـعور .

والعجيب أن سـعة ثقافة الجاحظ وكثرة روايته فى تآليفه جعلت كثيرا ممن لا يفهمـون الجاحظ يرونه كاتبا لا شـخصية له ، تطمس شخصيات من يروى لهم وينقل عنهم كل أثر لشخصيته ، فتقرأ الجاحظ وأنت تقرأ لسواه وتبدو أمام عينيك صور شتى لرجال لا ترى الجاحظ فيهم ولا تلمس آثاره بينهم .

ومنشـأ ذلك أن الجاحظ رجل من الخاصـة فى فكره وفى كتابته وأسـلوبه وفى بحثه وتأليفه ، فاذا فكر فبعقل الخاصـة ، واذا كتب

أو ألف فبأسلوبهم ولمن يفكر في مجال تفكيرهم ، وليس ذلك لأن الجاحظ « يستمسك بفائدته ويضمن بما عنده غيرة على العلم وشحا بثمرة الفهم ولذلك كان كتاب « البيان » موقوفا على أهله ومن كرع في حوضه ، أما الجاهل والمبتدئ فلا نفع له من كتابه » كما يقول ابن شهيد، انما ذلك لأنه كما أرى لا يستطيع الا أن يفكر تفكير الخاصة ، ويكتب بعقلهم وأسلوبهم ، ولأنه رجل يكتب لنفسه قبل كل شيء ويرضى شهوته في تدوين عناصر الثقافة الأدبية والعلمية على طريقة كتابة الموسوعات • كما يرى بعض الباحثين المعاصرين(١) ، وما دام الجاحظ كذلك فلن يستطيع أن يفهمه الا رجل مثله في فكره واتجاهه وثقافته ، ولن يتسنى لكثير أن يفهموا الجاحظ وأن يؤمنوا بشخصيته في كتبه ومؤلفاته ما داموا لا يستطيعون مجاراته في نواحي ثقافته العقلية والأدبية • وحسب الجاحظ مجدا وخلود ذكر أن يكون له كتاب مثل كتاب البيان والتبيين •

* * *

— ٢ —

ألف الجاحظ كتابه « الحيوان » وأهداه الى صديقه محمد بن عبد الملك الزيات ، فكافأه عليه بخمسة آلاف دينار • ثم ألف بعده كتاب « البيان » وأهداه الى أحمد بن أبي دؤاد فأعطاه عليه خمسة آلاف دينار ، والجاحظ يشير في مواضع متعددة من البيان الى كتاب الحيوان ، وكان لظهور « البيان والتبين » ضجة كبيرة في الأدب والبيان حتى انه حمل الى الأندلس فيما حمل من نفائس المؤلفات •

وكتاب « البيان » ألفه الجاحظ على نمط طريف في التأليف ، من كثرة الرواية التي قصد الجاحظ من ورائها أن ينال كتابه الشهرة والاعجاب كما يقول الجاحظ نفسه في كتابه ، وينال كتابه الذكر

---

(١) ٢/٤٩ النثر الفني •

والذيوع ، ومن كثرة الاستطراد الذى يستدر به الجاحظ نشاط القارىء واعجابه كما يقول الجاحظ فى تعليله له ، والجاحظ حين يعلل عدم ترتيبه للخطبـــاء الذين ذكرهم فى كتابه ترتيبـــا يتمشى مع التاريخ يعجزه عن تنســـيق ذلك فان ذلك يقابل بتحفظ كبير ، فالجاحظ لو أراد لمـــا أعجزه انما هو مذهبه فى الاستطراد والانتقال .

ويبدو من أسلوب الكتاب أن الجاحظ كان يكتب أصوله ــ أو كثيرا منها ــ محاضرات يلقيها على تلاميذه وطلابه وقد يسبغ عليهـــا أحيانا روحا توائم بين هذه المحاضرات وبين ما يجب لمن أهدى اليه كتابه من تقـــدير واجلال ، وأسلوب الكتاب الاستطرادى جعل الجاحظ يعدنا فى كتابه بأنه سيذكر الشىء ثم لا يذكره ولا يفى بوعده ، وهذا الأسلوب الاستطرادى أيضا جعل الجاحظ يتقد نفســـه فى ترتيب فصـــول كتابه وجعله يرســـم منهجه فى أجزاء كتابه فى آخر الجزء الأول منه ، وجعله يضع فى أماكن متعـــددة من كتابه عناوين مختلفـــة تقابل من القارىء بمزيد الابتسام ، فهو يعنون فصـــولا بباب البيان وأخرى يسميها باب الصمت وأخرى باب اللحن أو باب الزهد الى آخر هذه الألقاب التى تعلم أن الجاحظ لم يرد شـــيئا منها ولم يضعها الا للتغرير بالقـــارىء واكتساب نشـــاطه وامتحان ملكاته .

وكتاب « البيـــان » يجمع بين دفتيـــه الكثير من بلاغة العـــرب وسحرهم فى البيان كما يجمع آراء كثيرة فى أصول النقد الأدبى وقوانين البلاغة العربية ، وقد نهج فيه الجاحظ منهجه الســـاحر ، وكتبه بأسلوبه العميق المحكم ، ورســـم فيه صورا صادقة لروح الأدب والبلاغة الى عهده ، والكتاب ســـجل للأدباء والشـــعراء والخطباء حتى عصر الجاحظ وهو ذو قيمة فذة فى تاريخ الأدب والأدباء لا سيما المعاصرين للجاحظ ومن سبقوه بقليل ، وقد عنى فيه الجاحظ بتدوين المثل الســـاحرة من الأدب العربى : شـــعره ونثره ، وقاده الاســـتطراد الى الالمـــام بكثير من مسائل الأدب والنقد والبيان .

يبدأ الجاحظ كتابه بمقدمة يذكر فيها البيان وشرفه ويلم فيها بالكثير من عيوبه الفطرية وسواها فى استطراد جميل ، ثم يشرح البيان ويحلل عناصره ، ويذكر البلاغة ومذاهب رجال البيان فيها ، ويبين الصلة بين البليغ ومظهره ، ذاكرا بلاغه الخطيب وعناصرها وأدواتها ، ملما بالكثير من الخطباء ، داعيا الى قوة الطبع وشرف المعنى وجمال اللفظ والى مراعاة شتى المقامات والأحوال ، مبينا أثر هذه البلاغة فى النفس والوجدان ، ويتكلم على الحديث المردد ومن عابه ومن مدحه ، وعلى الصمت : من أشاد به ومن ذمه داعيا البليغ الى أن لا يتمسك بحكمة الصمت حتى لا يورثه ذلك العى والحصر ، ويدعو الأدباء الناشئين الى أن يعرضوا انتاجهم الأدبى على أولى الذوق والبيان حتى يعرفوا قدر أنفسهم ومنزلتها فى البيان ، كما يتحدث عن السجع : مطبوعه ومتكلفه وعن منزلته الأدبية ، محللا عناصر الشعر نافيا أن يكون ما فى القرآن من كلمات موزونة شعرا ، ملما بطبقات الشعراء وألقابهم ، وينعى على المتقعرين ، ويسرد أحاديث النوكى والحمقى سردا بليغا ، وبذلك ينتهى الجزء الأول من الكتاب الذى أودع فيه الجاحظ جل ما أورده من بلاغة البيان وعناصرها وألوانها ومذاهبها وأسبابها .

أما الجزء الثانى فتحدث فيه عن الخطابة وأقسامها وأثرها ، وألم فيه بسحر بلاغة رسول الله فى أحاديثه وخطبه ، وبخطب كثير من جلة الصحابة والسلف الأولين ، وتكلم عن الحوليات وطبقات الشعراء ومذاهب المطبوعين وأصحاب الصنعة ، كما تكلم على اللحن واللحانين والنوكى والحمقى والمجانين .

وفى الجزء الثالث يرد على الشعوبية مطاعنها التى قدحت بها فى العرب لا سيما ما نعوه عليهم من أخذ العصا والقوس عند الخطابة وفى مواقف الكلام ، ورد الجاحظ على الشعوبية فيه كثير من حرارة الايمان التى أذكت فى دفاعه روح الجدل وقوة المناقشة وسعة التفكير . وينقل الجاحظ كثيرا من حكم النساك ومواعظهم ، وخطب الخوارج

وكلماتهم ، وسياسة بني العباس ودهائهم ، ويتحدث عن رواية الأدب واتجاهات الرواة وطبقاتهم ، وعن كلام رسول الله وسحر ايجازه وبعده عن مذاهب العرب في شعرها ، وعن أمية رسول الله مع بلاغته وعن مجد الشعر وأثره ومكانته الى غير ذلك من شتى الآراء ، ويختم الجاحظ كتابه بهذه الكلمة الجامعة : « وهذا أبقاك آخر ما ألفناه من كتاب البيان والتبيين ونرجو أن نكون غير مقصرين فيما اخترناه من صنعته ، وأردناه من تأليفه ، فإن وقع على الحال التي أردنا والمنزلة التي أملنا فذلك بتوفيق الله ، وان وقع بخلافها فما قصرنا في الاجتهاد ولكن حرمنا التوفيق والله أعلم » .

وبعد فكتاب البيان ثمرة من ثمرات الرجولة المكتملة التي أحاطت بالجاحظ بعد أن ودع شبابه واستقبل عهد المشيب ، وهو لذلك آية من آيات الطبع المتمكن والذوق السليم والاحاطة التامة بالبيان وبلاغته ، وليس ذلك بكثير على الجاحظ شيخ العربية الفذ وبطلها الكبير .

وأثر « البيان » وقيمته مما يعسر على الباحث تفصيله وايفاؤه فيها حقه من التقدير والانصاف ودقة الحكم :

فكتاب البيان أصل من أصول الأدب وهو في أسلوبه وفي نهجه وفي رواياته وفي آرائه الأدبية خير معين لطلاب العربية والمتخصصين في آدابها .

وقيمته في البيان العربي خطيرة لما أودع فيه من شتى البحوث والآراء في البلاغة وعناصرها واتجاهاتها ومذاهبها وألوانها وغاياتها وأثرها سواء كانت هذه الآراء من جمع الجاحظ وروايته وتدوينه أم من ابتكاره ورأيه الشخصي واتجاهه الأدبي المستقل ، وفيما جمعه الجاحظ من ذلك الكثير مما لا يزال محل اعجاب الباحثين وتقديرهم ، وكفى أن تقرأ فيه : البلاغة كما تتحدث عنها صحيفة هندية مكتوبة ، أو كما رآها ابن المقفع أو كما تحدث عنها بشر بن المعتمر في صحيفة من تحبيره

وتنميقه الى غير ذلك من شتى الآراء التى كتبهـا الجاحظ مستقبلا بالتفكير فيهـا .

واذا كان للجاحظ فخر التلمذة والرواية ــ فى كتابه ــ عن شيوخ العربيـة وأدبائها كالأصمعى وأبى عبيـدة وابن الأعرابى وابن سـلام وأبى العاصى ، وكابراهيم بن السـندى وعبد الكريم بن روح الغفارى ومحمد بن بشير الشـاعر ، وكثمامة والنظام ، وسوى هؤلاء وهؤلاء ، فيجب أن لا ننسى أنه قد كان لعلماء الأدب والبيان الذين جاءوا بعـد عصر الجاحظ هذا الفخر نفسه بالتلمذة عليه وعلى كتابه « البيان » .

فابن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٦ تبع فى كتابه « الشعر والشعراء » الجاحظ فى مذهبه الأدبى من ايثار الطبع والرونق والمـاء والبعد عن التكلف والاستكراه والتعقيد .

ومؤلف نقد النثر يبدو فى كتابه أثر الجاحظ ، وهو وان كان نقـد « بيان » الجاحظ فى أول كتابه الا أنه قد تأثر به الى حد كبير ، فكلامه على أنواع البيان ونظره اليه نظرة واسـعة أعم من البيان بالعبارة هو صنيع الجاحظ فى كتابه ، ويتكلم على اختيـار مواقع الكلام وأوقاته ومناسـبته للسامعين ومطابقة الكلام للمقـام[1] وتلك آراء الجاحظ ، ويرى أن اللحن يستحسن من الجوارى وأن من الصواب معرفة أوقات الكلام والسكوت وأقدار الألفاظ والمعانى بأن يلبس المعنى ما يليق به من اللفظ ، كمـا يرى أن من أوصاف البلاغة أن يتسـاوى فيها المعنى واللفظ فلا يكون اللفظ الى القلب أسـبق من المعنى ولا المعنى أسـبق من اللفظ ، وتلك كلها آراء الجاحظ ، الى غير ذلك من كثير من مظاهر التأثر والاحتذاء .

وكذلك دعا الآمدى الى المذهب الأدبى الذى دعا اليـه الجاحظ فى كتابه البيان .

---

(١) ٩٦ نقـد النثر .

ودعوة أبي الحسن الجرجاني في وساطته الى ترك التكلف والاسترسال مع الطبع[1] ، والى تقسيم الألفاظ على رتب المعاني هي دعوة الجاحظ في بيانه ، وان كانت مظاهر التأثر بالجاحظ تبدو معدومة في الوساطة .

وأبو هلال العسكري في « الصناعتين » متأثر بالجاحظ وكثير الافادة منه ومن كتابه « البيان » . وكتاب « الصناعتين » سير في السبيل الذي عبده الجاحظ واتمام لما بدأ به ، وكثير من آراء الجاحظ نجدها في الصناعتين وإن كان للصناعتين ميزة شرحها والتعليق عليها ، وقد ينقلها نفسها ، وقد يستدل بها ، وينقل وصية بشر بن المعتمر ويشرحها ، وعلى العموم فالجاحظ هو المرجع الأول لأبي هلال .

وكذلك ابن سنان الخفاجي ينقل في كتابه « سر الفصاحة » عن الجاحظ كثيرا .

وعبد القاهر الجرجاني شديد التأثر بالجاحظ وكتابيه « الحيوان » « والبيان » . يأخذ عنه كثيرا من آرائه بدون ذكر له ، وقليلا ما يشير اليه ، فكلام عبد القاهر عن البيان يتجلى فيه روح الجاحظ ورأيه في أن فضيلة الكلام لنظمه لا للفظه ولا لمعناه هو روح كلام الجاحظ ، وعبد القاهر ورأيه في السجع متأثر بالجاحظ ، وبلاغة الألفاظ من أن تكون مألوفة ليست وحشية ولا سوقية دعا اليها الجاحظ قبل عبد القاهر ، وتعريف عبد القاهر للبلاغة هو روح الجاحظ في بيانه ، وايثاره من الكلام ما كان معناه الى قلبك أسرع من لفظه الى سمعك مما سبقه اليه الجاحظ وينقل عبد القاهر عن الجاحظ كثيرا ، الى غير ذلك من مظاهر التأثر الكثير .

ولكتاب البيان كذلك أثره في النقد الأدبي فهو سجل حافل للآراء

---

(١) ٣٠ من كتاب الوساطة .

المختلفة فى النقد مما لا يزال الى الآن موضـع البحث والاعجاب .. والجاحظ الذى نقد مذاهب أصحاب الصنعة من الشعراء وآثر عليها مذهب المطبوعين كان يضـع بذلك أساسا كبيرا لعـلم النقد وتطـوره الأدبى .. وعصرنا الحديث يؤمن كل الايمان برأى الجاحظ ويسير فى تياره الفكرى والأدبى كما يسير على ضوئه فى البيان العربى وبلاغته .

* * *

— ٣ —

كان للعـرب فى حياتهم الأولى ذوق وفيهم طبع ، وكانوا بهـذا الطبع وذلك الذوق وفى مثل بيئتهم البدوية فى غنى عن الشرح والتحليل والتوجيه والتعليل لأحكام النقد الأدبى والأصول البيان العربى ومذاهبه واتجاهاته . كانوا يسـمعون النص الأدبى فيوحى اليهم طبعهم بكل شىء ، ويرون من يسـمع منهم ويأخـذ عنهم فى غنى بذوقه وطبعه عن كل شىء ، ولذلك بقيت أصـول النقد والبيان بعيـدة عن البحث والدراسـة والتقرير .

وفى ظلال الحياة الاسـلامية اختلطت العناصر وتمازجت الثقافات وتجاورت الطباع والأذواق ، فسرت العدوى فى البيئة العربية الخالصة ، وظهرت فى مظهر من اللكنة المسـتهجنة ومن الخطأ المردود فى اشتقاق بعض الكلمات العربية وتصريفها وفى اعرابها وأشكال الحرف الواجبة لها ، فسرت بين علماء الدين والعربية روح من الجد والاقدام والعزيمة التى صممت على تلافى آثار هذه العدوى حتى لا تمس العربية فى صميمها وفى كتابها المقدس الحكيـم ، وظهرت لذلك الدراسـات النحوية ثم اللغوية بمظهر جاد لا وناة فيه . بيد أن ذلك لم يثن رجال الأدب عن غاياتهم ، ولم يحل بينهم وبين اتجاهاتهم وطبائعهم ، فكثر النقد الأدبى ودخلته روح جديدة من البحث والتوجيه والتعليل ، وتكونت من ذلك أصول أدبية موجزة لها قيمتها فى الأدب والنقد والبيان .

وبعد أن أشبع الفكر الاسـلامى رغباته من البحث والدراسـة

فى تقويم اللسان العربى وتصحيح الملكات العربية فى النطق واللهجة ، اتجه رجال العربية — مع مسايرهم للدراسات العربية واللغوية — الى الدراسات الأدبية والبيانية حرصا على ارضاء ملكاتهم وأذواقهم وتمشيا مع التطور الفكرى والترف العقلى فى دراسة العربية وآدابها ، ومسايرة لروح البحث المتجلية فى الثقافات الأخرى التى امتزجت بالثقافة الاسلامية ، والتى كان لها الأثر والخطر فى اثارة مشكلات الأدب والبيان ، وفى بحث عناصر بلاغة الكلام ، وفى توجيه أذهان الكتاب والأدباء الى المجدى المقبول من الأساليب وطرق الأداء وفى التفكير والمعنى ، وفى مراعاة شتى المقامات وسائر الأحوال التى يجب على الأديب والخطيب والكاتب والشاعر مراعاتها والالمام بها .
وكانت عناصر الثقافة البيانية والأدبية اذ ذاك تتجلى فى طبقتين :

(أ) طبقة رواة الأدب العربى من البصريين والكوفيين والبغداديين، الذين كانوا يرونه اشباعا لنهم فطرتهم وأذواقهم الأدبية العربية الخالصة ، من أمثال : خلف والأصمعى وأبى عبيدة وأبى زيد ويحيى بن نجيم وعمرو بن كركرة وابن سلام ، وأستاذهم أبو عمرو ابن العلاء أعلم الناس بالعرب والعربية[1] ومن عامة رواة الأدب والبيان الذين لا يقفون الا على الألفاظ المتخيرة والمعانى المنتخبة ، وعن الألفاظ العذبة والمخارج السهلة والديباجة الكريمة ، وعلى الطبع الممكن والسبك الجيد ، وعلى كل كلام له ماء ورونق ، وعلى التى اذا صارت فى الصدور عمرتها وفتحت للسان باب البلاغة — كما يقول الجاحظ — دون النحويين الذين ليس لهم غاية الا كل شعر فيه اعراب ، والأخباريين الذين لا يقفون الا على كل شعر فيه الشاهد والمثل ، واللغويين الذين لا يروون الا كل شعر فيه غريب[2] . بجوار هذه الطبقة الشعراء الذين طارت شهرتهم فى آفاق الأدب العربى أمثال ابن هرمة وبشار وصالح بن عبد القدوس وأبى نواس وأبى العتاهية والسيد الحميرى

(١) ١/٢٠٦ البيان .
(٢) ٣/٢٢٤ البيان .

وأبان اللاحقى ومنصور النمرى وسلم الخاسر وابن أبى عيينة ويحيى ابن نوفل وخلف بن خليفة ومحمد بن بشير والعتابى ومسلم وأبى تمام[١] ، وغيرهم من الخطباء ، ورجال الأدب والبيان ، من بيت بنى هاشم وبنى العباس ومن رجال الفرق الأدبية والسياسية والدينية لا سيما المعتزلة وفرق المتكلمين الذين رآهم الجاحظ فوق أكثر الخطباء وأبلغ من كثير من البلغاء[٢] .

(ب) طبقة الكتاب الذين لم ير الجاحظ قوما قط أمثل طريقة فى البلاغة منهم ، والذين التمسوا من الألفاظ ما لم يكن متوعرا وحشيا ولا ساقطا سوقيا[٣] ورأى الجاحظ البصر بهذا الجوهر من الكلام فيهم أعم[٤] وحكم مذهبهم فى نقد[٥] البيان ، وكان جلهم من عناصر أجنبية من الفرس والروم والسريان والقبط من الذين فهموا لغاتهم وبلاغتهم ثم قرءوا البيان والبلاغة العربية وآدابهما وأخذوا يحدثون فى اللغة العربية مذاهب جديدة فى الكتابة والأدب والبيان ويدعون الى آراء خطيرة تمس الذوق الأدبى وترضى اتجاهات الحضارة والترف العقلى والاجتماعى الذى داخل البيئة العربية منذ بدء القرن الثانى ، كما أخذوا يلقنون مذاهبهم الأدبية العامة لتلاميذهم والمشايعين لهم من شداة الأدب كما ترى فى محاضرة بشر بن المعتمر المعتزلى م سنة ٢١٠ هـ فى أصول البلاغة التى يقول الجاحظ عنها : ان بشرا مر بابراهيم بن جبلة بن مخرمة وهو يعلم الفتيان الخطابة فوقف بشر ، فظن ابراهيم أنه انما وقف ليستفيد أو ليكون رجلا من النظارة فقال بشر : أضربوا عما قال صفحا واطووا عنه كشحا ، ثم دفع اليهم صحيفة من تحبيره وتنميقه فى أصول البلاغة وعناصر البيان[٦] ، ومن رجالات هذه الطبقة أبو العلاء سالم مولى هشام بن عبد الملك

---

(١) البيان ١/٥٤ .
(٢) ١/١٠٦
(٣) ١/١٠٥
(٤) ٣/٣٢٥
(٥) ١/٢٤٠
(٦) ١/١٠٤

وعبد الحميد الكاتب أو الأكبر كما يقول الجاحظ[1] ، وعبد الله ابن المقفع وسهل بن هارون والحسن بن سهل والفضل بن سهل ويحيى ابن خالد وجعفر بن يحيى وأيوب بن جعفر وأحمد بن يوسف ومحمد ابن عبد الملك الزيات وعمرو بن مسعدة وسواهم من كتاب الدولة الذين صعدوا بفنهم وبلاغتهم الى أرقى المناصب فى الخلافة الاسلامية ، وكان لهذه الطبقة أثرها فى بحث عناصر البيان وبلاغة الكلام ورسم المذاهب الأدبية التى توائم ذوق بيئتهم وعصرهم مما نراه مبثوثا فى كتاب البيان والتى لا تخرج عن أحكام الذوق الأدبى السليم ولا يتعمد أصحابها فيها مذاهب العلماء فى الشرح والتحليل .

وظهر الجاحظ والبلاغة العربية تفيض سحرا وقوة وروعة ، سواء فى خطب الخطباء وشعر الشعراء ورسائل الكتاب ومحاضرات المحاضرين وجدل المجادلين . كما ظهر وعناصر البيان العربى تكاد تخطو فى طفولتها نحو الغاية وتسير فى هدى العلم والذوق الى منزلتها من الوضوح والتمايز والاستقلال ، فدخل الجاحظ المعمعة وتوسط الميدان وسار أنبه أبطاله المعلمين .. أما الجاحظ فى بلاغة بيانه وجلاله أسلوبه وحلاوة منطقه واستقلاله بمذهب خاص فى الكتابة والبيان فهو فى ذلك ليس له نظير ولا ينكر عليه أحد ، ويحق ما وسم بشيخ الكتاب .. وأما الجاحظ فى وضع أسس البيان وعناصر البلاغة العربية فهذا ما نريد أن نعرف أثره فيه .

خدم الجاحظ البيان العربى خدمة لا تقدر ، بالكتابة — فى كتبه — فى شتى بحوثه وجمع مختلف الآراء والمذاهب فى عناصره وألوانه ، ولم نعلم أن باحثا أفرد البيان العربى بتأليف قبل الجاحظ ، كما كان كل ما هنالك آراء مبثوثة متفرقة لكثير من رجال البيان والأدب ، وكانت خسارة البيان فى عدم تدوينها تكاد تكون فادحة بالغة

---

(1) ١/١٥١

منتهاها ، وما نجد فى الكتاب لسيبويه ومجازات القرآن لأبى عبيدة والشعر والشعراء لابن سلام فانما هو قليل من كثير اذا قيس بما جمعه الجاحظ فى كتبه ومؤلفاته ، نعم لا يمكن لأى باحث أن ينكر حقيقتين هامتين :

أولاهما أن الجاحظ أظهر من أفراد البيان بمعناه العام بالتأليف فى كتابه الكبير « البيان والتبيين » ، وثانيهما أن له فضل جمع مختلف الآراء والمذاهب فيه ، والجمع والاحصاء أول خطوات البحث والابتكار والتجديد ، ومنزلة العالم فى الجمع لا يمكن الغض منها أو الاستهانة بها ، واذا قرأت كتب الجاحظ لا سيما « الحيوان » و « البيان » عرفت منزلة الجاحظ فى هذا السبيل . ومن الغريب أن ترى شخصية الجاحظ واضحة فيما يجمعه وضوحها فيما يبتكره من آراء ومذاهب بعكس كثير من العلماء والباحثين .

والجاحظ فوق أثره الكبير فى جمع آراء رجال البيان والبلاغة فى مذاهبهما وعناصرهما فى كتابه « البيان » على الخصوص ، له وراء ذلك فضل خاص وجهد مستقل فيه ، فقد استقل ببحوث جديدة صبغها بشخصيته واستمدها من عقليته وثقافته وعرفت له وحده دون سواه من الباحثين فى البيان العربى وقواعده ، وقبل أن نفصل ذلك كله نتساءل : ما هو البيان الذى نريده ويعنيه الجاحظ فى كتابه « البيان والتبيين » ؟

لا شك أن الجاحظ لم يعن بالبيان ذكر قواعد البلاغة العربية وأدائها فى ألفاظها وأساليبها ومعانيها كما فهم مؤلف نقد النثر ونقد على ضوئه الجاحظ فى كتابه البيان حيث يقول : « أما بعد فانك ذكرت لى وقوفك على كتاب عمرو بن بحر الجاحظ الذى « سماه البيان والتبيين » وأنك انما وجدته قد ذكر فيه أخبارا منتخلة وخطبا منتخبة ولم يأت فيه بوصف البيان ولا أتى على أقسامه فى هذا اللسان ،

وكان عندما وقفت عليه غير مستحق لهذا الاسم الذى نسب[1] اليه » .

ولا شك أن أبا هلال العسكرى كان أدنى الى الانصاف حينما نوه فى كتابه الصناعتين بكتاب « البيان » وذكر خطورته كمؤلف من مؤلفات البيان العربى ، وان كانت أبحاثه فى البيان موجزة مفرقة[2] ، فهو بدون شك ومهما أردنا بكلمة البيان من معان مؤلف من مؤلفات البيان ، ولا يضيرنا بعد ذلك ان كانت بحوثه فى البيان مجملة أو مفصلة مجموعة أو مفرقة ، ونحن على كل حال فى الرأى مع أبى هلال .

ولا شك أيضا أن ابن شهيد حين ذهب الى أن كتاب « البيان للجاحظ » لم يكشف فيه مؤلفه عن وجه تعليم البيان ليرى القارىء كيف يكون وضع الكلام وتنزيل البيان وكيف يكون التوصل الى حسن الابتداء وتوصيل اللفظ بعد الانتهاء ، وأن الجاحظ استمسك بفائدته وضن بما عنده غيرة على العلم وشحا بثمرة الفهم[3] قد ظلم الجاحظ وكتابه وحكم عليه حكسه متأثرا باتجاهه هو فى البيان الذى انتحى فيه ناحية تطبيقية حتى كان كما يقول يعلم الشحاذ الأساليب التى يستدر بها عطف الناس[4] . فابن شهيد حين أراد أن يكون كتاب « البيان » كتابا يرسم فيه مؤلفه طرق الأداء ويعبد سبل التعبير عن مختلف الأغراض التى تؤثر فى عقول الناس وعواطفهم ، قد ظلم الجاحظ مرتين : ظلمه حين تناسى ما كتبه وما جمعه الجاحظ فى رسم المذاهب الأدبية المختارة فى الأداء والتعبير ، وظلمه مرة أخرى حين حكم فيه اتجاهه هو ونقده على ضوئه وقاس كتابه بمقياسه .

وعلى كل فالجاحظ انما أراد بالبيان ما كشف لك قناع المعنى وهتك الحجب دون الضمير حتى يفضى السامع الى حقيقته[5] ، وأراد

---

(١) ص ١ نقد النثر .　　(٢) ٦ و ٧ الصناعتين .
(٣) الزوابع والتوابع ، والذخيرة .
(٤) الذخيرة .　　(٥) ١/٦٨ البيان .

ما أراد جعفر بن يحيى من البيان ، وهو أن يكون الاسم يحيط بمعناك ويجلى عن مغزاك وتخرجه من الشركة ولا تستعين عليه بالفكرة والذى لابد منه أن يكون سليما عن التكلف بعيدا من الصنعه بريئا من التعقيد غنيا عن التأويل[١] ، أراد به ساحر الأدب ورائعه من نثر ونظم وأسجاع ورسائل وخطب ومقالات وأحاديث وحجاج ، وأراد به أمثل الأساليب وأقوم الألفاظ التى تقرب ما غمض من المعنى وتوضح ما خفى من الأفكار ، ذاكرا معها أصحابها من أولى اللسن والخطابة والبلاغة فى المنثور والمنظوم ، ولذلك كان كتابه أخبارا منتحلة وخطبا منتخبة كما يقول مؤلف نقد النثر ، والجاحظ لا يكتفى بذكر ذلك وحده بل يذكر المذاهب الأدبية العامة فى عصره وقبل عصره فى النقد والأدب والبيان كلما دعا اليها داع أو ألمت بها مناسبة ، ويذكر فى سياق ذلك آراءه الأدبية التى يؤثرها ويدعو اليها فى شىء من الاجمال والايجاز وفى مواضع متفرقة من كتابه كما يقول أبو هلال .

* * *

— ٤ —

ارتاب بعض الباحثين المعاصرين فى شخصية الجاحظ فى كتابه البيان ، ورأى أنها تكاد تكون معدومة فيه[٢] . وهذا موضع مناقشة هذه الفكرة الجائرة .

ان من يمعن فى كتاب « البيان » يؤمن معى ايمانا جازما بمدى ما فى هذا الرأى من جور على الجاحظ وغبينة لكتابه ، فشخصية الجاحظ فى كتابه البيان ليست معدومة ولا ضعيفة ، بل نراها قوية مهيمنة ونلمسها فى ثناياه فى مظاهر منوعة :

فهى فيما يذكره الجاحظ من أدب ورواية ، وفيما يسرده من آراء رجال البيان العربى فى البلاغة وعنصرها ومذاهبها ، ويكفى لظهورها

(١) ٨٥ و ١/٨٦ البيان .   (٢) ص ٧ مقدمة نقد النثر .

في هذا المأثور صبغ شخصية الجاحظ لهذه الروايات بصبغته ، وهضم تمثيله لها واخراجها في أسلوبه الساحر ، وفي استطراده الفاتن العجيب ، وفي سعة تامة واحاطة كبيرة باللغة والأدب والبيان .

وهي في تعليقه على هذه الروايات والآراء . وفي نقده لها وحكمه عليها . وان نتحدث من ذلك نقده للآراء العامة في الأدب وما يتصل به . مما نراه في تعليقه على رأي الأهتم في الأحنف بن قيس[1] . وفي موافقته لرأي اياس في حمد اعجاب الرجل بقوله[2] ، وفي تعليقه على الحكمة القائلة : قيمة كل امرىء ما يحسنه[3] ، وفي ثنائه على بلاغة لأحمد بن علي[4] ، وفي نقده لرأي في تعليل تهيب عمر في خطابة النكاح[5] ، وفي مناقشته لكلمة عن ابن الزبير[6] ، وفي نقده لمن يستحمق المعلمين ورعاة الغنم[7] ، وفي نقده لرأي من يضع العرب دون الامم العريقة في الثقافة[8] ، وفي نقده رواية خطبة رويت لمعاوية[9] الى آخر ما فيه من التعليق والنقد في هذا الباب . انما نريد نقده لما يتصل بالبيان من آراء ومذاهب تمس صميم البلاغة العربية ، ولا بأس أن نعد بعض هذه التعاليق والنقود .

أنشد خلف الأحمر الجاحظ :

وبعض قريض القوم أولاد علة　　يكد لسان الناطق المتحفظ

فعلق الجاحظ على هذا البيت تعليقا جميلا . فالشعر « اذا كان مستكرها وكانت ألفاظ البيت من الشعر لا يقع بعضها مماثلا لبعض كان بينها من التنافر ما بين أولاد العلات ... وأجود الشعر ما رأيته متلاحم الأجزاء سهل المخارج ، فيعلم بذلك أنه أفرغ افراغا جيدا

---

(١) ٥٧ ، ١/٥٨　　(٢) ١/٨٢
(٣) ١/٧٣　　(٤) ١/٧٤
(٥) ١/٩٢　　(٦) ١/١٩٢
(٧) ١/١٧٤　　(٨) ١/١٤٣
(٩) ٢/٥٧

وسبك سبكا واحدا ، فهو يجرى على اللسان كما يجرى على الأذهان[1] » وذلك تقرير لبلاغة الألفاظ والنظم ولتنافر الحروف والكلمات سبق اليه الجاحظ عبد القاهر وتسيعنه والسكاكى ومدرسته بقرون •

ويرى بليغ أن بلاغة الكلام فى أن يسابق معناه لفظه ولفظه معناه ، فلا يكون لفظه الى سمعك أسبق من معناه الى قلبك ، والجاحظ يثنى على هذا الرأى ويجتبيه[2] •

ويرى ابن المقفع أنه يجب أن يكون فى صدر كلامك دليل على حاجتك ، كما أن خير أبيات الشعر البيت الذى اذا سمعت صدره عرفت قافيته (١/٩١ بيان) ، فيشرح ذلك الجاحظ ويدلى برأيه فيه[3] ، مقررا بلاغة الاستهلال تقريرا ليس بعده من غراية •

والجاحظ جد معجب ببلاغة الكتاب ، يتجلى ذلك فى نقده لمذهبهم الأدبى فى الكتابة والبيان[4] : ، وهو يرى أن حديث الأعراب الفصحاء بالغ الغاية فى الامتاع ، وليس أفتق للسان ولا أجود تقويما للبيان[5] منه . كما يعجب ببلاغة المتكلمين والنظارين ويراهم فوق أكثر الخطباء وأبلغ من كثير من البلغاء[6] •

وذكر الجاحظ رأى ابراهيم بن محمد فى البلاغة وأنه يكفى من حظها ألا يؤتى السامع من سوء افهام الناطق ولا الناطق من سوء فهم السامع ، ثم أشاد به وأثنى عليه (١/٧٥) •

واختلف علماء البيان فى الخطابة وهل يستجاد فيها الاشارة والحركة ؟ فذهب النظام الى استجادتها ، وجعلها رجل كأبى شمر

---

(١) ١/٦٢
(٢) ١/٩١
(٣) ١/٩٢
(٤) ١/١٠٥ و ٣/٢٢٥
(٥) ١/١١٠
(٦) ١/١٠٦

عيبا فى الخطيب ، والجاحظ يذكر ذلك ويميل الى رأى أستاذه النظام محللا رأى أبى شمر ويرجعه الى صفاته الخلقية والنفسية من الوقار والتزمت (٦٩ و ٧٧ و ١/٧٨) .

ويختلفون كذلك فى شىء آخر يمس الخطيب والبليغ ، فهل السمت والجمال من تمام آلة البليغ أو لا ؟ يورد الجاحظ ذلك ويذكر بتفصيل رأى سهل بن هرون فى عدم عدهما من أدوات البلاغة (١/٧٦) ، ولا شك أن الجاحظ كان يدافع عن نفسه بما أورده وفصله فى ذلك الموضوع .

وكثرة الكلام يراها بليغ كاياس خيرا وبلاغة ، ولكن الجاحظ يرد عليه ، لأن للكلام غاية ، ولنشاط السامعين نهاية (١/٨٢) ... وكذلك اعادة الحديث من العلماء من ذمة ومنهم من حمده ومنهم من جعل لحمده مواضع وأسبابا ، والجاحظ يتكلم فى ذلك ويدلى برأيه فيه ويجعله على قدر المستمعين له ودرجاتهم العقلية ، ويعلل سر ما فى الذكر الحكيم من اعادة وتكرير (٨٤ و ١/٨٥) .

والجاحظ يروى وصف ثمامة بن أشرس لبلاغة جعفر بن يحيى (١/٨٥) ، ويصف هو بلاغة ثمامة (١/٨٩) ، ويصف بلاغة بليغ يحذر من سحر الكلام وأثره ويدعو الى اجتناب السوقى والوحشى والى أن لا يجعل الأديب همه فى تهذيب الألفاظ وشغله فى التخلص الى غرائب المعانى (١٧٦ و ١/١٧٧) . والجاحظ هو نفس هذا البليغ . وكثيرا ما يتكلم فيخرج آراءه فى معرض الرواية عن سواء لغرض سنعلمه بعد حين ، وذلك كله يستحق الدراسة والامعان ، لأنه يمس عناصر البيان وبلاغته .

والخطبة يستحسن أن يكون فيها آى من القرآن أو بيت من الشعر أم لا ؟ يذكر ذلك الجاحظ ويروى مذاهب البلغاء فيه (١/٩٣) ، ويذكر أن منها الطوال ومنها القصار ، وأن لكل مواضع تليق به (٢/١٩) .

ويرى العتابى أن كل من أفهمك حاجته فهو بليغ ، فيذكر الجاحظ ذلك ويحلله (١/١٢١) •• والصمت يحمده قوم ويذمه قوم (١٤٣ — ١٤٦ ، ١/١٨٣) والجاحظ يقف من هؤلاء وهؤلاء موقف الناقد الحصيف ، فيناقش رأى من آثر الصمت (١٤٧ ، ١٤٨ ، ١٨٤ ، ١٨٥ ، ٢٠٥ جـ ١) ويدلى برأيه هو فى قوة وروعة ، داعيا الى ألا يتمسك البليغ بحكمة الصمت مادام يجد القوة والمقدرة والملكات البيانية المواتية (١/١٤٧) •

والشاعر أو البليغ قد يستطيع فنا من فنون البيان ويجيد فيه دون فن آخر ، ورأى بعض الشعراء حين سئلوا عن عدم احسانهم فى بعض أنواع الشعر وفنونه أن ذلك ليس مرجعه قصورا فى ملكاتهم أو عجزا فى مقدرتهم الأدبية ، والجاحظ يناقشهم ويفيض معهم فى الجدال ذاهبا الى أن الرجل قد يكون له طبع فى فن من فنون الأدب دون فن وفى باب دون باب (٥١ ، ١٥٠ ، ١٥١ ، جـ ١ ، ٢٥٩ جـ ٢) •

وبلاغة المتقعرين من اللغويين والنحويين يستسمجها الجاحظ وينقدها ويرى أن نهجهم فيها ليس من أخلاق الكتاب ولا آدابهم (١/٢٤٠) •

وللشعوبيين رأى فى العرب وبيانهم ، والجاحظ لا يدعهم دون أن يحاسبهم ويناقشهم ويرد عليهم فى قوة وحرارة دفاع ، وفى كل ما أخذوه على العرب ، لا سيما ما يمس البيان والبلاغة بوجه خاص (١٥ و ٣/١٦) •

ويرى بعض الباحثين أن أداة الكتابة وقريض الشعر كانت فى رسول الله (ص) معدومة ، فيناقش الجاحظ رأيهم ذاهبا الى أنها كانت فى رسول الله تامة ، ولكنه (ص) صرف تلك القوى الى ما هو أزكى بالنبوة ، وأراد أن لا يكون للشاعر متعلق عما دعا اليه ، وأنه (ص) لما طال هجرانه لقرض الشعر وروايته صار لسانه

لا ينطق به ، والعادة توأم الطبيعة (٣٣٠ و ٣/٢٣١) ، ونحن نستجيد رأى الجاحظ كل الاستجادة ، وعلل الجاحظ أمية رسـول الله وعدم قرضه الشـعر فى افاضة وقوة بيان (٢/٢٢٨) ، وأدلى برأيه فى قوله (ص) : نحن معشر الأنبياء بكاء (٣/٢٧٦) .

وأخيرا فهذه هى شخصية الجاحظ فى بعض ما ناقش فيـه آراء رجال البيـان وهى لعمرى شخصية قوية مهيمنة لا تدعك حتى تؤمن بالجاحظ وثقافته ومذهبه واتجاهه فى الأدب والبيان .

للجاحظ فوق ذلك كله شخصية الباحث فى أصول البيان العربى :

١ ـ فالجاحظ أظهـر من تكلم فى البيـان وحاجته الى التمييز والسياسة والترتيب والرياضة والى تمام الآلة واحكام الصنعة ، والى سـهولة المخرج وجهـارة المنطق وتكميل الحروف واقامة الوزن وأن حاجة الكلام الى الحـلاوة كحاجته الى الجزالة . وأن ذلك من أكبر ما تستمال به القارب وتزين به المعانى (١/٣٠) ولذلك فقد تحدث عن عيوب المنطق وآفات اللسان (٣١ و ٣٣ و ٤٤ ـ ٤٦ و ٥٨ ـ ٦٢ و ٦٦ و ٦٧ جـ ١) ، وتكلم على تنافر الحروف والألفاظ (٦٢ ـ ٦٤ جـ ١) ونادى بضرورة تجنب البـليغ ألفاظ المتكلمين (١٠٦ ـ ١٠٨ جـ١) وبترك الوحشى والسوقى (١١٠ ، ١٧٦ جـ ١) وكراهة الهذر والتكلف والتعقيد والتقعير والاسهاب والفصول (٢١ و ١٤١ و ٢٣٩ جـ ١) ، ونفى الكلام الملحون عن أن يكون من البـلاغة (١٢١ ـ ١٢٤ جـ ١) متحدثا عن اللحن واللحانين (١٥٤ ـ ١٥٥ جـ ٢) . وذكر البيان وأن مداره على الأفهام (١/٦٨) والوضوح مع شرف المعنى وبلاغة اللفظ وصحة الطبع والبعد عن الاستكراه والتكلف ومع قوة التأثير وسـحر البيان (٧٣ و ٧٥ و ٨٩ جـ ١) وأن يكون الكلام موزونا أصيب به مقدار الحاجة (١٦١ و ١٦٢ جـ ١) مع العارضة واللسن (١٣٠ ، ١٦٣ جـ ١) ومع ترك الاسراف فى الصـنعة والتهذيب (١/١٧٦) ومع استعمال

المبسوط والمقصور في موضع البسط والقصر (١/٢٨١) ومع الطبع المتسكن والديباجة الكريمة والماء والرونق (٢٢٤ و ٢٢٥ جـ ٣) ومتى شاكل اللفظ معناه وأعرب عن فحواه وكان لتلك الحال وفقا ، ولذلك القدر لفقا ، وخرج من سماجة الاستكراه وسلم من فساد التكلف والفضول والتعقيد ، حبب الى النفوس واتصل بالأذهان وهشت اليه الأسماع وخف على الألسن وشاع في الآفاق . وكثيرا ما يكرر الجاحظ اصطلاحات أدبية خاصة مثل (صناعة الكلام) (٦٩ و ٢٢٠ جـ ١) وصناعة المنطق (٤٨ و ٦٧ و ٢٠٩ و ٢٤٢ جـ ١) وهو يعنى بذلك هذا اللون الخاص من البيان البلاغي الذى يرسم مناهج الأداء .

وعنى الجاحظ أكثر ما عنى بالخطابة فأطال الكلام في أوصافها وعناصرها وأدواتها ومظاهرها وفي هيئة الخطيب وسمعته ، وذكر عيوبها وآفاقها ، ودعا الخطيب الى مراعاة شتى المقامات والأحوال ، والى أن يطيل حيث تجب الاطالة ويوجز حيث يجب الايجاز ، وذكر أكثر أعلامها ورجالها حتى عصره ، كما تكلم على رسالة الخطيب وأثرها في نفسه ، وأورد من الخطب القصار والطوال الكثير الرائع .

وتكلم على النثر والمحادثة والكتابة : بلاغتها وعناصرها ومذاهب الكتاب الأدبية فيها ، وعلى سحر الحديث المعاد ، والسجع مطبوعة ومتكلفة وبلاغة المطبوع منه ، وعلى اللحن وبدء ظهوره واللحانين ، وكثير من المثل في لحنهم ، وذكر الحكم والمواعظ والزهد والدعوات السياسية والدينية وكثيرا من مثلها ، وتكلم على رواية الأدب وطبقات الرواة من نحويين ولغويين واخباريين وأدباء واتجاهاتهم في الرواية .

كما ذكر الشعر وأثره وخطره وألوانه وطبقات الشعراء ، وتحدث عن مذاهب المطبوعين وأصحاب الصنعة منهم ، وعن الحوليات ورجالها ، وذكر بعد كلام الله ورسوله عن الشعر ، ومكانة الشعر والشعراء في الجاهلية وكيف غلبته الخطابة أخيرا بعد التكسب بالشعر وكثرة الشعراء ، وحتم على الأدباء الناشئين عرض ثمراتهم الأولى على أولى

العلم ورأى أن اجتماع الشعر والرجز والخطابة قليل ، وقلما ينبه الانسان فى أكثر من فن واحد منها ، وأن الشعر والغناء والنادرة مما يستجاد أطرافها دون أوساطها ، وتكلم على استواء الشاعرية واختلافها . الى غير ذلك مما يتصل بصميم البيان ، ومما تراه متفرقا فى الأجزاء الثلاثة من كتاب البيان .

٢ ــ ودعوة الجاحظ فى كتابه « البيان » ــ وفى مواضع متفرقة منه لاسيما الجزء الأول من كتابه الكبير ــ الى مذهب أدبى جديد مستمد من عقليته وثقافته وبيئته : هى المظهر القوى من مظاهر شخصية الجاحظ الواضحة فى كتابه البيان والتبيين . ويمكننا ارجاع هذا المذهب الى عناصره الأولى من : سحر اللفظ وتلاؤم الحرف ، ووضوح المعنى وترك التكلف والتعقيد والاغراب والوحشية والسوقية ، ومراعاة المقام واصابة الغاية ، مع الحذق والرفق والتخلص الى حبات القلوب واصابة عيون المعانى فى سحر ايجاز ، ومع البعد عما يكره من مظاهر مذمومة فى البيان مما يتعلق بخلق البليغ وخلقه أو طبعه وزيه ، ومع الحرص على صبغ ذلك كله بصبغة الرجل وأسلوبه وظهور شخصيته وأثره فيه ، ومع مسايرة الأديب للحركة الفكرية العامة فى بيئته ، ومع الحرص على ايثار نشاط السامعين والقراء والاحتيال عليه ، بالفكاهة الجميلة ، والاستطراد الساحر ، وبراعة الأسلوب وسحره وقوته ، والرواية الكثيرة لأعلام الأدب والبيان التى تلقى فى روع السامع والقارىء روح الهيبة والاعجاب بهم وبالمؤلف ، وبمناقشة الآراء التى تستحق المناقشة والنقد مما تجعل السامع والقارىء متطلعا مسايرا للمؤلف فى اتجاهاته الفكرية والأدبية ، الى غير ذلك من عناصر هذا المذهب الأدبى التى ترجع الى المعنى والأسلوب دون حرص على ترف البيان أو طلب لشتى ألوان البديع الا اذا طلبها الطبع واستدعاها المقام ، ومن الجدير بالملاحظة أن كثرة الرواية فى كتاب الجاحظ التى رآها بعض الباحثين المعاصرين من أسباب ضعف شخصيته انما هو غرض قصد اليه الجاحظ وأراده ، ليشعر القارىء بروحه ويؤمن

بما يوجهه المؤلف اليه من آراء وأفكار ، وليكتسب به رضـاه وتقديره واعجابه . ولا أحيلك فى فهم مذهب الجاحظ ذلك على صفحة من كتابه ، فاقرأ أى صفحة وعلى الأخص الجزء الأول من هذا الكتاب ، فستؤمن معى بما ذكرت .

٣ ــ وقد ظهر الجاحظ فى عصر شاع فيه اتجاهان أدبيان مختلفان : اتجـاه يرمى الى الظهور بمظهر البداوة التقليـدى فى الأداء والتعبير فيؤثر الغريب من الألفاظ والعنجهى من الأساليب متناسيا روح العصر وذوقه ، والاتجـاه آخر تأثر بالحيـاة السياسية والاجتماعيـة وبألوان الحضارة فى العيش والتفكير ، فمال الى رقة الأسـلوب وسـهولته ، مع حرص على ارضاء الطبع والذوق ، وشاهد الجاحظ هـذه التيارات الفكرية والأدبية المنوعة وعاصرها ولكنه مال بطبعه وذوقه الى الاتجاه الأخير ، وكتابه البيان كله دعوة الى هـذا الرأى ، فهو حينا يشـيد بأدب الكتاب ومذهبهم فى البيان (١٠٥/١) ، وحينا يكرر الدعوة الى الوضـوح والافهام ومسـايرة الذوق والطبع (٧٣ جـ ١ و ٢٠ جـ ٢ و ٢٢٥ جـ ٣) ، وحينا ينقد مذاهب الصنعة فى الشـعر (٥٤ ، ١٥٠ جـ ١ و ٢١ ، ٢٥ و ٢٦ جـ ٢) ، وحينا يدعو الى ترك التكليف والتعقيد والتقعير وايثار الأساليب السمحة الكريمة (١١٠ جـ ١ و ٢٠ ، ٢١ جـ ٢ و ٢٢٤ جـ ٣) .

٤ ــ وتكلم الجاحظ عرضا على ألوان كثيرة من البيان ، وحال كثيرا من أسـاليبه البيانية :

ذكر البديع ، حينما ذكر بعض مثله وأسـاليبه ، ورأى أنه مقصور على العرب ، ومن أجله فاقت لغتهم كل لغة ، وذكر كثيرا من الشـعراء الذين أكثروا منه فى شعرهم ، « ورأى أنه لم يكن فى المولدين أصوب بديعا من بشار وابن هرمة (٢٤٢ جـ ٣ ، ٥٤ و ٥٥ جـ ١) .. وتكلم على ألوان من البيان من سجع ومزدوج وقصيد وأجازة (١٦ جـ ٣) ، فأما السجع فقد تكلم عليه الجاحظ بتفصيل وذكر آراء رجال البيان فيـه

وآثر المطبوع منه (١٩٤ و ١٩٥ ج ١) وأما المزدوج من الكلام فقد ذكر له مثلا فى باب صغير عقده له (٩٦ ج ٢) ومن مثله التى ذكرها الحديث : « اللهم علمه الكتاب والحساب وقه العذاب » . وقول مالك ابن الأخطل فى الشاعرين « الفرزدق وجرير » : جرير يغرف من بحر والفرزدق ينحت من صخر .

وتكلم على الاستعارة وعرفها حين ساقه الكلام الى ذكر مثل من مثلها ورآها تسمية الشيء باسم غيره اذا قام مقامه (١١٥ و ١١٦ ج ١) ، ويرجع بعض الأساليب الى الاستعارة (راجع ١/١٩٢) .. وذكر التفصيل والتقسيم حين مر بأسلوبين من أساليبهما (١/١٧٠ ، ٩١ و ٣/٩٢) .. وتكلم على الاستطراد وبلاغته وأثره فى التأليف والكتابة (١/١٣٨ ، ٣/١٠٥) .. وذكر كثيرا من مثل الكناية وحللها (١/١٨٠ ، ٣١ ج ٣) ، كما ذكر كثيرا من الأمثال التى ضرب بها العرب المثل (٨٦ ، ١٨٣ ج ١) .. وتكلم على جودة الابتداء ، وجودة القطع والقافية — أى حسن خاتمة الكلام والشعر — (٨٩ و ١٥٥ ج ١) .. وعقد الجاحظ بابا قال فيه : ويذكر الكلام الموزون ويمدحون به ويفضلون اصابة المقدار ، وذكر كثيرا من مثله ، وهذا هو باب الاحتراس الذى ذكره البيانيون .. وحلل الجاحظ كثيرا من الأساليب البيانية البليغة (راجع ١٦٣ ، ١٦٦ ج ١ و ٢٠١ ج ٢) تحليلا بيانيا احتذى حذوه فيه العلماء وذكر مثلا رائعة للتشبيه (٢/٢٢٩) وأشار اليه فى الجزء الثالث ص ٢٤٣ ، وعقد الجاحظ فصلا من فصول كتابه عنونه بباب اللغز فى الجواب (٢/٢١٦) ، والمذهب الكلامى نوع من البديع كان الجاحظ أول من لقبه[1] به ، والجاحظ جد خبير بمذهب الايجاز وكثير الدعوة والاشارة اليه (٨١ ج ١ و ١٩٨ ج ٢) ، وأشار الجاحظ الى أسلوب القلب (١٨٠ ج ١) ، والى سواه من الأساليب التى يعنى بها علماء البلاغة .

---

(١) راجع البديع لابن المعتز نشر محمد خفاجى ، ٢/٧٦ العمدة .

وبعد : فتلك آراء الجاحظ البيانية الخاصة به ؛ وهى وان كانت دراسـات موجزة مفرقة الا أنها على كل حال ذات أثر كبير فى خدمة البيان العربى ..

* * *

أول صحيفة فى البلاغة لبشر بن المعتمر
عن البيان والتبيين للجاحظ

مر بشر بابراهيم بن جبلة بن مخرمة السكونى الخطيب وهو يعلم الفتيـان الخطـابة فوقف بشر ، فظن ابراهيم أنه انما وقف ليسـتفيد أو ليكون رجلا من النظارة ، فقال بشر ، اضربوا عما قال صفحا واطووا عنه كشحا .. ثم دفع اليهم صـحيفة من تحبيره وتنميقه ، وكان أول ذلك الكلام :

خذ من نفسك ساعة نشاطك وفراغ بالك واجابتها اياك ، فان قليل تلك الساعة أكرم جواهر ، وأشرف حسبا ، وأحسن فى الاسماع . وأحلى فى الصدور وأسلم من فاحش الخطأ ، وأجلب لكل عين وغرة ، من لفظ شريف ومعنى بديع ..

واعلم أن ذلك أجدى عليـك مما يعطيـك يومك الأطول بالكد والمطاولة والمجاهدة وبالتكلف والمعاودة . ومهما أخطأك لم يخطئك أن يكون مقبولا قصدا وخفيفا على اللسان سهلا ، وكما خرج من ينبوعه ونجم من معدنه .

واياك والتوعر ، فان التوعر يسـلمك الى التعقيـد ، والتعقيـد يستهلك معانيك ويشين ألفاظك ، ومن أراغ معنى كريما فليتمس له لفظا كريمـا ، فان حق المعنى الشريف ، اللفظ الشريف ، ومن حقهمـا أن تصونهما عما يفسدهما ويهجنهما ، وعما تعـود من أجله الى أن تكون أسـوأ حالا منك قبل أن تلتمس اظهارهما وترتهن نفسـك بملابستهما وقضاء حقهما .

وكن فى ثلاث منازل أ فان أولى الثلاث : أن يكون لفظك رشيقا عذبا وفخما سهلا ، ويكون معناك ظاهرا مكشوفا وقريبا معروفا ، 'ما عند الخاصة ان كنت للخاصة قصدت ، واما عند العامة ان كنت للعامة أردت . والمعنى ليس يشرف أن يكون من معانى الخاصة ، وكذلك ليس يتضع بأن يكون من معانى العامة ، وانما مدار الشرف على الصواب واحراز المنفعة مع موافقة الحال وما يجب لكل مقام من المقال . وكذلك اللفظ العامى والخاصى ، فان أمكنك أن تبلغ من بيان لسانك وبلاغة قلمك ولطف مداخلك واقتدارك على نفسك أن تفهم العامة معانى الخاصة وتكسوها الألفاظ الواسطة التى لا تلطف عن الدهماء ولا تجفو عن الأكفاء ، فأنت البليغ التام .

فان كانت المنزلة الأولى لا تواتيك ولا تعتريك ، ولا تسمح لك عند أول نظرك وفى أول تكلفك ، وتجد اللفظة لم تقع موقعها ولم تصر الى قرارها والى حقها من أماكنها المقسومة لها ، والقافية لم تحل فى مركزها وفى نصابها ولم تتصل بشكلها ، وكانت قلقة فى مكانها نافرة من موضعها ، فلا تكرهها على اغتصاب الأماكن والنزول فى غير أوطانها ، فانك اذا لم تتعاط قرض الشعر الموزون ، ولم تتكلف اختيار الكلام المنثور ، لم يعبك بترك ذلك أحد ، وان أنت تكلفتها ولم تكن حاذقا مطبوعا ولا محكما لسانك بصيرا بما عليك أو مالك ، عابك من أنت أقل عيبا منه ، ورأى من هو دونك أنه فوقك .. فان ابتليت بأن تتعاطى الصنعة وتتكلف القول ولم تسمح لك الطباع فى أول وهلة وتعصى عليك بعد اجالة الفكرة فلا تعجل ولا تضجر ودع بياض يومك أو سواد ليلك وعاوده عند نشاطك وفراغ بالك ، فانك لا تعدم الاجابة والمواتاة ان كانت هناك طبيعة أو جريت من الصناعة على عرق .

فان تمنع عليك بعد ذلك من غير حادث شغل عرض ومن غير طول اهمال ، فالمنزلة الثالثة أن تتحول من هذه الصناعة الى أشهى الصناعات اليك وأخفها عليك ، فانك لم تشتهه ولم تنازع اليه الا وبينكما

نسب ، والشيء لا يحن الا الى ما يشاكله ، وان كانت المشاكلة قد تكون في طبقات الأنفس لا تجود بمكنونها ولا تسمح بمخزونها مع الرهبة كما تجود مع المحبة والشهوة ، فكذا هذا . قال بشر : فلما قرئت على ابراهيم قال لى ، أنا أحوج الى هذا من هؤلاء الفتيان .

* * *

مؤلفات متأخرة فى البلاغة

١ ــ من شروح تلخيص المفتاح للخطيب : شرح للخلخالى م ٧٤٥ هـ ، وشرح للزوزنى م ٧٩٢ ، شرح لابن عربشاه م ٩٤٥ ، وقد شرح العباسى أبيات التلخيص فى كتابه « معاهد التنصيص » ونظمه السيوطى فى كتابه « عقود الجمان » .. وقد شرح جمال الدين محمد بن محمد الأقصرائى م ٨٠٠ هـ كتاب الايضاح للخطيب القزوينى فى كتاب أسماه « ايضاح الايضاح » .. (٢ و ٤٥٩) بلاغة ــ دار الكتب المصرية ــ مخطوطات) .

٢ ــ وعلى المطول حواش كثيرة : منها حاشية السيد م ٨١٦ ، وحاشية الفنرى م ٨٨٦ ، وحاشية ملا خسرو م ٨٨٥ ، وحاشية السيرامى المصرى م ٨٣٣ وحاشية الحفيد م ٩٠٦ هـ ، وحاشية الشيرازى م ٩٩٤ هـ ، وعز الدين بن جماعة م ٨١٩ هـ ، والبساطى م ٨٤٢ هـ ، والسمرقندى م ٨٨٠ هـ ، وعبد الحكيم السيلاكوتى ١٠٦١ هـ .

٣ ــ ومن الكتب المتأخرة فى البلاغة : الجوهر المكنون لعبد الرحمن الأخضرى وقد شرحه ابن يعقوب ، والشيخ أحمد الدمنهورى م ١١٩٢هـ.

ومنها : تحفة الأعواز فى علاقات المجاز للسجاعى م ١١٩٧ ، وتحفة الاخوان فى علم البيان للدردير م ١٢٠١ هـ ، والرسالة البيانية للصبان م ١٢٠٦ هـ ، والتجريد للبنانى م ١٢١١ هـ ، وحسن الصنيع للشيخ البسيونى م ١٣١٣ هـ ، وزهر الربيع للحملاوى م ١٣٥٢ هـ ،

والبلاغة الواضحة للجارم المتوفى فى ٨ فبراير ١٩٤٩ ، وكتاب « فن القول » للأستاذ أمين الخولى • وهناك مذكرات قيمة مطبوعة فى بحوث البلاغة للأستاذ سليمان نوار ، وللأستاذ حامد عونى •• وللشيخ محمد عرفة عضو جماعة كبار العلماء كتاب قيم فى البلاغة سينشره عما قريب ، وله محاضراته البلاغية التى كان يلقيها فى قسم الأستاذيه بكلية اللغة العربية ، والتى أفاد منها جمهور كبير من العلماء •

* * *

تطبيقـــــات

— ١ —

عين الأساليب الخبرية والانشائية فيما يأتى :

١ ـ « آمن الرسول بما أنزل اليه من ربه ، والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتب ورســله » .

٢ ـ « يمحق الله الربا ويربى الصــدقات ، والله لا يحب كل كفــارٍ أثيم » .

٣ ـ « يأيها الذين آمنوا ، أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » .

٤ ـ قال صلى الله عليه وسلم : « استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان ، فإن كل ذى نعمة محسود » .

٥ ـ ومن وصية عبد الملك بن مروان لأولاده : يا بنى ، كفوا أذاكم ، وابذلوا معروفكم ، واعفوا اذا قدرتم ، ولا تبخلوا اذا سئلتم ، ولا تلحفوا اذا سألتم ، فان من ضيق ضيق الله عليـه ، ومن أعطى أخلف الله له .

٦ ـ قال أبو العلاء المعرى :

لا تحلفن على صــدق ولا كذب   فما يفيــدك الا المــأثم الحلف

٧ ـ وقال :

لا تفرحن بمــا بلغت من العــلا   واذا سبقت فعن قليــل تسـبق
وليحــذر الدعوى اللبيب فانهــا   للفضــل مهلكة وخطب موبق

٨ ـ وقال أبو العتاهية :

بكيت على الشباب بدمع عيني فلم يغن البكاء ولا النحيب
ألا ليت الشباب يعود يوما فأخبره بما فعل المشيب

٩ ـ وقال :

يا صاحب الدنيا المحب لها أنت الذى لا ينقضى تعبه

١٠ ـ وقال :

ما أحسن الدنيا واقبالها اذا أطاع الله من نالها
من لم يؤاس الناس من فضلها عرض للادبار اقبالها

١١ ـ وقال الشاعر :

أراك تؤمل حسن الثناء ولم يرزق الله ذاك البخيلا
وكيف يسود أخو فطنة يمن كثيرا ويعطى قليلا

١٢ ـ وقال سعيد بن حميد :

وأراك تكلف بالعتاب وودنا صاف عليه من الوفاء دليل
ولعل أيام الحياة قصيرة فعلام يكثر عتبنا ويطول

* * *

— ٣ —

بين أساليب الخبر وأدوات التوكيد فى الأمثلة الآتية :

١ — « يأيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، ان أكرمكم عند الله أتقاكم ، ان الله عليم خبير » .

٢ — « وفى السماء رزقكم وما توعدون . فورب السماء والأرض أنه لحق مثل ما أنكم تنطقون » .

٣ — وقال صلى الله عليه وسلم : « شر الناس الذين يكرمون اتقاء ألسنتهم » .

٤ — وقال على كرم الله وجهه : « مارست كل شىء فغلبته ، ومارسنى الفقر فغلبنى ، ان سترته أهلكنى ، وان أذعته فضحنى » .

٥ — وقال النبى عليه السلام يصف الأنصار : « انكم لتقلون عند الطمع ، وتكثرون عند الفزع » .

٦ — وقال بشار بن برد :

خليلى ان المال ليس بنافع   اذا لم ينل منه أخ وصديق

٧ — وقال أبو العتاهية :

ان البخيل وان أفاد غنى   لترى عليه مخايل الفقر
ما فاتنى خير امرىء وضعت   عنى يداه مئونة الشكر

٨ — وقال آخر :

وللحلم خير فاعلمن مغبة   من الجهل الا أن تشمس من ظلم

٩ ــ وقال حسان بن ثابت :

أصـــون عرضى بمالى لا أدنســـه ... لا بارك الله بعد العرض فى المـــال
أحتال للمـــال أن أودى فأكسبه ... ولست للعرض ان أودى بمحتال

١٠ ــ وقال المقنع الكندى يعاتب قومه ، ويصف وفاءه لهم :

وان الذى بينى وبين بنى أبى ... وبين بنى عمى لمختلف جـــدا
فان أكلوا لحمى وفرت لحومهـــم ... وان هم هووا غيبى هويت لهم رشدا
وان زجروا طيرا بنحس تمر بى ... زجرت لهم طيرا تمر بهم ســـعدا
ولا أحمل الحقد القديم عليهم وليس ... رئيس القول من يحمل الحقدا
لهم جل مالى ان تتـــابع لى غنى ... وان قـــل مالى لم أكلفهم رفـــدا
وانى لعبد الضـــيف ما دام نازلا ... وما شيمة لى غيرها تشـــبه العبدا

١١ ــ وقال رجل من فزارة يفخر بشرف خصاله وجوده :

الا يكن عظمى طـــويلا فاننى ... له بالخصـــال الصالحات وصـــول
ولا خير فى حسن الجسوم وطولها ... اذا لم تزن حسن الجسوم عقول
اذا كنت فى القوم الطوال علوتهم ... بعـــارفة حتى يقـــــال طويل
وكم قد رأينـــا من فروع كثيرة ... تموت اذا لم تحيهن أصـــول
ولم أر كالمعروف ، أما مذاقه ... فحـــلو ، وأما وجهه فجميـــل

١٢ ــ وقال ســـعيد بن سلم الباهلى : مدحنى أعرابى فأبلغ ، فقـــال :

ألا قل لسارى الليل لا تخش ضلة ... ســـعيد بن ســـلم نور كل بلاد

لنا سـيد أربى على كل سـيد　　جواد حشـا فى وجـه كل جواد

قال سعيد : فتأخرت عنه قليلا ، فهجانى ، فأبلغ ، فقال :

كل أخى مدح ثواب علمتـه　　وليس لمـدح الباهـى ثواب
مدحت سـعيدا والمديح مهزة　　فكان كصـفوان عليـه تراب

وفى هذا الشعر اشارة الى قول الله تعالى : « يأيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى ، كالذى ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر . فمثله كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صـلدا » .

١٣ ــ وقال الشماخ يمدح عرابة بن أوس الأنصارى :

رأيت عرابة الأوسى يسـمو　　الى العليـاء منقطع القرين
اذا ما رايـة رفعت لمجـد　　تلقـاها عـرابة باليمـين

١٤ ــ وقال بشار بن برد فى العتاب :

اذا ما رايـة رفعت لمجـد　　تلقـاها عـرابة باليمـين
فعش واحـدا أو صل أخاك فانه　　مقـارف ذنب مرة ومجانبـه
اذا أنت لم تشرب مرارا على القذى　　ظمئت،وأى الناس تصفو مشاربه

١٥ ــ وقال ابراهيم الصولى يعاتب محمد بن عبـد الملك الزيات وقد تغير عليه بعد ما صار وزيرا :

وكنت أخى باخـاء الزمان　　فلما نبـا صرت حربا عوانا
وكنت أذم اليـك الزمان　　فأصـبحت فيـك أذم الزمانا

وكنـت أعـدك للنائبـات فأصـبحت أطلب منـك الأمانا

١٦ ـ ومن الهجو قول جرير يهجو تيما :

ويقضى الأمر حين تغيب تيم ولا يستأذنون وهم شـهود
وانـك لو رأيت عبيـد تيم وتيما قلت أيهم العبيـد

١٧ ـ وقال الحسين بن مطير يرثى معن بن زائدة :

ألمـا على معـن وقـولا لقـبره سـقتك الغوادى مربعا ثم مربعا
فيا قبـر معن أنت أول حفـرة من الأرض خطت للسماحة مضجعا
ويا قبـر معن كيف واريت جوده وقد كان منه البر والبحـر مترعا
بلى قد وسعت الجود والجود ميت ولو كان حيا ضقت حتى تصـدعا
فتى عيش فى معروفه بعـد موته كما كان بعد السيل مجراه مرتعا

١٨ ـ ولقطرى بن الفجاءة فى الحماسة يخاطب نفسه :

أقول لها وقد طارت شـعاعا من الأبطـال ويحك لن تراعى
فانك لو سـألت بقـاء يوم على الأجل الذى لك لم تطاعى
فصبرا فى مجال الموت صبرا فما نيـل الخلود بمسـتطاع
وما للمـرء خير فى حيـاة اذا ما عد من سـقط المتاع

١٩ ـ وقال الشـاعر :

ولم أر كالمعـروف أما مذاقه فحـلو ، وأما وجهـه فجميـل

٢٠ ـ وقال صردر :

تذل الرجـــال لأطماعهـــا كذل العبيـــد لأربابهـــا
وأعلم أن ثيـــــاب العفـا ف أجمـــل زى لمجتابهـــا

أى للابسها .

٢١ ـ وقال آخر :

لعمرك ما يدرى امرؤ كيف يتقى اذا هـــو لم يجعل له الله واقيـا

٢٢ ـ وقال سعيد بن حميد فى العتاب :

أقـــلل عتابك فالبقـاء قليـــل والدهر يعـدل تارة ويميـــل
ولعـــل أحـــداث المنيـــة والردى يوما ستصدع بيننـــا وتحـــول
فلئن ســـبقت لتبكين بحسرة وليكثرن على منـــك عويل
ولئن سبقتـــ ولاسبقتـــ ليمضين من لا يشـــاكله لدى خليـــل
وليذهبن بهـــــاء كل مروءة وليفقدن جمالهــــا المـأهول

* * *

— ٣ —

عين الأغراض المستفادة من الخبر فى الأمثلة الآتية :

١ ـ قال تعالى : « لله ما فى السموات وما فى الأرض ، وإن تبدوا ما فى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله ، فيغفر لمن يشاء ، ويعذب من يشاء ، والله على كل شيء قدير » .

٢ ـ وقال تعالى : « عبس وتولى ، أن جاءه الأعمى ، وما يدريك لعله يزكى ، أو يذكر فتنفعه الذكرى ، أما من استغنى فأنت له تصدى ، وما عليك ألا يزكى ، وأما من جاءك يسعى ، وهو يخشى ، فأنت عنه تلهى » .

٣ ـ قال صلى الله عليه وسلم : « عدل ساعة فى حكومة خير من عبادة ستين سنة » .

٤ ـ وقال : « ان أشد الناس عذابا يوم القيامة رجل أشركه الله فى حكمه ، فأدخل عليه الجور فى عدله » .

٥ ـ ومن خطبة له عليه السلام بمكة حين دعا قومه الى الاسلام : ان الرائد لا يكذب أهله ، والله لو كذبت الناس ما كذبتكم ، ولو غررت بالناس ما غررتكم ، والله الذى لا اله الا هو ، انى رسول الله اليكم خاصة ، والى الناس كافة .

٦ ـ قال الشريف الرضى :

جار الزمان فلا جواد يرتجى ... للنائبات ولا صديق يشفق
واذا الحليم رمى بسر صديقه ... عمدا فأولى بالوداد الأحمق

٧ ــ وقال المعرى :

عرفت سجايا الدهر ، أما شروره　　فنقـد ، وأما خـيره فوعـود

٨ ــ وقال :

رأيت سـكوتى متجرا فلزمتـه　　اذا لم يفد ربحـا فلست بخاسر

٩ ــ قال ابن حيوس مادحا :

بنى صالح أقصـدتم من رميتم　　وأحييتم من أم معروفكم قصـدا
وذللتم صعب الزمان لأهـله　　فذل وقد كان الجمـاح له وكدا
مناقب لو أن الليـالى توشحت　　بأذيالها لابيض منهن ما اسـودا

١٠ ــ وقال أبو فراس :

صبرت على اللأواء صبر ابن حرة　　كثير العدا فيهـا قليل المسـاعد
منعت حمى قومى وسدت عشيرتى　　وقلدت أهلى غر هذى القـلائد

١١ ــ وقال يخاطب سيف الدولة :

وكم لك عندى من أياد وأنعـم　　رفعت بها قدرى وأكثرت حسدى
وانك للمـولى الذى بك أقتـدى　　وانك للنجم الذى بك أهتـدى

١٢ ــ وقال :

ونحـن أناس لا توسـط بيننـا　　لنا الصدر دون العالمين أو القبر
تهون علينا فى المعـالى نفوسـنا　　ومن يخطب الحسناء لم يغلها المهر

١٣ ــ وقال ابن الرومى فى رجل اسـمه عيسى :

يقتـر عيسى على نفسـه ... وليس بباق ولا خـالد
ولو يسـتطيع لتقتـيره ... تنفس من منخـر واحـد

١٤ ــ وقال أبو العلاء :

بلوت أمور الناس من عهـد آدم ... فلم أر الا هالـكا اثر هـالك
اذا كان هـذا الترب يجمع بيننا ... فأهـل الرزايا مثل أهـل الممالك

١٥ ــ وقال أعرابى يرثى ولده :

بنى لئن ضـنت جفـون بمائهـا ... لقـد قرحت منى عليـك جفون
دفنت بكفى بعض نفسى فأصبحت ... وللنفس منهـا دافن ودفـين

١٦ ــ قال زهير فى قوم هرم بن سنان :

قوم أبوهم سـنان حين تنسبهم ... طابوا وطاب من الأولاد ما ولدوا
لو كان يقعد فوق الشمس من كرم ... قـوم بأولهم أو مجدهم قعـدوا

* * *

عين المسند والمسند اليه ، وبين الأساليب الخبرية والانشائية ، واذكر أغراض الخبر فيما يأتى :

١ ـ قل تعالى : « ياأيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ، ومما أخرجنا لكم من الأرض ، ولا تيمموا الخبث منه تنفقون ، ولستم بآخذيه الا أن تغمضوا فيه ، واعلموا أن الله غنى حميد * الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء ، والله يعدكم مغفرة منه وفضلا ، والله واسع عليم * يؤتى الحكمة من يشاء ، ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا » .

٢ ـ قال عليه السلام : « من أعطى حظه من الرفق فقد أعطى حظه من الخير كله ، ومن حرم حظه من الرفق فقد حرم حظه من الخير كله » .

٣ ـ وقال : « لا يزال الرجل عالما ما طلب العلم ، فاذا ظن أنه قد علم فقد جهل » .

٤ ـ ومن خطبة لخالد بن عبد الله القسرى : « نافسوا فى المكارم ، وسارعوا الى المغانم ، واشتروا الحمد بالجود .. واعلموا أن حوائج الناس اليكم ، نعمة من الله عليكم ، فلا تملوا النعم فتحولوها نقما » .

٥ ـ ومن رسالة لابن زيدون : « قد يغص بالماء شاربه ، ويقتل الدواء المستشفى به ، ويؤتى الحذر من مأمنه ، وتكون منية المتمنى فى أمنيته ... وعلمك محيط بأن المعروف ثمرة النعمة ، والشفاعة زكاة المروءة ، وفضل الجاه تعود به صدقة :

واذا امرؤ أسدى اليك صنيعة من جاهه فكأنها من ماله

٦ ــ قال أبو العتاهية :

اذا ما مضى القرن الذى أنت منهم وخلفت فى قرن فأنت غريب
وان امرأ قد سار خمسين حجة الى منهل من ورده لقريب

٧ ــ وقال أبو العلاء :

احذر سليلك فالنار التى خرجت من زندها ان أصابت عود فاحترقا

٨ ــ وقال الأخطل :

وان امرأ لا ينثنى عن غواية اذا ما اشتهتها نفسه لجهول

٩ ــ وقال حسان بن ثابت :

وان امرأ يمسى ويصبح سالما من الناس الا ما جنى لسعيد

١٠ ــ وقال المتنبى :

تلذ له المروءة وهى تؤذى ومن يعشق يلذ له الغرام

١١ ــ وقال الحسين بن مطير :

أحب مكارم الأخلاق جهدى وأكره أن أعيب وأن أعابا
وأصفح عن سباب الناس حلما وشر الناس من يهوى السبابا
ومن هاب الرجال تهيبوه ومن حقر الرجال فلن يهابا

١٢ ـ قال رجل من طيىء :

ومن يفتقر فى قومه يحمـد الغنى   وان كان فيهم واسط العم مخولا
ويزرى بعقـل المـرء قلة ماله   وان كان أسرى من رجال وأحولا

١٣ ـ الشـاعر :

ان الطبيب يمـوت بالـداء الذى   قد كان يشـفى مثله فيما مضى

١٤ ـ قال عروة بن الورد .

ذرينى للغنى أسـعى فانى   رأيت النـاس شرهم الفقـير
يبـاعده القـريب وتزدريه   حليلته وينهـره الصـغير
وتلقى ذا الغنى ولـه جـلال   يكـاد بفؤاد صـاحبه يطـير
قليـل ذنبـه والذنب جم   ولكـن للغنى رب غفـور

١٥ ـ وقال قيس بن عاصم المنقرى فى قومه :

خطبـاء حـين يقـول قائلهم   بيض الوجـوه مصـقع السن
لا يفطنـون لعـيب جـارهم   وهم لحـفظ جـواره فطن

١٦ ـ وقال وعلة بن الحارث :

قومى همو قتلوا ـ أميم ـ أخى   فاذا رميت يصـيبنى سـهمى

١٧ ـ وقال المتنبى :

ذل من يغبط الذليـل بعيش   رب عيش أخف منـه الحمـام

بحمد الله وتوفيقه تم طبع الجزء الأول
وباذن الله يليــه الجزء الثانى

فهرســـت الجـــزء الأول

الصفحة

رقم الايداع بدار الكتب المصرية ١٩٩٣/٣٦٤٥

دار التوفيق النموذجية
للطباعة والجمع الآلي
الأزهر: ٣ حيضان الموصلي
بجوار جامع الدعاء

To: www.al-mostafa.com